سلسلة دراسات فكرية وفلسفية



سنكلير تسدل

مصادر الإسلام

ترجمة: ميخائيل عبد السَّيِّد

مراجعة: عبد السَّتَّار النّاشِي



دار دجلة الاكاديمية

مصادر الإسلام

سنكلير تسدل

ترجمة: ميخائيل عبد السَّيد

مراجعة: عبد السَّتار النَّاشي

الطبعة: الاولى، ٢٠٢٢

عدد الصفحات: ٢٤٨

القياس: ١٤,٥×٢١,٥

الناشر:



دار دجلة الأكاديمية

Email: Dardijlah@duc.edu.iq

009647827727787

009647724333188

العراق - بغداد - الدورة

شارع المصلى مبنى كلية دجلة

التوزيع:

دار دجلة الاكاديمية

مكتبة المرهج - بغداد

شارع المتنبي - فرع قيصرية السراجين

ISBN: 978-9922-9600-4-3

© جميع الحقوق محفوظة لدار دجلة الأكاديمية، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة، إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أم ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، من دون إذن خطي من أصحاب الحقوق.

طبعت هذه المطبوعات بدعم من كلية دجلة الجامعة الأهلية

سنكلير تسدل

مصادر الإسلام

ترجمة: ميخائيل عبد السيّد

مراجعة: عبد السّتّار النّاشي



دار دجلة الأكاديمية
للنشر والتأليف والتوزيع والترجمة

سلسلة دراسات فكرية وفلسفية

تصدر عن منشورات دار دجلة الأكاديمية

مشرف السلسلة: علي عبد الهادي المرهج

محتويات الكتاب

فهرست الطبعة العربية

محتويات الكتاب

فهرست الطبعة الإنجليزية

ما يسبق المقدّمة:
لماذا هذا الكتاب؟

مـا الدّاعـي لإعادة طبع كتـابٍ مضى ما ينيف عـلى القرن منذ صدور طبعتـه الأولى مع مطلع القرن العشريـن، على الأرجح ما بين ١٩٠٢-١٩٠٤؟، لا سـيّما إن كان كتاباً إشـكاليّاً في طروحاته مـن جهـةٍ، وكتاباً أصبح مـن الكلاسـيكيّات في اتّجاهـه البحثي، المتعلّق بأصول الإسـلام ومصـادره، من جهةٍ أخـرى، وقد قطع هذا الاتّجاه، لاحقاً، أشـواطاً أبعد منه؛ ذلك أنّ من يطّلع على هذا الكتـاب يرى أنّه كتابٌ جـدليٌّ، يندرج في إطار النّقـد الدِّيني، بل حتّى أنّه قد وُصِف بأنّه كتابٌ تبشيريٌّ للدِّيانة المسيحيّة، على وجه الخصوص.

فهل ثمّة حاجة مسـتجدَّة لإعادة إنتـاج هذا الجَدل الدِّيني الذي يسـتعيد آليات علم الكلام المذهبي الذي سـاد في القرون الوسطى، وتجـدّد مـع نهاياتِ القـرن ١٩ وبدايات القـرن ٢٠ في بلدان الشّرق الأوسـط؛ في إيران وباكسـتان والهنـد ومصر، على سـبيل المثال؟ أم أنّ ثمّـة دوافع علميّة تتعلّـق بتعزيز الاتّجاه البحثي الخاصّ بدراسـة أصـول الأديـان ومنابعها، على نحو عامٍّ، ودراسـة مصادر تشـكيل الإسـلام، بشـكلٍ خـاصٍّ؟ أم أنّ الأمـر لا يعـدو كونـه انخراطـاً

في جدل التّجاذبات الأيديولوجيّة المتبادلة بين التّيارين الدِّيني والعلماني المتصارعين، حاليّاً، في فضاء الرّأي العام العربي، على وجه الخصوص؟

قبل أن تتّضح لنا الإجابة المناسبة لهذه التّساؤلات الغائيّة، لابدّ من وضع هذا الكتاب في سياقه التّاريخي، ومقاربة دوافعه الأيدولوجيّة الدِّينيّة، ومن ثمّ تحديد قيمته العلميّة حصراً.

صدر هذا الكتاب بالعربيّة، في مصر، مترجماً عن الإنجليزيّة، تحت عنوان «تنوير الافهام في مصادر الإسلام»، لمؤلّفه (سنكلير تسدل) لكن، من دون ذكر اسم المترجم، ودار النّشر، وتاريخه؛ لأسبابٍ أمنيّةٍ، كما يبدو، خشية تعرّض مترجمه، ودار النّشر، كذلك، لمضايقاتٍ أو اعتداءاتٍ من المسلمين، لكنّه عُرف لاحقاً. وقد صدرت طبعته الإنجليزيّة في لندن في ١٩٠٠، غير إنّنا لو تتبّعنا أصول هذا الكتاب لوجدنا أنّ طبعته الأولى لم تكن باللّغة الإنجليزيّة بل باللّغة الأرديّة[1]، بعنوان «ينابيع الإسلام»، نشر في ١٨٩٩ في بنجاب لاهور في باكستان، ثمّ طُبع بالفارسيّة، في ١٩٠١، بعنوان «مصادر الإسلام». وهي الطّبعة التي اعتمدت ربّما في التّرجمة إلى الإنجليزيّة،

(١) لغةٌ هنديّةٌ آريّةٌ من فرع اللّغات الهنديّة الإيرانيّة، تنتمي إلى عائلة اللّغات الهنديّة الأوروبيّة. تعدّ اللّغة الرّسميّة في باكستان، وتعدّ واحدةً من ٢٢ لغةً في الهند، وهي لغةٌ رسميّةٌ في خمس ولاياتٍ هنديّةٍ. تطوّرت مفرداتها من اللّغة السّنسكريتيّة والفارسيّة والعربيّة والتّركيّة والبشتونيّة. وفي العصر الحديث، تأثّرت الأرديّة بمفردات اللّغة الإنجليزيّة تأثّراً كبيراً نتيجة الاستعمار البريطاني للهند. (المراجع)

فقد ظهرت الطّبعة الإنجليزيّة الأولى مترجمةً باختصارٍ عن الفارسيّة بقلم السّير وليم مور[1]. فما قصّة هذه الطّبعات المتعدّدة اللّغات لهذا الكتاب، والتي بدأت في الشّرق الأوسط وليس في أوربا، في لندن، تحديداً، في بلد المؤلّف؟!

لا يمكننا أن نعرف هذه القصّة دون أن نعرف شيئاً عن المؤلّف، بالتّأكيد. إنّه وليام سانت كلير تيسدال William St. Clair Tisdall (١٨٥٩-١٩٢٨)، مؤرّخٌ وفقيهٌ لغويٌّ بريطانيٌّ، وكاهنٌ أنجليكاني[2]. شغل منصب سكرتير كنيسة إنجلترا الجمعيّة التّبشيريّة[3] في أصفهان في إيران، نهاية القرن ١٩ وبداية القرن ٢٠. يجيد عدّة لغاتٍ شرق أوسطيّة، كما كتب القواعد النّحويّة للغة

(١) William Muir (١٩٠٥): مستشرقٌ أسكتلنديٌّ. تخصّص بالدّراسات الإسلاميّة حول النّبي محمّد والخلافة المبكّرة. وتولّى إدارة جامعة إدنبرة. (المراجع)

(٢) الأنجليكية أو الأنجليكانية أو الأنغليكانية هي كنائس داخل المسيحيّة، تضمّ كنيسة إنجلترا والكنائس التي ترتبط بها تاريخيّاً، أو تحمل معتقداتٍ ذات صلةٍ وثيقةٍ بها، مثل: كنيسة كندا الأنجليكانيّة، والكنيسة الأسقفيّة البروستانتيّة في أميركا، وكنيسة أسكتلندا الأسقفيّة. والإيمان الأنجليكاني هو واحدٌ من أكبر العقائد البروتستانتيّة. (المراجع)

(٣) كنيسة إنجلترا الأنجليكانيّة هي الكنيسة الرسميّة لإنجلترا، وتُعدّ الكنيسة الوطنيّة والقوميّة للشّعب الإنجليزي. والتي تعتبر نفسها استمراريّةً للكنيسة الكاثوليكيّة التي دخلت البلاد مع القديس أوغسطين خلال البعثة التّبشيريّة الغريغوريّة في القرن السّادس إلى مقاطعة كينت. (المراجع)

الفارسيّة والهندوستانيّة[1] والبنجابيّة[2] والغوجاراتيّة[3]. فضلًا عن إجادته للعربيّة.

يتّضح من خلال سيرته الشّخصيّة، أنّه قسٌّ مسيحيّ منخرطٌ في الأعمال التّبشيريّة خارج بلده الأم إنجلترا، ومن المتوقّع، على الفور، أنّنا سنذهب إلى القول أنّ هذا الكتاب نشأ في هذا الإطار بدوافع تبشيريّة تثقيفيّة. ومن دون شكٍّ، سيتعزّز رأينا أكثر لو أنّنا ألقينا نظرةً على حركة التّبشير المسيحيّ في تلك الحقبة التي شهدت ظهور طبعات هذا الكتاب.

يُرجِّحُ مؤرِّخو حركة التّبشير المسيحيّ الحديث أنّ جذوره الأولى في الشّرق تعود إلى مطلع القرن ١٧، بدورٍ مقتصرٍ على نشر الكتاب المقدّس، وتقديم بعض الخدمات للطّوائف المسيحيّة، ثمّ تطوّر إلى نشر العلم من خلال تأسيس مدارس وكلّيّاتٍ لاحقاً في

(١) أو الهندستانية: تسميةٌ قديمة للّغة الأرديّة، كان يستخدمها الإنجليز خاصّةً. وتُعتبر إحدى اللّغات السّائدة في جنوب آسيا، ويمكن اعتبارها لغةً ثانيةً في النّيبال وبنغلادش والخليج العربي، وعلى هذا النّحو تُعتبر لغةً مُشتركة في شبه القارّة الهنديّة. (المراجع)

(٢) هي لغة البنجابيّين الذين يستوطنون البنجاب في باكستان وشمال غرب الهند. وتعدّ لغةً هندو-أوروبيّةً من العائلة اللّغوية الهندو-إيرانيّة الفرعيّة. تشكّلت من اللّغة السّنسكريتيّة القديمة. (المراجع)

(٣) أو الكجراتيّة: لغةٌ هندو-آريّةٌ، وجزءٌ من العائلة اللّغوية الهندو-أوروبيّة. وهي اللّغة المحلّيّة في الهند في ولاية كجرات. وهي اللّغة الأم للزّعيم الشّهير مهاتما غاندي، الأبّ الرّوحي للشّعب الهندي. (المراجع)

القرن ١٩، حيث تكثّف نشاط هذه الحركة في دول الشّرق الأوسط وأفريقيا، لاسيّما على يد الكنيسة الإنجيليّة، مع تنافس الاتّجاهين التّبشيريّين الكاثوليكي والبروتستانتي، اللذين عبّرا عن الحماس الدّيني المتصاعد في إنكلترا وأمريكا آنذاك، والمصاحب لبروز النّزعة الأوربيّة الاستعماريّة، حتّى قيل أنّ القرن ١٩ هو «القرن العظيم لنشر المسيحيّة في العالم».

انتشر نشاط الكنيسة الأنجليكانيّة في الجزر البريطانيّة عن طريق البعثات التّبشيريّة، والمنظّمات الكنسيّة التي أُسّست لهذا الغرض؛ لنشر المسيحيّة الأنجليكانيّة في المستعمرات الإنجليزيّة. حيث برزت شخصيّاتٌ كنسيّةٌ فاعلةٌ في الحراك التّبشيري، كهنري مارتن Henry Martin، على سبيل المثال، الذي أرسلته الكنيسة عام ١٨٠٥ إلى كلكتا[١]، كقسيسٍ في شركة الهند الشّرقيّة، ثمّ توجّه إلى إيران، وقام بترجمة العهد الجديد إلى الفارسيّة والهندوسيّة، وأعدّ ترجمةً للعربيّة والأرمينيّة، ثمّ أخذ يتجوّل في دول الشّرق الأوسط للوعظ، وتوزيع الكتاب المقدّس، وتأسيس الإرساليّات فيها. والذي تبدو سيرته مشابهةً لسيرة تسدال مؤلّف هذا الكتاب. ومشابهةً ربّما أيضاً لـ«جون جويت» الذي يُؤَشَّر إلى أنّه رائد النّشاط التّنصيري الإنجليزي في مصر، منذ عام ١٨١٩، مُوفَداً من (جمعيّة

(١) يجدر الإشارة إلى أنّ البروتستانت قد اتّخذوا من القاهرة مركزاً لهم للطّباعة والتّوزيع في المنطقة، فيما اتّخذ الكاثوليك من بيروت قاعدةً لهم، وأنشأوا فيها المطبعة الكاثوليكيّة عام ١٨٧١. (المراجع)

إرساليّات الكنيسة الإنجليزيّة)، إبّان التّنافس الاستعماري المحموم بين بريطانيا البروتستانتيّة وفرنسا الكاثوليكيّة.

وإذا كان نشاط القسّ هنري مارتن محصوراً بالوعظ والتّرويج للكتاب المقدّس وترجمته إلى لغة المستعمرات البريطانيّة، فإنّ من يضع نشاط تسدال في الإطار التّبشيري سيعدّه خطوةً أكبر في هذا الاتّجاه، بانتقاله من التّبشير بالدّيانة المسيحيّة إلى النّقد الدِّيني للدِّيانة الإسلاميّة؛ في خلخلة أصولها العقائديّة، وكشف مصادرها المذهبيّة. فهل اقتصر عمله على هذا الكتاب، أم كرّس كثيراً من مؤلَّفاته لهذه الغاية؟

بعيداً عن نتاجه التّاريخي والفقه لغوي الخاصّ باللّغات الشّرقيّة وبلدانها، الذي أشرنا إليه أعلاه، فإنّ مؤلَّفاته الدِّينيّة مكرّسةٌ للتّمجيد المسيحيّ، ولمذهبه الخاصّ الأنجليكاني-البروتستانتي، ولنقد الدِّين الإسلامي، ومن أبرزها:

- دين الهلال: أو الإسلام: قوّته وضعفه وأصوله وتأثيره. (١٨٩٥). ولم يُترجم إلى العربيّة.

- المصادر الأصليّة للقرآن. (١٩٠٥). وقد تُرجم إلى العربيّة في ٢٠١٩، ترجمة عادل جاسم، عن دار الجمل، بيروت.

- ميزان الحقّ. (١٩١٠). بالاشتراك مع المستشرق القسّ

الأميركي كارل غوتليب فاندر[1] (١٨٦٥)، وقد تُرجم إلى العربيّة.

- المسيحيّة والعقائد الأخرى: مقالٌ في مقارنة الأديان. (١٩١٢) ولم يُترجم إلى العربيّة.

- دليلٌ للاعتراضات الإسلاميّة على المسيحيّة. (١٩١٥). ولم يُترجم إلى العربيّة.

وهي، مع كتابه هذا، ذات هدفٍ واحدٍ، كما هو واضحٌ، هو نقد الإسلام. وقد أثار كتابه هذا منذ صدوره؛ سواء بلغة المؤلّف الإنجليزيّة أو اللّغات التي تُرجم إليها، ردود أفعالٍ انتقاديّةٍ له. فقد انتقده عالم الأديان الكندي هربرت بيرج[2] بأنّه ليس كتاباً علميّاً خالصاً، واصفاً تيسدال بأنّه «جدليٌّ وغير متّسقٍ» في كتاباته. وقد

(١) مُبشّرٌ مسيحيّ ضمن بعثة بازل التّبشيريّة في آسيا الوسطى، والقوقاز، وشمال الهند. قام بتأليف كتبٍ أشهرها «ميزان الحقّ»، بالاشتراك مع تسدال، و«ملاحظات عن الطّبيعة المحمديّة». وقد تُرجم كتابه «ميزان الحقّ» من الفارسيّة إلى الأورديّة، وزاد عليه ترجمة كتاب «طريق الحياة»، و«مفتاح الأسرار»؛ فأثار زوبعةً من المجادلات الشّديدة والمناظرات مع علماء الإسلام في الهند. أمّا عن كتابه هذا فهو من تأليفه بالأساس، ثمّ نقّحه تسدال وأضاف إليه، في طبعته الثّانية تحديداً، في العام ١٩٢٣، في مطبعة النّيل المسيحيّة. (المراجع)

(٢) نال الدّكتوراه في علم الأديان من جامعة تورنتو في كندا، في أواخر الثّمانينيّات، وهو أستاذٌ في قسم الدّراسات الدّوليّة وقسم الفلسفة والدّين، في جامعة نورث كارولينا. (المراجع)

اتّفق معه القسُّ البريطاني كليتتون بينيت[1] بأنّه «كاتبٌ تصادميّ، يُديم الجدل المسيحيّ التّقليديّ المعادي للمسلمين».

أمّا بالنّسبة لترجمتيه الأرديّة والفارسيّة، أو بالأحرى طبعتيهما المبكّرتين قبل الإنجليزيّة، فقد قوبلتا بردود أفعالٍ انتقاديّةٍ أيضاً، دفعت بعض رجال الدّين إلى الكتابة ضدّه، فبعد سنتين من نشره بالأرديّة، ردّ عليه ميرزا غلام أحمد قادياني[2] بكتابٍ مضادٍّ عنوانه «ينبوع المسيحيّة»، وأصله باللّغة الأرديّة «شاشما مسيحي»، في ١٩٠٦، ثمّ تُرجم إلى الإنجليزيّة في باكستان في ١٩٧٠. وبعد نشره بالفارسيّة ردّ عليه أحمد شاهرودي[3]، في طهران ١٩٢٤، بكتابٍ بعنوان «إزالة الأوهام في جواب ينابيع الإسلام». وتصدّى له حسين التّبريزي التّنچي[4] (١٩٤١) بكتابين هما: «إزالة الوساوس والأوهام»، و«هداية الأنام إلى مُحكمات قوانين الإسلام».

---

(١) كليتتون بينيت (ولد ١٩٥٥): باحثٌ بريطاني في مجال الأديان، ومشاركٌ في حوار الأديان، متخصّصٌ في دراسة الإسلام واللّقاء بين المسلمين وغير المسلمين. (المراجع)

(٢) القادياني (١٩٠٨): مؤسّس الجماعة الأحمدية بقاديان في الهند. ويعتبر عند أتباعه هو المهدي المُنتظَر والمسيح الموعود. وغالبيّة المسلمين يسمّونه مسيلمة البنجاب أو الهند. (المراجع)

(٣) الشّاهرودي (١٩٢١): عالمٌ إمامي، نسبته إلى شاهرود. توفي بطهران، ودفن بقم. من آثاره: «مدينة الإسلام»، و«التّفسير»، ردّ فيه على بعض ما جاء في تفسير الشّيخ طنطاوي، ولم يتمّه. (المراجع)

(٤) التّنچي (١٩٤١): فقيهٌ ومتكلّمٌ إمامي. توفي في تبريز بإيران. (المراجع)

أمّا ترجمته إلى العربيّة، في مصر تحديداً، فقد تفاوتت ردود الأفعال تجاهها بين متقبِّلٍ وناقدٍ ومتحفِّظٍ، ولا سيّما على مستوى الصّحافة، إذ رحّبت به جريدة «المقطّم» العلمانيّة[1]، وتحفّظت عليه صحفٌ أخرى، وانتقدته أخرياتٌ؛ فقد كتب محمّد رشيد رضا (١٩٣٥)[2]، في مجلّة المنار[3] الإسلاميّة الإصلاحيّة النّشأة/ الإخوانيّة الاستمرار، مقالاً حادّ النّبرة ضدّ الكتاب ومؤلّفه، واتّهمه بأنّه كتابٌ تبشيريٌّ من منشورات «الجمعيّة الإنجليزيّة» بمصر المكلَّفة بالدّعوة إلى النّصرانيّة. في حين عاتب إبراهيم المويلحي (١٩٠٦)[4]، في «مصباح

(١) جريدةٌ يوميّةٌ سياسيّةٌ، صدرت في الفترة ١٨٨٨-١٩٥٢. أنشأها ٣ من مسيحيي لبنان: يعقوب صروف، وفارس نمر، وشاهين مكاريوس، في القاهرة. واتُّهمت بأنّها جريدة الاحتلال البريطاني. (المراجع)

(٢) لبنانيّ الأصل، توفي بمصر. يعدّ مفكّراً إسلاميّاً من روّاد الإصلاح الإسلامي. وهو أحد تلاميذ الشّيخ محمّد عبده. وكان صحفيّاً وكاتباً وأديباً. أسّس مجلّة المنار، على نمط مجلّة «العروة الوثقى» التي أسّسها محمّد عبده. ويُعدّ قطب الأخوان حسن البنّا أكثر من تأثّر برشيد رضا. (المراجع)

(٣) مجلّةٌ إسلاميّةٌ، صدر عددها الأوّل في (١٨٩٨)، حملت خطاب الإصلاح الدّيني لصاحبها رضا، ثمّ الخطاب الإخواني في ١٩٣٩ حين تولّى حسن البنّا رئاسة تحريرها. ومقال رضا منشورٌ في المجلّد ٧/ الجزء ٣/ ص ١٠١/ ١٧ نيسان ١٩٠٤م. (المراجع)

(٤) كاتبٌ مصريّ. أصله من المويلح في فلسطين. رافق محمّد عبده وجمال الدّين الأفغاني. كان عضواً في مجلس الاستئناف، ثمّ استقال وأنشأ مطبعةً، وعمل في الصّحافة كاتباً وناقداً. دعاه الخديوي إسماعيل إلى إيطاليا فأقام معه بضع سنواتٍ، وأصدر في أوروبا جريدة الاتّحاد، وجريدة الأنباء. (المراجع)

الشّرق»[1]، مؤلّف الكتاب بأنّه أساء للمصريّين الذين احتضنوه في بلادهم من خلال الإساءة إلى دينهم، عادّاً كتابه من قبيل «عبث الأطفال» الذي لا يستحقّ أن يغضب منه المصريّون.

ويتّضح، لنا من ذلك، أنّ هذا الكتاب قد أثار جدلاً دينيّاً في الأوساط الإسلاميّة؛ العربيّة منها وغير العربيّة، ومازال حتّى وقتنا هذا، وإن اختلف نمط التّفاعل معه، فلم يعد أحدٌ يكرّس كتاباً خاصّاً للرّدّ عليه. مع إنّه ليس الكتاب الوحيد الذي وُضِع في إطار المؤلّفات التّبشيريّة التي صدرت في العالم الإسلامي، وأثارت جدلاً كلاميّاً أيضاً، أمثال: «ميزان الحقّ»، و«الهداية»[2]، و«الباكورة الشّهيّة في الرّوايات الدّينيّة»[3]، و«أصول الإيمان»، و«دعوة الحقّ»، و«منار الحقّ»[4]، و«الصّليب في الإنجيل والقرآن»، «الإنجيل في القرآن»،

(١) مجلّةٌ مصريّةٌ أدبيّةٌ أصدرها إبراهيم المويلحي. ساهمت في تطوير الأدب المصري والنّهضة المصريّة الحديثة. (المراجع)

(٢) من إصدارات جمعيّة الإرساليّة الأمريكيّة بالقاهرة. ويقع في ٤ أجزاء، في الرّدّ على الذين طعنوا في النّصرانيّة. وقد ردّ عليه عددٌ من رجال الدّين المسلمين بكتابٍ بعنوان «تهافت الهدايّة». (المراجع)

(٣) وهو مناظراتٌ بين مشايخ مسلمين ومسيحيّين، في دمشق، في العام ١٨٦١، وصدر في ١٩٠١. لإثبات أنّ الدّيانة المسيحيّة هي ديانة الله الوحيدة الحقّة. (المراجع)

(٤) طُبع ١٨ طبعةً. وهو، باختصارٍ، عبارةٌ عن جمع أدلّةٍ قرآنيّةٍ لإثبات صحّة الدّيانة المسيحيّة. (المراجع)

و«القرآن في الإنجيل»[1]، «المسيحيّة في الإسلام»[2]، و«التّثليث في القرآن»[3].

لكن هذه الكتب الآنفة لم تحظ بالشّهرة التي حظي بها كتاب تسدال. فلماذا؟ حتّى في العالم الغربي، أعيد طبعه عدّة مرّاتٍ أكثر من كتابه الأكثر تفصيلاً وتوثيقاً منه: «المصادر الأصليّة للقرآن»؟ من بين المسوّغات التي يمكن تأشيرها لهذه الأسباب أنّه يندرج في إطار الاتّجاه البحثيّ المتعلّق بالبحث عن أصول الإسلام؛ وإثبات يهوديّة ومسيحيّة مصادره، حيث يحتوي على معظم الموادّ المهمّة التي تناولت هذا الجانب من الدّراسة، على الرّغم من كونه ذا هدفٍ تبشيريٍّ. ومن الجدير بالذّكر هنا، أنّه قد صدر مؤخّراً كتابٌ جمع دراساتٍ كلاسيكيّةً لهذا الاتّجاه، نشره ابن الورّاق[4] بالإنجليزيّة بعنوان «أصول القرآن: مقالاتٌ كلاسيكيّةٌ للكتاب المقدّس للإسلام» (١٩٩٨)، كان تسدال واحداً من ثلاثة عشر مؤلّفاً تمّ تجميع دراساتهم. وهو اتّجاهٌ بحثيٌّ برز منذ النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر، على يد عددٍ من المستشرقين، أمثال: الألماني أبراهام

(١) الكتب الثّلاثة الأخيرة للقسّ البروتستانتي إسكندر جديد (١٩٨٧). وله كتابٌ آخر بعنوان «عصمة التّوراة والإنجيل». (المراجع)

(٢) للقمص إبراهيم لوقا. (المراجع)

(٣) أو الثّالوث في القرآن، لإسكندر جديد أيضاً. (المراجع)

(٤) ابن الورّاق (ولد ١٩٤٦): هو اسمٌ حركيٌّ لباحثٍ باكستاني الأصل، ومؤسّس المعهد العلماني للمجتمع المسلم. ركّز في دراساته على النّقد القرآني. (المراجع)

غايغـر (١٨٧٤)[١]، والألمـاني ثيـودور نولدكـه (١٩٣٠)، والألماني هاينريـش شـباير (١٩٣٥)[٢]، والإيطـالي ليوني كايتـاني (١٩٣٥)، والأب البلجيكي هنري لامانس (١٩٣٧)، والألماني فلهلم رودلف (١٩٨٧)[٣]، والفرنـسي ألفريـد لويـس دي بريـمار (٢٠٠٦)[٤]، وغيرهـم. مـع أهمية الإشـارة إلى أنّ هـذا الاتّجاه البحثي بـدأ يَكتبُ بـه مؤخّـراً باحثون عـرب، أمثال: فراس السّـواح[٥]، نبيـل فيّاض، يوسف عودة[٦]، محمّد كريم الكواز[٧].

ويبـدو أن صغـر حجم الكتـاب وتركيزه على نـماذج المقارنة بين

(١) تُرجم له مؤخّراً «اليهوديّة والإسـلام»، ترجمة نبيل فيّاض، دار الرّافدين، بغداد، ٢٠١٧.

(٢) تُرجـم لـه مؤخّـراً «قصص أهـل الكتـاب في القرآن»، ترجمـة نبيل فيّـاض، دار الرّافدين، بغداد، ٢٠١٨.

(٣) تُرجم له كتاب «صلة القرآن باليهوديّة والمسـيحيّة»، ترجمة عصام الدّين حفني، دار الطّليعة، بيروت، ١٩٧٤.

(٤) تُرجـم لـه مؤخّراً كتاب «في أصول القرآن»، ترجمـة ناصر بن رجب، دار الجَمل، بيروت، ٢٠١٩.

(٥) كما في كتابه «القصص القرآني ومتوازياته التّوراتيّة»، دار التكوين، سـوريا، ط٢، ٢٠١٦.

(٦) كما في كتابه «الشّـخصيّات البيبليّة في القرآن والإسـلام»، دار غوسـطا، بيروت، ٢٠١٢.

(٧) كـما في كتابيـه «قصص الأنبياء للثّعلبي: تحقيقٌ وتأصيلٌ للأسـاطير الإسـلاميّة-الإسرائيليّة»، المركز الأكاديمي للأبحاث، بغداد، ٢٠١٩؛ «قصص الأنبياء للكسائي: تحقيقٌ ودراسةٌ في أصول الأساطير الإسلاميّة»، دار الجَمل، بيروت، ٢٠١٩.

النّصوص الإسلاميّة واليهوديّة والمسيحيّة، كان من بين الأسباب الأخرى التي منحته مسوِّغاً إضافيّاً للاهتمام، ولما تُتيحه من سرعة القراءة، على الرّغم من افتقار طبعته الإنجليزيّة الأولى للتّوثيق الدّقيق، مع احتوائه على بعض الأخطاء الطّفيفة التي تمّ تصحيحها في الإصدارات اللاحقة، بحسب كلام محرِّريها. وهو ما جعل منها، على ما يبدو، أقرب للطّبعة الشّعبيّة منها للعلميّة الدّقيقة. وحتّى بالنّسبة للطّبعة العربيّة الشّائعة، حالياً، في مواقع الأنترنت فهي أقرب ما تكون طبعةً تجاريّةً غير معتنى بها، وتنطوي على مشاكل طباعيّة. ومن اللّافت هنا، الإشارة إلى تفاوت الآراء بشأن النّسخة العربيّة بين طبعتها الأولى والمتداولة حاليّاً، فقد وُصِف الكتاب بأنّه «كُتبَ بأسلوبٍ بالغ التّهذيب، لا تستطيع أن تُمسك فيه لفظاً نابياً ولا جارحاً»، وبلغةٍ عربيّةٍ رصينةٍ، تشفُّ عن خبرةٍ بالثّقافة القرآنيّة، وعمق اطلاعٍ على التّراث العربي والإسلامي. في حين أنّ المطّلع على النّسخة المتداولة يرى فيها ألفاظاً اتّهاميّة وتبخيسيّة لكتب الأديان الأخرى، حتّى من بينها اليهوديّة والطّوائف المسيحيّة الأخرى. وكأنّ ثمّة نسخةً أخرى، أو أنّ هذا النّصّ قد تعرّض للتّشويه. فأين يكمن الخلل؟

لابدّ هنا من الوقوف عند التّرجمة، لنتساءل هل كان مترجم الكتاب ذا إمكانيّة لغويّة تعبيريّة بسيطة، سواء في الإنجليزيّة أو العربيّة، أم كان متمكّناً فيهما؟ بدءاً، لابدّ، أيضاً، من التّذكير بأنّ التّرجمة إلى العربيّة صدرت غِفلاً من ذكر المترجم، وحتّى دار النّشر

وتاريخ النّشر. لكنّ مترجم الكتاب عُرف لاحقاً. إنّه ميخائيل عبد السَّيِّد (١٨٦٠-١٩١٤)، صحفي مصري، قبطي. تلقّى تعليمه المبكّر في مدارس أميركيّة وقبطيّة في القاهرة. والتحق بمدرسة دار العلوم، فضلاً عن دراسته في الأزهر، لمدّةٍ بسيطةٍ، ثمّ عمل بتدريس اللّغة العربيّة بعد ذلك في ذات المدارس التي تعلّم فيها. وانخرط في العمل الصّحفي فاشتغل في مجلّة «روضة المدارس المصريّة» التي أسّسها رائد التّنوير المصري الحديث رفاعة رافع الطّهطاوي (١٨٧٣). ولاحقاً أنشأ جريدة (الوطن) ١٨٧٧، ورأس تحريرها لـ ٢٠ عاماً. حتّى عُدّ أوّل قبطيٍّ يعمل في الصّحافة. ثمّ ألّف جمعيّةً لطبع الكتب العربيّة النّادرة. وبعدها مارس التّأليف والتّرجمة، ومن أبرز مؤلّفاته:

- سلوان الشّجي في الرّدّ على إبراهيم اليازجي. طُبع في مطبعة الجوائب في ١٨٢٧. انتصر به للشّدياق صاحب الجوائب.

- الرّياض الزّهريّة في الأعمال الجبريّة. طبعته له مطبعة الحسينيّة في ١٨٧٤. وهو كتابٌ مدرسيٌّ تعليميٌّ.

- بسماتيك الأوّل: روايةٌ تاريخيّةٌ أدبيّةٌ تتحدّث عن أحد ملوك مصر القديمة.

- روضة الكتاب في علم الحساب. بالاشتراك مع آخرين.

أما ترجماته عن الإنجليزيّة من غير هذا الكتاب، فأبرزها:

- رسالةٌ في علم الفلك.
- بثُّ المعارف ونثُّ العوارف.

فيتّضح لنا، على نحو عامٍّ، أنّ المترجم ذو خبرةٍ بالعربيّة؛ تأليفاً وترجمةً؛ نظراً لما اكتسبه من تعليمٍ عربي وإنجليزي مبكّر، وممارسةٍ يوميّةٍ في الكتابة الصّحفيّة والتّأليف العلمي، ممّا يُتوقّع أن يكون له أثرٌ في هذا الكتاب. وهو ما نتلمّسه في الأسلوب الذي ظهرت فيه التّرجمة. وهو أسلوبٌ يندرج ضمن ما شاع من أساليب تعبيريّةٍ في نهايات القرن التّاسع عشر ومطلع القرن العشرين؛ من فخامة التّعبير المتوارث من أنماط الكتابة العربيّة في نثر القرون الوسطى، وما يزيّنها من السّجع الذي نتلمّسه من عنوان الكتاب «تنوير الافهام في مصادر الإسلام»؛ ذلك أن الكتاب بطبعاته الثّلاث الأولى: الأرديّة والفارسيّة والإنجليزيّة، هو «مصادر الإسلام»، أو «منابع الإسلام». ومـا نجده، أيضـاً، في مقدِّمـة الكتاب المكتوبـة بديباجـةٍ عربيّةٍ تبدأ ببسملةٍ وبأسلوب الحمد الذي درجت عليه مقدّمات الكتب العربيّة القديمة والخطب والرّسائل كذلك، حتّى ليُظنُّ بأنّ المؤلِّف عربيٌّ إسلاميٌّ وليس أجنبيّاً، في حين أنّ ديباجة هذه المقدِّمة غير موجودةٍ في النّسخة الإنجليزيّة التي تبدأ من ما بعد الدِّيباجة. وقد غطّت سمات هذا الأسلوب على ترجمة الكتاب برمّته، وانعكست كذلك على عناوين فصول الكتاب التي صيغت في إطار النّبرة الجَدليّة أو الإقناعيّة والحجاجيّة التي حركّت لغة المترجم وجعلته أقرب إلى أن

يكون مؤلِّفاً أكثر من كونه مترجماً، ليُسهم في إخراج الكتاب بما يراه مناسباً لمتلقِّيه وللهدف الأيديولوجي الذي تُرجم لأجله. ذلك أنّ الاطّلاع على عناوين فصول الطّبعة الإنجليزيّة يراها أكثر اختصاراً من الإطالة الشّرحيّة أو الحجاجيّة التي اتّسمت بها عناوين الطّبعة العربيّة. وقد ترجمنا عناوين الفصول كما وردت في الطّبعة الإنجليزيّة لغرض التّوضيح والمقارنة، ووضعناها بعد فهرست الطبعة العربية.

ومع ختام هذه المقدِّمة يتّضح لنا، ممّا تقدّم، السّياق التّاريخي لظروف إنتاج هذا الكتاب الكلاسيكيّ في اتّجاهه التّأليفي، ومعرفة دوافعه الأيدولوجيّة الدِّينيّة ذات الطّابع التّبشيريّ. وهنا لابدّ من الوقوف عند نقطةٍ هامّةٍ هي أنّ معرفة هذه الدّوافع وكشفها أو إبرازها هو ليس لتبنِّي موقفها بل لنزع سمتها الأيدلوجيّة؛ من خلال كشف غاياتها مسبقاً، وتحييدها تحييداً علميّاً وليس مذهبيّاً. والتّحييد العلمي يأتي من خلال كشف الدّوافع الأيديولوجيّة من جهةٍ، وتحديد القيمة العلميّة للكتاب، من جهةٍ أخرى، وهي الأهم، لاسيّما أنّ هذا الكتاب قد ضمّ في مقارناته مع النّصوص الإسلاميّة المقدّسة؛ القرآنيّة أو النّبويّة أو سواها من النّصوص الدِّينيّة، نصوصاً ليست من الدِّيانات المسيحيّة واليهوديّة فقط بل من الزّرادشتيّة والبوذيّة والقبطيّة؛ ومن لغاتٍ متعدّدةٍ قديمةٍ؛ كالفارسيّة والهنديّة والعبريّة والآراميّة والإغريقيّة، أيضاً، لم توجد بعضها في كتاباتٍ سابقةٍ أو لاحقةٍ له، بل إنّ بعض اللّاحقة اعتمدت عليه، وهو ما

يجعله مصدراً كلاسيكيّاً لا غنى عنه في الرّجوع إلى هذه النّصوص أو في العودة إلى آرائه التّفسيريّة المقارنة لها، وهو مكمن أهمّيّته العلميّة، على وجه الخصوص، وإن كانت دراسته مختصرةً ومركّزةً، وقد كُتبت بعدها دراساتٌ أكثر تفصيلاً، بل انّ الكاتب نفسه قد وسّعها وفصّل فيها، لاحقاً، في كتابه «المصادر الأصليّة للقرآن» الذي يُعدّ امتداداً لكتابه هذا. أمّا نبرته السّجاليّة والحجاجيّة فهي، وإن شابت لغة الكتاب وأضفت عليه صبغةً لا علميّةً، لكنّ تأثيرها محدودٌ على طبيعة الكتاب التي تستند إلى المقارنة مع النّصوص الدّينيّة السّابقة للإسلام، والمتعلّقة بالاتّجاه البحثي الخاصّ بجينالوجيا[1] نشأة الأديان وتكوّنها، وجذور ولادتها، ومصادرها، وما يتّصل بحيثيّاتها التّناصيّة[2] معها. وهو مبحثٌ متشعّبٌ في دراسات أنثربولوجيا الأديان[3]، أو في حقل علم الأديان المقارن، لا يتّسع

(١) Genealogy: أصل الكلمة لاتينيّ-إغريقيّ، تعني الأصل أو المنبت، واستعملت في دراسة الأنساب لتحرّي سلسلة الأسلاف الذين تربطهم القرابة والنّسب، والذين ينحدرون من أصلٍ مشتركٍ واحدٍ. وقد تطوّر المصطلح خلال القرن ١٧م، بحيث أصبح يمثّل فرعاً من فروع التّاريخ، ثمّ استعمل في الدّراسات العلميّة الخاصّة بدراسة السّلالات، ثمّ وظّف فلسفيّاً ليُعنى بتتبّع الفكرة من حيث نشأتها وتطوّرها. (المراجع)

(٢) Intertextuality: مصطلحٌ صاغته النّاقدة الفرنسيّة جوليا كريستيفا (ولدت ١٩٤١)، للإشارة إلى العلاقات المتبادلة بين نصٍّ معيّنٍ ونصوصٍ أخرى؛ بالانطلاق من فكرة أنّه لا وجود مستقلاًّ للنّصّ، لكونه يُنتج في مجالٍ ثقافيٍّ، ولابدّ أن تكون له علاقةٌ مع نصوصٍ سابقةٍ، فيُصار إلى تحرّيها وكشف نوع الصّلة معها. (المراجع)

(٣) Anthropology of religion: هي دراسة الدّين في إطار صلته مع المؤسّسات

مقام المقدّمة لتناوله، ولكن تكفي الإشارة إلى أنّ هذا الكتاب يندرج في هذا الاتّجاه، على الرّغم ممّا حفّ به من إشكاليّات تتعلّق بخطابه السّجالي والحجاجي ذي الطّابع التّبشيري، وهو ما يسوّغ إعادة طبعه؛ لأغراضٍ علميّةٍ تتعلّق باتّجاهه البحثي وليس المذهبي.

الاجتماعيّة الأخرى، ومقارنة المعتقدات والممارسات الدّينيّة عبر الحضارات.

(المراجع)

مقدّمة

بسم الله الهادي

الحمدُ لله الذي ميّز الإنسان بالنّطق والبيان، وخصّه بأشرف المواهب وأسماها، وأجلّ النِّعم وأسناها، (أي) العقل الذي يُتَوصَّلُ به إلى معرفة الرّحمن الرّحيم، وبه يُهتدى إلى المنهج القويم. فيتمتع في الآخرة بفردوس النّعيم، ويحظى بالسّعادة الجليلة، والنِّعم الجزيلة. قال الله تعالى: (أعددت لعبادي الصّالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشرٍ)[1]. فاللّهم اجعلنا من عبادك المصطفين، ومن أصفيائك المختارين، وهبنا من لدنك عقولاً سليمةً وأفكاراً مستقيمةً توصلنا إلى الحقّ والحياة؛ لنفوز بنعيم الخلد والنّجاة، فقد مددنا إليك يد الاستعانة، وبخعنا[2] إليك بالاستكانة والمسكنة، وأنت نِعم المولى ونِعمَ المعين.

(أمّا بعدُ)، فلن يخفى على ذوي الألباب المشهورين بالتّحقيق، وذوي الفِطَنِ المعوّل عليهم بالتّدقيق، بأنّه كما أنّ جمال الأجسام السّماويّة العجيب ونظام الكائنات الأرضيّة الغريب، وترتيب الموجودات على ما نراه من الاتقان والأحكام لم يأت من العدم إلى الوجود بدون سببٍ وعلّةٍ بل بالعكس قد أوجدته يد المولى؛ سبَّبَ

(١) صحيح البخاري، ج٤، ١١٨. (المراجع)

(٢) بَخَعَ بالطّاعة: أي أذعن، وانقاد، وسلس. ينظر: العين، بخع. (المراجع)

الأسبابَ ووجبَ الوجودَ المولى القدير سبحانه وتعالى. فعلى هذه الطّريقة نقول أنّ كلّ شيءٍ سواء كان فعلاً أو قولاً أو فكراً لابدّ أن يكون له سببٌ خصوصي لا يمكن أن يحصل بدونه؛ فإنّه لابدّ للأثر من مؤثّرٍ، وللمعلول من علّةٍ، والمسبَّبِ من سببٍ، وبما أنّه توجد في هذه الدّنيا مذاهبُ شتّى وأديانٌ متنوّعةٌ مختلفةٌ فمن البيّن الواضح أنّه لابدّ أن يكون لكل دينٍ من هذه الأديان سواء كان حقيقيّاً أو كذباً مصدرٌ صدر منه، وانبعث عنه كالمجرى الذي يصدر من الينبوع.

وبما أنّ الدّيانة الإسلاميّة قد انتشرت في هذه الأيّام في بلادٍ كثيرةٍ، وأخذت بمجامع أفئدة وعقول مِللٍ عديدةٍ وأممٍ شتّى، وبما أنّ كثيرين من النّوع الإنساني اعتقدوا بهذا الدّين وجعلوه أساس رجائهم، ومنتهى مُنيتِهم وغايتهم، رأيت أن أضع هذه الصُّحيفات الآتيةِ مستعيناً بحوله تعالى للبحث بالدّقّة في مصدر هذه الدّيانة؛ لأنّ اليهود والمسيحيّين لم يقبلوها بل قالوا أخذنا في البحث والتّدقيق علّنا نجد بيّناتٍ إلهيّةً وأدلّةً قويّةً تؤيّد صدق هذه الدّيانة فلم نجد دليلاً، ولم نهتد إلى ذلك سبيلاً.

وزِد على ذلك أنّ كثيرين من الذين كانوا متمسّكين بهذا الدّين بطريق التّقليد عن آبائهم وأجدادهم بدون بحثٍ ولا تحقيقٍ رفضوه الآن سرّاً وجهراً وتمسّكوا بمذاهب أخرى؛ لأنّهم لم يجدوا من يستطيع أن يبرهن لهم صدق الدّيانة الإسلاميّة بكيفيّةٍ معقولةٍ ومقبولةٍ، أو أن يقنعهم بأنّها الدّين الحقّ الوحيد. ولا نشكّ أنّ

بعضهم ألّف كُتباً مثل «ميزان الموازين»[1]، و«حسام الشّيعة»[2]، وما شاكلهما في هذا العصر، وفي الأعصر السّالفة، ولكنّها لم ترو غليل العاقل النّبيه؛ لأنّ أدلّتها لا تزيل الشّبهات ولا تدرأ المشاكل من فؤاد الباحث عن الحقّ، الذي يودّ الاهتداء إلى سواء السّبيل؛ لأنّ مؤلّفي تلك الكتب، المذكورة آنفاً، أظهروا غيرةً عظيمةً في تأييد ديانتهم، وبذلوا الجّهد الجّهيد عليهم، يدحضون اعتراضات مَن قوّموا سهام الطّعن في أدلّتها، ولكن من سوء الحظّ، أنّ معلوماتهم لم تكن قدر غيرتهم المحمودة؛ فلهذا رأيت مناسباً، كما قلت سابقاً، أن أعود ثانيةً إلى البحث والتّحقيق بإمعان النّظر والفكر في أركان الدّيانة الإسلاميّة وأساساتها ومصادرها، واستعنت بالله عزّ وجلّ على هذا العمل المفيد.

هذا ومع اعترافي بالعجز والتّقصير قد بذلت الجّهد المستطاع في البحث والتّحقيق، وأتيت بنتيجة تحقيقاتي في هذا الكتاب ليتأمّل فيها المطالع. والمأمولُ من كرم المولى ذي الجّلال والإكرام أن يستفيد منه كلّ من طالعه بالانتباه والالتفات والتّروي والتّحري؛ فيتأكّد

(١) كتابٌ ألّف باللّغة الفارسيّة، بعنوان «ميزان الموازين في أمر الدّين»، ردّاً على النّصارى. تأليف نجف علي بن حسن علي التّبريزي. فرغ منه سنة ١٢٨٧ه، وكان قد كتبه في القسطنطينيّة. ينظر: كشف الظّنون عن أسامي الكتب والفنون، ج١، ٥١٠. (المراجع)

(٢) وهو في إثبات إمامة الإمام علي، لأبي القاسم بن محمّدٍ علي الحسيني السّدهي الأصفهاني. المتوفّ بمكّة، بعد الحج في العام ١٣٣٩ ه. ينظر: الذّريعة إلى تصانيف الشّيعة، الطّهراني، مج ٧، ١٢. (المراجع)

من معرفة مصادر الإسـلام وأصل هذا النّهـر العظيم الذي فاضت مياهه في كثيرٍ من الآفاق، وروت ميادين مذاهب البلاد الواسـعة في أنحاء الدّنيا الشّاسعة.

الفصل الأوّل

فيما قاله المجتهدون الأعلام، وعلماء الإسلام العظام، في حلّ هذا المعنى العظيم الأهمّيّة

لا يخفى أنّ علماء الإسلام قد ذهبوا إلى أنّ المولى عزّ وجل أنزل دينهم أجمعه على محمّدٍ، فجعلوا بنيان الدّيانة الإسلاميّةِ وأساسها على حقيقة رسالته، ومن أنكر نبوّته ورسالته عدّوه كافراً؛ لأنّهم يرونّ أن إنكار ذلك بمنزلة وضع الفأس عند أصل شجرة ديانتهم؛ يعني بمنزلة استئصالها وملاشاتها[1]. وزد على هذا أنهّم قرّروا أنّ أربعة أركان الدّين الصّحيح هي: (أوّلاً) القرآن المجيد، و(ثانياً) الحديث، و(ثالثاً) الاجماع، و(رابعاً) القياس. أمّا من جهة الرّكن الثّالث والرّابع فلا لزوم إلى الكلام عليهما؛ لأنّه يتّضح جلياً أنّه لا يناسب أن يكونا مناقضين ومنافيين للقرآن والأحاديث، فأساس الدّيانة الإسلاميّة، في الحقيقة، هو القرآن والحديث.

ومن سوء الحظِّ لم يتّفق المسلمون على الأحاديث الصّحيحة؛ فالأحاديث التي يعتبرها أهل السُّنّةِ صحيحةً تُباين الأحاديث التي يتمسّك بها الشّيعةُ والوهابيّون. ومن المعلوم أنّ الأحاديث المعتبرة عند الشّيعة هي الواردة في هذه الكتب الخمسة وهي:

(١) «الكافي» لأبي جعفرٍ محمّد الذي كان في سنة ٣٢٩ ه[2].

---

(١) الملاشاة: إبادة، إتلاف، تخريب، إبطال، إزالة. ينظر: تكملة المعاجم العربيّة، لشى. (المراجع)

(٢) اشتهر باسم «الكافي»، وعنوانه الرّئيس «الكافي في الأصول والفروع». تأليف محمّد بن يعقوب الكليني (٣٢٩ هـ/ ٩٤١ م). من أبرز كتب الحديث عند الشّيعة. ويعدّ أكثر الكتب الأربعة اعتباراً. يشتمل الكتاب على ثلاثة أقسامٍ: أصول الكافي، وفروع الكافي، وروضة الكافي. (المراجع)

(٢) «من لا يحضره الفقيه» للشّيخ علي في سنة ٣٨١ ه[1].

(٣) «الاستبصار» للمؤلّف ذاته[2].

(٤) «نهج البلاغة» للسّيد الرّضي سنة ٤٠٦ ه[3].

غير أنّ أهل السُّنّة لم يعوّلوا ولم يعتمدوا على هذه الكتب بل اعتمدوا على ستّة كتبٍ أخرى:

(١) «الموطّأ»، لمالك بن أنس[4].

(٢) «صحيح البخاري»[5].

---

(١) موسوعةٌ ضخمةٌ من الأحاديث، وهو أحّد الكتب الأربعة للشّيعة، وأشهر كتب الشّيخ الصّدّوق، حيث يتناول فيه موضوعاتٍ فقهيّةً مختلفةً للشّيعة. وقد ورد خطأً في نص التّرجمة (لا يستحضره). (المراجع)

(٢) عنوانه الكامل «الاستبصار فيما اختُلف من الأخبار»، وهو من تأليف الطّوسي (٤٦٠ ه)، وليس للصّدّوق، كما التبس على المؤلّف، على ما يبدو. هو كتابٌ جامعٌ للأحاديث، وأحّد الكتب الأربعة الشّيعيّة الشّهيرة. (المراجع)

(٣) مجمُوعةٌ شهيرةٌ من خطبٍ، رسائل، تفاسير، ورواياتٍ، منسوبةٍ إلى الإمام عَليٍّ. جمعها الشّريف الرّضي. اشتمل الكتاب على عددٍ كبيرٍ من الخطبِ والمواعظَ والعهودِ والرسائلَ والحكم والوصايا والآداب، متوزّعةً على ٢٣٨ خطبة، و٧٩ رسالة و٤٨٩ قولاً. (المراجع)

(٤) يُعدّ كتاب الموطّأ من أوائل كتب الحديث، وأشهرها في ترتيبه وتركيبه. للفقيه والمحدِّث الشّهير، وثاني الأئمة الأربعة عند أهل السّنّة والجماعة، وصاحب المذهب المالكي في الفقه الإسلامي، مالك بن أنس الحميري المدني (١٧٩ه/ ٧٩٥م). (المراجع)

(٥) عنوانه الكامل: «الجامع المسند الصّحيح المختصر من أُمور رسول الله (ص) وسننه وأيّامه». من أبرز كتب الحديث النّبويّ عند أهل السّنّة والجماعة. صنّفه البخاري (٢٥٦ه). واستغرق في تحريره ١٦ عاماً، وانتقى أحاديثه من ٦٠٠ ألف

(٣) «صحيح مسلم»[١].

(٤) «سنن أبي داود سليمان»[٢].

(٥) «الجامع»، للتّرمذي[٣].

(٦) «كتاب السُّنن»، لمحمّدٍ بن يزيدٍ بن ماجة القزويني[٤].

ولكن أجمع علماء الإسلام على أنّ القرآن هو الوحي المتلو، والأحاديثَ هي الوحي غير المتلو. ومن القواعد المقرّرة أنّه إذا خالف الحديثُ آيةً من آيات القرآن وجب رفضه، وعدم التّعويل عليه؛ لأنّهم يعتبرون القرآن كلام الله. غير أنّ فائدة الأحاديث هي

حديث جمعها. (المراجع)

(١) أحّد أهمّ كتب الحديث النّبويّ عند أهل السّنّة والجماعة، ويعتبرونه ثالث أصحّ الكتب على الإطلاق بعد القرآن الكريم ثمّ صحيح البخاري. يحتوي على جميع أبواب الحديث من: عقائد، وأحكام، وآداب، وتفسير، وتاريخ، ومناقب، ورقاق، وغيرها. جمعه أبو الحسين مسلم بن الحجّاج القشيري النّيسابوري (٢٦١ﻫ). (المراجع)

(٢) سنن أبي داود المعروف بالسّنن، هو أحّد كتب الحديث السّتّة، والسّنن الأربعة، والتي تحتلّ مكانة متقدّمة عند أهل السّنّة؛ حيث تعتبر من أمّهات مصادر الحديث عندهم. يأتي في المنزلة بعد الصّحيحين. صنّفه أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي السّجِسْتاني (٢٧٥ ﻫ). بلغت أحاديثه ٥٢٧٤ حديثًا. وانتقاه من خمسمئة ألف حديثٍ. (المراجع)

(٣) جامع التّرمذي المعروف بسنن التّرمذي، هو أحدّ كتب الحديث السّتّة. قام بتجميعه التّرمذي (٢٧٩ﻫ). يعتبره رجال الدّين السّنّة خامس كتب الحديث السّتّة. (المراجع)

(٤) اشتهر بـ«سنن ابن ماجه». وهو أحّد الكتب السّتّة المعتمدة عند أهل السّنّة والجماعة. صنّفه ابن ماجه (٢٧٣ﻫ). (المراجع)

بيان غوامض القرآن، وتوضيح ما أشكل والتبس منه.

مثلاً ورد في سورة الإسراء قوله[1]:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾

فيلزم لفهم هذه الآية مراجعة الأحاديث فإنّها توضّح معنى المعراج وتشرحه، كما هو معروفٌ عند علماء الإسلام.

وكذلك لولا الحديث ما فهم أحدٌ معنى «ق»، وهو اسم إحدى سور القرآن؛ فالأحاديث هي التي أوضحت أنّ المراد بحرف «ق» اسمُ جبل (ق)؛ ولهذا عزمنا بحوله تعالى طلباً للاختصار على أن نورد في هذا الكتاب شيئاً مختصّاً بمصادر الإسلام من عقيدةٍ إسلاميّةٍ أو تعليمٍ إلّا ما كان له أصلٌ وأساسٌ في القرآن ذاته، ويكون قد ورد له تفسيرٌ وشرحٌ في الأحاديث المشهورة المتواترة بين كلِّ المسلمين؛ سواء كانوا من أهل السُّنّة أو الشّيعة؛ لأنّ المقصود تعميم فوائد هذا الكتاب بين عموم المسلمين قاطبةً، وتسهيل تداوله وتقريب تناوله بين الجميع من أهلِ السُّنّة والشّيعة.

ولا يخفى أنّ علماء الإسلام ذهبوا إلى أنّ القرآن هو كلام الله عزّ وجل الذي كتبه سبحانه وتعالى في اللّوح المحفوظ قبل العالمين. ومع إنّه حصلت في خلافة المأمون وبعد خلافته مشاحناتٌ استعرت

(١) الآية ١.

نارها واشتدّ أُوارها بخصوص قِدم القرآن ممّا لا لزوم إلى ذكر شيءٍ هنا من هذه المسألة. إلّا أنّ من المجمع عليه عند المسلمين هو أنّ القرآن ليس تصنيف بشرٍ بل أنّ الله أنزله كلّه على محمّدٍ بواسطة جبريل. وهم يتمسّكون بعروة هذا الاعتقاد لغاية يومنا هذا.

قال ابن خلدون تأييداً لهذا أنّ القرآن أُنزل من السّماء باللّسان العربي على الأسلوب الذي كان مألوفاً عند العرب للإعراب عن أفكارهم وأُنزل عليه (على محمّدٍ) باللّفظ حسب مقتضيات الأحوال لبيان وحدانية الله وشرح الواجبات المفروضة على الإنسان في هذه الدّنيا. وعليه فهو يتضمّن قواعد الدّين، وثانياً يتضمّن ما فرضه على الإنسان[1].

وقال في محلٍّ آخر: «ويدلّك هذا كلّه على أنّ القرآن من أنّ الكتب الإلهيّة إنّما تلقّاه نبيّنا (صلوات الله وسلامه) عليه متلوّاً، كما هو بكلماته وتراكيبه، بخلاف التّوراة والإنجيل، وغيرهما من الكتب السّماويّة، فإنّ الأنبياء يتلقّونها في حال الوحي معاني، ويعبّرون عنها بعد رجوعهم إلى الحالة البشريّة بكلامهم المعتاد. ولذلك لم يكن فيها اعجازٌ».

ولا شكّ أنّ ما ذهب إليه علماء الإسلام من أنّ القرآن أنزله الله هو طبق ما ورد في سورة الأنعام[2]:

(١) أنظر ابن خلدون، ج ١، ٣٦٦.

(٢) الآية ٨٩.

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ﴾

فالواضح من مثل هذه الآيات، أنّ القرآن يدّعي لنفسه أنّه ليس تصنيف محمّدٍ، وليس مجموعاً من تآليف البشر بل هو كلام الله تعالى تماماً، وكلّيّةً نزل على محمّدٍ من السّماء في ليلة القدر، كما في سورة القدر[1]:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾

فإذا قبلنا هذا الشّرح والبيان وجب الاعتراف بأنّ مصدر القرآن الوحيد وأصل الدّين الإسلامي هو الله، عزّ وجلّ، ربّ العالمين، سبحانه وتعالى، وليس له مصدرٌ خلاف ذلك. ولكن إذا أمكن بالبحث والتّحقيق والتّأمّل والتّدقيق إقامة الدّليل السّاطع الذي يكون أوضح من الشّمس في رابعة النّهار أنّ أكثر القرآنِ وأغلب عقائده أُخذت بلا شكٍّ ولا شبهةٍ من الأديان الأخرى ومن الكتب التي كانت موجودةً في أيّام محمّدٍ، ولا تزال موجودةً الآن؛ فحينئذٍ يندكُّ أساس الدّيانة الإسلاميّة دكّاً، وتنهار دعاتها، وتُدرَسُ معالمها.

وبما أنّ بعض المعترضين أكّدوا قطعيّاً أنّه في استطاعتهم إقامة الأدلّة السّاطعة، والبراهين القاطعة، على ذلك، لا قل بل وجب على كلِّ باحثٍ عن الحقِّ والرّاغب بالفوز بالهدى ولا سيّما على كلِّ مسلمٍ حقيقيٍّ أن يبحث بالدّقّة والعناية التّامّة في هذه القضيّة المهمّة

(1) الآية 1.

ليعرف هل قول المعترضين هو صدقٌ أم كذبٌ. لأنّه إذا استطاع دحض اعتراضهم وقهر أخصام دينه فحينئذٍ يثبت جليّاً صدق دين الإسلام ويثبت كونه من الله. وأيّ حرجٍ على الإنسان إذا عرف الصّدق ووقف على الحقّ. وأيّ ضررٍ يحلّ به إذا اطّلع على الحقائق الصّادقة وأقوال اليقين النّاطقة وميّز بين الغثّ والسّمين وبيّن الشّين والسّين.

ولهذا السّبب، عزمنا، بمعونة المولى العليم الحكيم، على البحث في الاعتراضات، وفي تحقيق دعاوي مَن ذهب إلى أنّ كثيراً من تعاليم القرآن، وعقائد الدّيانة الإسلاميّة، هي مأخوذةٌ ومقتبسةٌ من الأديان الأخرى، ومن الكتب القديمة المتقدّمة على القرآن.

الفصل الثّاني

في البحث والنّظر فيما ذهب إليه القائلون من أنّ بعض عقائد المسلمين، ورسومهم، وفرائضهم، هي مأخوذةٌ من مذاهب العرب، في أيّام الجّاهليّة، ورسومهم، وأنّ هذا هو أوّل مصادر الدّيانة الإسلاميّة

قال المعترضون بما أنّ محمّداً كان قد عزم على انقاذ العرب وتحريرهم من عبادة الأصنام وهدايتهم إلى عبادة الله تعالى، وبما أنّه كان يعرف أيضاً أنّهم كانوا في زمن إبراهيم مؤمنين بوحدانيّته تعالى، وبما إنّهم حافظوا على كثير من العادات والرّسوم بطريق التّوارث عن آبائهم الأتقياء، لم يحملهم أو يلزمهم على ترك جميعها، بل بالحري بذلَ الجَهدَ في اصلاح ديانتهم، وأبقى كلّ عادةٍ قديمةٍ كان يرى موافقتها ومناسبتها. ولهذا ورد في سورة النّساء[1]:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إبراهيم خَلِيلًا﴾

وكذلك ورد في سورة آل عمران[2]:

﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

وكذلك ورد في سورة الأنعام[3]:

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إبراهيم حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وبما أنّ محمّداً ظنّ أنّ العرب حافظوا من عصر إبراهيم على جميع

---

(١) الآية ١٢٤.

(٢) الآية ٨٩.

(٣) الآية ١٦٢.

عاداتهم ورسومهم ما خلا عبادة الأصنام، والشِّرك، وقتل البنات الأطفال[1]، وما شاكل ذلك من العادات الذّميمة الكريهة، أبقى كثيراً من هذه الرّسوم، والعادات الدّينيّة والأدبيّة، في ديانته، وحافظ عليها.

ومع إنّ بعض القبائل القاطنين في الجّهات الواقعة في جنوب بلاد العرب وشرقيّها اختلطوا مع نسل حامٍ بن نوحٍ، ولكنّ الواضح من خمسة أسفار موسى، ومن شهادة[2] بن هشامٍ والطّبري وغيرهما، أنّ كثيرين من سكّان جهات بلاد العرب الشّماليّة والغربيّة تناسلوا من سامٍ بن نوحٍ، وبعضهم تناسل من قحطان (يقطان)، وبعضهم تناسل من أولاد قطّورة زوجة إبراهيم الثّانية، وتناسل البعض الآخر؛ ومنهم قبيلة قريشٍ من إسماعيل بن إبراهيم، ولا ينكر أحّدٌ أنّ جميع القبائل التي تناسلت من ذريّة سامٍ كان مذهبهم الأصلي وحدانيّة الله سبحانه وتعالى وتقديم العبادة له. ومع تمادي الأزمنة ومرور الأعصر أخذوا الشّرك وعبادة الأصنام من قبائل أرض سوريّة، وسكّان الجّهات المجاورة لهم، وأفسدوا ديانة أسلافهم وفسدوا هم أنفسهم.

ومع ذلك لما نست جميع الأمم الأخرى ما عدا اليهود وحدانيّة الله كان سكّان الجّهات الشّماليّة والغربيّة من شبه جزيرة بلاد العرب

(١) يقصد ظاهرة الوأد. (المراجع)

(٢) يقصد رواياتهم وتوثيقهم. (المراجع)

متمسّـكين بعروة هذه العقيدة تمسّكاً راسخاً، والأرجح أنّه كان أوّل دخول عبادة الشّمس والقمر والكواكب بين سكّان تلك الجّهات في عـصر أيّوب، كما يؤخذ من سِـفر هذا النّبـي(١)، وقال هيرودتس(٢)، وهـو من أشـهر مؤرِّخي اليونان، وكان قبل التّاريخ المسيحي بنحو ٤٠٠ سـنة، أنّ العـرب سـكّان تلك الجّهـات والأطـراف، في تلك الأيّام، كانوا يعبدون فقط معبودين: (أرتال)، و(ألالات)(٣).

ولا شـكّ أنّ مـراد هـذا المؤرِّخ من لفظـة أرتال أحَـد المعبودين الذيـن ذكرهمـا هو الله تعـالى، فإنّ هذا هو اسـمه الحقيقـي، ومع إنّ هيرودتس سـافر إلى بلاد العرب إلّا أنّـه كان رجلاً أجنبيّاً غريباً فلم يتيسّر له ضبط هذا الاسمِ فحرّفه لجهله اللّغة العربيّة، ولعدم معرفته هجائهـا والنّطق بهـا. ومن الأدلّة القويّة الدّالة على أنّ هذه التّسـمية

(١) الإصحاح ٣١، العدد ٢٦-٢٨.

(٢) أو هـيرودوت: مـؤرّخ إغريقـي عـاش (حـوالي ٤٨٤ ق.م-٤٢٥ ق.م). عرف بفضل كتابه «تاريخ هيرودوتس»، الذي وصف فيه أحوال البلاد والأشـخاص التي لاقاها في ترحاله حول حوض البحر المتوسـط. وبسـبب كتابه المتقدّم هذا أطلق عليه لقب «أبو التّاريخ». (المراجع)

(٣) تاريـخ هيرودتس، الكتاب ٣، الفصل ٨. عـلى الأرجح أنّه يقصد هنا «اللّات»، وهي إحدى الأصنام التي عبدها العرب قبل الإسـلام. وكانت هي والصّنمين «مناة والعزّى» يشـكّلون ثالوثاً أنثويّاً عبده العرب قبل الإسـلام. وبالخصوص ممّن سـكن مكّـة ومـا جاورها من المـدن والقرى، وكذلـك الأنباط وأهل مملكـة الحضر. وكانوا يعتقـدون أنّ الثّلاثة بنات الله، وقسـمٌ من العرب اعتقد أنّ الّـلات ومناة بنتا العزّى. وقيـل أنّ الّـلات هي مؤنّث اسـم (الله)، وقد كانت تُعرف في عهد هيرودوت باسـم «أليتا»، ويذكر هيرودوت بأنّها كانت الزّهرة السّماويّة. (المراجع)

الخصوصيّة المذكورة (أي الله تعالى) كانت مشهورةً ومنتشرةً بين العرب قبل زمن محمّدٍ، هو أنّه كثيراً ما ذُكر اسم الله في سبع معلّقات العرب، (وهي تأليف مشاهير الشّعراء العرب الذين كانوا قبل مولد محمّدٍ أو على الأقلّ قبل بعثته)، فقد ورد في ديوان النّابغة ما نصّه[1]:

همْ شِيْمَةٌ لم يُعْطِها اللهُ غيرهمْ ... مِنَ الجَودِ والأحلامُ غيرُ عَوَازِبِ

مَحَلَّتُهمْ ذاتُ الإلهِ ودينُهمْ ... قَوِيمٌ فما يَرْجُونَ غيرَ العواقبِ

وأيضاً[2]:

ألم ترَ أن الله أعطاكَ سُورةً ... ترى كُلَّ مَلْكٍ دونها يتذبذبُ

فإنّك شمسٌ والملوكُ كواكبٌ ... إذا طلعت لم يبدُ منهنَّ كَوكَبُ

وأيضاً[3]:

ونحنُ لَدَيْهِ نَسْأَلُ اللهَ خُلْدَه ... يَرُدُّ لنا مَلْكاً وللأرض عامِرَا

ونحنُ نُرَجِّي الخُلْدَ إنْ فازَ قِدْحنُا ... ونَرْهَبُ قِدْحَ الموتِ إنْ جاء قامِرَا

وقال لبيدٌ في ديوانه[4]:

لَعَمْرُكَ ما تَدري الضَّوَارِبُ بالحصَى ... وَلا زاجِراتُ الطَّيرِ ما اللهُ صانِعُ

(١) تحقيق عباس عبد السّاتر، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط٣، ١٩٩٦، ص ٣٢. (المراجع)

(٢) م. ن.، ص ٢٨. (المراجع)

(٣) م. ن.، ٤٥-٤٦.

(٤) دار صادر، بيروت، د. ت، ص ٩٠.

وبصرف النّظر عن ذلك، أنّه لأمرٌ مشهورٌ أنّ الكعبة، من قديم الأيّام، كانت أقدس مسجدٍ عند جميع قبائل العرب. قال ديودورس السّيكيلي[1] أحد مؤرّخي اليونان: «وكان يطلق على هذا المقدّس بيت الله»[2]. ويُستدلّ من دخول أداة التّعريف على لفظ الجلالة أنّ العرب لم ينسوا عقيدة وحدانيّة الله، وأنّه كان عندهم كثيرٌ من المعبودات حتّى أطلق عليهم القرآنُ بسببها لفظة (المشركين)؛ لأنّهم أشركوا مع الله غيره من المعبودات وعبدوها، وظنّوا أنّها شريكةٌ معه في الإكرام والعبادة الواجبة له تعالى. ولكنّهم كانوا يقولون: لا نعبد هذه المعبودات الثّانوية كما نعبد اللهَ الحيّ الذي هو الله تعالى، بل بالعكس إنّا نعتبرهم شُفعاء، ولنا الرّجاء بشفاعتهم، نستميل اللهَ الحقيقيّ لإجابة طلباتنا.

وقال الشّهرستاني[3]:

(١) أو ديودور أو ثيودور الصّقلّي: مؤرّخ يونانيٌّ، عاش في القرن الأول ق. م.. ذاع صيته بعد تأليفه موسوعته التّاريخيّة المعروفة «مكتبة التّاريخ» أو «خزانة التّاريخ»، بين سنتي ٦٠ و٣٠ ق. م.، والتي فُقدت منها كتبٌ كثيرةٌ، إذ كانت تتألّف من ٤٠ كتابًا، ولم يبق منها سوى ١٥ كتابًا، وبعض الأجزاء المتفرّقة، التي نُظّمن بثلاث مجلّدات. يتناول في المجلّد الأوّل: تاريخ مصر وآسيا وأوروبّا، وغيرها من الأقطار، إلى حرب طراودة، وفي الثّاني يتناول أحداث حرب طراودة إلى موت الإسكندر الأكبر، أمّا الثّالث، فإنّه يكتنف أحداث الفترة التي أخذت مجراها من موت الإسكندر إلى نحو عام ٦٠ ق. م. (المراجع)

(٢) في الكتاب الثّالث.

(٣) هو أبو الفتح محمّد أبي بكرٍ (٥٤٨ه): عالمٌ بارزٌ بالمذاهب والشّرائع، ويعدّ أشهر ثالث شخصيّةٍ بين الأشاعرة في معرفة الملل والنّحل، بعد الشّيخين: أبي الحسن

«إنّ العرب كانوا يقولون الشّفيع والوسيلة منّا إلى الله تعالى هم الأصنام المنصوبة، فيعبدون الأصنام التي هي الوسائل».

ومن الأدلّة على إنّ هؤلاء عبدة الأصنام كانوا يعتقدون هذا الاعتقاد هو ما ذُكر في الكتاب المسمّى «المواهب اللّدنيّة»[1]، ونصّه[2]:

«قدِمَ نفرٌ من مهاجرة الحبشة حين قرأ (ع) سورة النّجم[3]: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾، حتّى بلغ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى*وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ ألقى الشّيطان في أمنيته (أي تلاوته): (تلك الغرانيق العلى وإنّ شفاعتهن لترتجى)، فلمّا ختم السّورة سجد (صلعم)، وسجد معه المشركون، لتوهّمهم أنّه ذكر آلهتهم بخيرٍ. وفشى ذلك بالنّاس، وأظهره الشّيطان حتّى بلغ أرض الحبشة، ومَن بها من المسلمين: عثمان بن مظعونٍ وأصحابه، وتحدّثوا أنّ أهل مكّة قد أسلموا كلّهم، وصلّوا معه (صلعم)، وقد آمن المسلمون بمكّة، فأقبلوا سراعاً من الحبشة».

الأشعري، وعبد القاهر البغدادي. وكتابه المعروف بالملل والنّحل، يعدّ من المصادر البارزة لهذا العلم. وهذا الاقتباس مأخوذٌ من كتابه هذا، طبعة دار الكتب العلميّة، صححه وعلّق عليه احمد فهمي، ط٢، ١٩٩٢، ٩٠. (المراجع)

(١) عنوانه كاملا: «المواهب اللّدنيّة بالمنح المحمّديّة في السّيرة النّبويّة»، من تأليف شهاب الدّين القسطلاني (٩٢٣ هـ). (المراجع)

(٢) طبعة المكتبة التّوفيقيّة، مصرج، ١، ١٤٧. (المراجع)

(٣) الآيتان ١٩، ٢٠.

وذكر ابن إسحق، وابن هشام، والطّبري، وكثيرون غيرهم؛ من مؤرّخي الإسلام هذه الحكايةَ أيضاً، وأيّدها يحيى[1]، وجلال الدّين[2]، والبيضاوي[3]، في تفاسيرهم لسورة الحجّ[4]:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾

وقال الشّهرستاني بخصوص مذاهب قدماء العرب ورسومهم

(١) ربـماً يقصد «تفسير يحيى بن سلام»، بن أبي ثعلبة التّيمي (٢٠٠هـ). المفسّر، والفقيه، وعالم الحديث. الذي اتّبع، في تفسيره، طريقةً مبكّرةً هي تفسير القرآن بالقرآن، ثمّ بالسُّنّة، ثمّ بأقوال الصّحابة والتّابعين، ثمّ بالرّجوع إلى معاني الكلمات في اللّغة العربيّة. (المراجع)

(٢) يشير هنا، على الأغلب، إلى التّفسير الشّهير «تفسير الجلالين»، وهو مختصر في تفسير للقرآن، من تأليف جلال الدّين المحلّي (٨٦٤ هـ)، ثمّ أكمله جلال الدّين السّيوطي (٩١١هـ). ألّف القسم الأوّل منه المحلّي؛ حيث بدأ بالتّفسير من سورة الكهف حتّى سورة النّاس، إضافة إلى سورة الفاتحة، وتوفي المحلّي قبل أن يكمل باقي التّفسير، فأتمّه السّيوطي، فابتدأ بتفسير سورة البقرة حتّى آخر سورة الإسراء، ومن هنا جاء اسمه «تفسير الجلالين». وكان المحلّي في تفسيره يميل إلى الاختصار الشّديد، وقد نهج السّيوطي هذا النّهج. (المراجع)

(٣) يقصد تفسير البيضاوي، وهو الاسم الشّائع للتّفسير المسمّى بـ«أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل». من تأليف ناصر الدّين البيضاوي (٦٨٥ هـ). والذي يعدّ أحّد أهمّ التّفاسير التي حظيت بقبول جمهور أهل السّنّة، لما حواه من مختصرات تفاسير أخرى، فحظي بالاهتمام والشّرح والتّدريس في معاهد العلم الدّيني من أقصى الهند إلى المغرب الأقصى، وعلى رأسها الأزهر في مصر والزّيتونة في تونس عدّة قرون. (المراجع)

(٤) الآية ٥١.

وعاداتهم مـا نصّه[1]: «والعـرب الجاهليّة أصنـافٌ: فصنفٌ أنكروا الخالـق والبعث وقالوا بالطّبع المحيِّ والدّهر المغني، كما أخبر عنهم التّنزيل، وقالوا ما هي إلّا حياتنا الدّنيا نموت ونحيا، وقوله في سورة الجاثية[2] ٤٥:

﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾

وصنفٌ اعترفوا بالخالق وأنكروا البعث، وهم الذين أخبر الله عنهم تعالى بقوله في سورة ق[3]:

﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾

وصنـفٌ عبـدوا الأصنـام، وكانت أصنامهـم مختصّـةً بالقبائل، فكان ودٌّ لكَلْبٍ، وهـو بدومـة الجنـدل، وسـواعٌ لهُذيـلٍ، ويغوث لمذحج وقبائل من اليمـن، ولنسر لذي الكلاع بأرض حمير، ويعوق لهمـذان، واللّات لثقيـف بالطّائف، والعـزّى لقريشٍ وبنـي كنانة، ومنـاة للأوس والخـزرج، وهبل أعظـم أصنامهـم. وكان هبل على ظهر الكعبة، وكان أساف ونائلة على الصّفا والمروة. وكان منهم من يميل إلى اليهود، ومنهم من يميل إلى النّصرانيّة، ومنهم من يميل إلى الصّابئة، ويعتقد في أنواء المنازل اعتقاد المنجِّمين في السّيّارات، حتّى

---

(١) الملل والنّحل، ج٢، ٢٣٥. (المراجع)

(٢) الآية ٢٣.

(٣) الآية ١٤.

لا يتحرك إلّا بنوءٍ من الأنواء، ويقول: مطرنا بنوء كذا[1].

وكان منهم من يعبد الملائكة، ومنهم من يعبد الجنَّ. وكانت علومهم: علم الأنساب، والأنواء، والتّواريخ، وتعبير الرّؤيا، وكان لأبي بكرٍ الصِّدِّيق (رضي الله عنه) فيها اليد الطّولى، وكانت الجاهليّة تفعل أشياءً جاءت شريعة الإسلام بها فكانوا لا ينكحون الأمّهات والبنات، وكان أقبح شيءٍ عندهم الجمع بين الأختين، وكانوا يعيبون المتزوّج بامرأة أبيه، ويسمّونه الضّيزن. وكانوا يحجّون البيت، ويعتمرون، ويحرمون ويطوفون، ويسعون، ويقفون المواقف كلّها، ويرمون الجمار، وكانوا يكسبون في كلِّ ثلاثة أعوامٍ شهراً، ويغتسلون من الجنابة، وكانوا يداومون على المضمضة، والاستنشاق، وفرق الرّأس، والسّواك، والاستنجاء، وتقليم الأظافر، ونتف الإبط، وحلق العانة، والختان. وكانوا يقطعون يد السّارق اليمنى»[2].

قال ابن إسحق وابن هشامٍ، بناءً على هذا القول، أنّ ذريّة إسمعيل كانوا؛ أوّلاً يعبدون الله الواحد ولا يشركون معه أحّداً، ثمّ سقطوا في عبادة الأصنام. ومع ذلك، فقد حافظوا على كثيرٍ من العادات والرّسوم التي كانت في أيّام إبراهيم؛ فلم ينسوا أنّ الله تعالى كان أرفع من معبوداتهم بل إنّه تعالى هو الحاكم والمسلّط عليها جميعاً.

(١) ينظر: الملل والنِّحل، ج٢، ٢٣٨.

(٢) م. ن.، ج٢، ٢٤٩.

وذُكر في سيرة الرّسول خلفت الخلوف[1]، ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسمعيل غيره فعبدوا الأوثانن وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضّلالات، وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم يتمسّكون بها؛ من تعظيم البيت، والطّواف به، والحجّ والعمرة، والوقوف على عرفة والمزدلفة، وهدي البدن، والإهلال بالحجّ والعمرة، مع ادخالهم فيه ما ليس منه. فكانت كنانة قريش إذا أهلّوا قالوا: «لبّيك اللّهم لبّيك، لبّيك لا شريك لك إلّا شريكٌ هو لك، تملكه وما ملك»[2].

فيوحّدونه بالتّلبية، ثمّ يدخلون معه أصنامهم، ويجعلون ملكها بيده. وذكر في القرآن قوله[3]:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

فالواضح من هذا، أنّ في أيّام الجاهليّة كان العرب يعبدون الله سبحانه وتعالى بشفاعة العزّى ومناة واللّات، (كما يطلب المسلمون، في الوقت الحاضر، غفران الخطايا من الله، عزّ وجلّ،

(١) أي تعاقبت القرون. فخلوف: جمع خلفٍ، الجَمَاعَة: الخلف، وهم الْقَوْم يخلفون من كَانَ قبلهم. وَكَذَلِكَ الْقُرُون. ينظر: جمهرة اللّغة، خلف. (المراجع)

(٢) تاريخ اليعقوبي، مج١، ٢٥٥. (المراجع)

(٣) سورة يونس، الآية ٣.

بشفاعة الأولياء)، وحينئذٍ يصدق على العرب الوثنيّين لا مسلمي هذا الزّمان قول القرآن: أنّهم مشركون. فينتج من ذلك أنّ سكّان بلاد العرب حافظوا على عبادة الله تعالى إلى عصر محمّدٍ، واعترفوا بوحدانيّة القدّوس. وبناءاً على ذلك يقول المعترضون أنّ محمّداً أخذ هذه العقيدة من قومه وتعلّمها من جدوده وأسلافه لأنّه يتّضح من اسم والده (عبد الله)، واسم ابن أخيه (عُبيد الله) الوارد فيهما لفظ الجلالة بأداة التّعريف، التي هي دلالةٌ على وحدانيته تعالى، أنّ هذه العقيدة الشّريفة كانت معروفةً قبل بعثة محمّدٍ، وأنّ الدّيانة الإسلاميّة أخذت عادات الطّواف والإهلال والإحرام وغيرها كثيراً من ديانة هذه القبائل القديمة. وكان الختان من هذه العادات كما قال الشّهرستاني.

ويتّضح من نبذةٍ صغيرةٍ، تسمّى «رسالة برنباس»[1]، بأنّ الختان لم يكن عند العرب، فقط، من قديم الزّمان، بل كان مرعيّاً عند أممٍ كثيرةٍ، أيضاً، فإنّ مؤلّف هذه الرّسالة، (التي كتبت نحو ٢٠٠ سنة بعد التّاريخ المسيحي)، قال بعبارةٍ صريحةٍ:

---

(١) أو «رسالة برنابا»، وهي رسالةٌ يونانيّةٌ؛ من ٢١ فصلًا، محفوظةٌ في المخطوطة السّينائيّة؛ حيث تظهر في آخر العهد الجديد فيها. وتُنسب إلى برنابا المذكور في سفر أعمال الرّسل، وينسبها البعض إلى برنابا الإسكندراني أو إلى معلّم مسيحيٍّ مجهولٍ. وهي غير إنجيل برنابا. وهي من الرّسائل التّعليميّة. وقد نشرت ضمن رسائل «الآباء الرّسوليّون». ونشرها القمص بيشوى عبد المسيح ضمن مؤلّفٍ بعنوان «حياة برنابا، رسول المسيح». (المراجع)

{إنّ كلّ سوريٍّ وعربيٍّ، وجميع كهنة الأصنام، يختتنون}

ولا يخفى أنّ الختـان كان مرعيّاً عند قدماء المصريين، أيضاً. ومع إنّ العرب كانوا يعبدون أصناماً كثيرةً في أيّام محمّدٍ؛ حتّى كان يوجد في الكعبة ٣٦٠ تمثالاً، إلّا أنّ ابن إسحق وابن هشـام قالا: أنّ عمراً بـن لُحـي وهذيل بن مدركة أتيـا بعبادة الأصنام إلى مكّة من سـوريّة فقـط خمسـة عشر جيلاً قبل عـصر محمّدٍ. وعلى كلِّ حـالٍ، فلا يحتاج أحَدٌ إلى وحيٍّ وإلهـامٍ لمعرفة قباحة وبطلان هذه العادة الكريهة. غير إنّ تقبيل الحجر الأسـود الذي كان يعبده قدماء الوثنين بهذه الكيفيّة لاعتقادهم أنّه من حجارة الجنّة كان من العادات المستحبّة جدّاً عند العـرب، حيـث لم يتمكّن محمّدٌ مـن منعهم عن مزاولتهـا، وهذا هو سبب تقبيل الحجّاج هذا الحجر لغاية هذا اليوم.

وحاصـل الـكلام أنّ مصدر الدّيانة الإسـلاميّة الأوّل كان تلك الرّسـوم الدّينيّة والعادات والمذاهب الاعتقاديّة التي كانت متداولةً ومتسلّطةً في أيّام محمّدٍ بين قبائل العرب ولاسيّما قريش، وقال المؤلّف ولم أعـرف وجهـاً ولا جواباً به يدحض المسـلمون أقوال المعترضين هذه الّلهم إلّا أنّهم يقولون أنّ هذه الرّسـوم والعادات أنزلها الله أوّلاً على إبراهيم ثمّ أمر محمّداً أن يُبلغها للنّاس ثانيةً ليتمسّكوا بها تمسّكاً راسـخاً. ومـع إنّـه قد تَبرهنَ من خمسـة أسـفار موسـى أنّ الاعتقاد بوحدانيّـة الله تعالى ورسـم الختان كانـا من أركان ديانـة إبراهيم إلّا أنّـه لم يرد في التّوراة والإنجيـل ذكرٌ لمكّة، ولا للكعبة، ولا للطّواف،

ولا للحجر الأسود، ولا للإحرام. ولا شكّ أنّ العادات المرتبطة والمتعلّقة بهذه الأشياء هي اختراعات عبدة الأصنام، ولم يكن ولن يكون لها أدنى ارتباطٍ ولا علاقة بدين إبراهيم.

قال المعترضون، وبصرف النّظر عن كلّ هذا، فإنّ بعض آيات القرآن مقتبسةٌ من القصائد التي كانت منتشرةً ومتداولةً بين قريشٍ قبل بعثة محمّدٍ، وأوردوا بعض قصائد منسوبةً إلى امرىء القيس مطبوعةً في الكتب باسمه؛ لتأييد قولهم هذا. ولا شكّ أنّه ورد في هذه القصائد بعض آياتٍ تشبه بل هي عين آيات القرآن، على حدٍّ سواء، أو تختلف عنها في لفظةٍ أو لفظتين، ولكنّها لا تختلف عنها في المعنى مطلقاً، وهاك الأبيات التي يوردها المعترضون، وقد أشّرنا على العبارات التي اقتبسها القرآن بوضع علامة تحتها كهذه (___)[1]:

دَنَت السّاعَةُ وانشقّ القَمَرْ ... عَن غَزالٍ صَادَ قَلبِي وَنَفَرْ

أَحوَرٌ قَد حُرتُ فِي أوصافِهِ ... نَاعِسُ الطّرفِ بِعَينَيهِ حَوَرْ

مرّ يَومُ العِيدِ فِي زِينَتِهِ ... فَرَمَانِي فَتَعَاطَى فَعَقَرْ

بِسِهَامٍ مِن لِحَاظٍ فَاتِكٍ ... تَركَتنِي كَهَشِيمِ المحتَظِرْ

وَإذَا مَا غَابَ عَنِّي سَاعَةً ... كَانَتِ السّاعَةُ أَدهَى وَأَمَرْ

(١) لم ترد هذه الأبيات في ديوان امريء القيس، بتحقيقاته وطبعاته المختلفة، ولا أعرف من أيّ مصدرٍ استقاها المؤلّف. (المراجع)

كُتِبَ الحُسْنُ عَلَى وَجنَتِهِ ... بِسَحِيقِ المِسْكِ سَطرًا مُختصرْ

عَادَةُ الأقمارِ تَسرِي فِي الدُّجَى ... فَرَأَيتُ اللَّيلَ يَسرِي بِالقَمَرْ

بِالضَّحَى وَاللَّيلِ مِن طرَّتـهِ ... فرْقه ذا النّور كَم شَيءٍ زهَرْ

قُلتُ إذ شَقَّ العِذارُ خدَّهُ ... دَنَتِ السّاعَةُ وانشَقّ القَمَرْ

وله أيضاً[1]:

أَقبلَ والعُشّاقُ مِن خَلفِهِ ... كَأَنَّهُم مِن حَدَبٍ يَنسِلُونْ

وَجَاءَ يَومُ العِيدِ فِي زِينَةٍ ... لِمِثلِ ذا فَليَعمَلِ العَامِلُونْ

واتّضح، كما ذكر المؤرّخون، بأنّه جرت العادة، سابقاً، بين العرب بأنّه إذا نبغ بينهم رجلٌ فصيحٌ بليغٌ، وألّف قصيدةً بديعةً غرّاء، علّقها على الكعبة. وإنّ هذا هو سبب تسميّة المعلّقات[2] السّبع بهذا الاسم، أي لأنّها علّقت على الكعبة. غير إنّ بعض المحقّقين، الذين يُركن على قولهم، أنكروا كون هو هذا سبب التّسمية، غير إنّ هذا قليل الأهمّيّة.

ومن الحكايات المتداولة في عصرنا الحاضر أنّه لّما كانت فاطمةُ بنت محمّدٍ تتلو هذه الآية وهي:

(١) لم ترد هذه الأبيات، أيضاً، في ديوان امرىء القيس، بتحقيقاته وطبعاته المختلفة، ولا يُعرف من أيِّ مصدرٍ استقاها المؤلّف. (المراجع)

(٢) فيما يخصّ أبيات امرىء القيس السّابقة فهي ليست من معلّقته اللّاميّة الشّهيرة: «قِفَا نَبكِ مِن ذِكرى حَبِيبٍ وَمَنزِلِ». (المراجع)

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾[1]

سـمعتها بنت امرىء القيس، وقالت لهـا: إنّ هذه هي قطعةٌ من قصائـد أبي أخذهـا والـدك، وادّعـى أنّ الله أنزلها عليـه[2]. ومع إنّه يمكن أن تكون هذه الرّواية كاذبةً لأنّ امرىء القيس توفي سنة ٥٤٠ من التّاريخ المسيحي، ولم يولد محمّدٌ إلّا في سنة الفيل، أي سنة ٥٧٠ مسـيحيّة، إلّا أنّه لا يُنكـر أنّ الأبيات المذكورة الموضوع تحتها علامة هـي واردةٌ في سـورة القمـر[3]، وفي سـورة الضّحـى[4]، وفي سـورة الأنبياء[5]، وفي سورة الصّافّات[6].

غايـة الأمر أنّه يوجد اختلافٌ طفيفٌ في اللّفظ وليس في المعنى؛ فمثـلاً ورد في القرآن (اقتربت)، أمّا في القصيدة فورد (دنت) عوضاً عن اقتربت، فمن البيّن الواضح أنّه يوجد مناسـبةٌ ومشابهةٌ بين هذه الأبيـات وبـين تلـك الآيات الـواردة في القـرآن. فإذا ثبـت أنّ هذه الأبيـات هـي لامـرىء القيـس حقيقةً فحينئـذٍ يصعب على المسـلم

(١) سورة القمر، آية ١.

(٢) لم أهتد إلى هذه الرّواية في المصادر القديمة، ويبدو أنها متحلةٌ حديثاً. (المراجع)

(٣) الآيـات ١، ٢٩، ٣١. ﴿اقْتَرَبَتِ السَّـاعَةُ وَانشَـقَّ الْقَمَرُ(١)... فَنَـادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ(٢٩)... فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ(٣١)﴾. (المراجع)

(٤) الآية ١. ﴿وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾. (المراجع)

(٥) الآيـة ٩٦. ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِـلُونَ﴾. (المراجع)

(٦) الآية ٦١. ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ﴾. (المراجع)

توضيح كيفيّة ورودها في القرآن لأنّه يتعذّر على الإنسان أن يصدّق أنّ أبيات شاعرٍ وثنيٍّ كانت مسطورةً في اللّوح المحفوظ قبل انشاء العالم.[1]

قال مؤلّف هذه الصُّحيفات: إنّني لا أرى مخرجاً ومنفذاً لعلماء الإسلام من هذا الإشكال إلّا بأن يقيموا الدّليل والبرهان على هذه الأبيات مأخوذةً ومقتبسةً من القرآن، وأنّها ليست من نظم امرىء القيس الذي توفيّ قبل مولد محمّدٍ بثلاثين سنة. ولكن يصعب علينا بأن نصدّق بأنّ ناظم هذه القصائد بلغ إلى هذا الحدّ من التّهتّك والاستخفاف والجرأة في أيِّ زمنٍ من الأزمان بعد تأسيس مملكة الإسلام التي كانت متّسعة الأطراف والأكناف حتّى يقتبس آياتٍ من القرآن ويستعملها بهذه الكيفيّة (في مثل هذا الموضوع)، كالكيفيّة المستعملة في هذه القصائد، غير إنّ المعترضين والمنتقدين لا يرتكنون ولا يعوّلون بأيِّ وجهٍ كان على صحّة هذه الأبيات لتأييد ما ذهبوا إليه من أنّه قد كانت عادات العرب القديمة ورسومهم وعقائدهم

(١) (تنبيه): قال المفسّر الشّهير أبو جعفرٍ النّحّاس (٣٣٨ هـ) على هذا الصّدد: «واختلفوا في جامع هذه القصائد السّبع، وقيل أنّ العرب كان أكثرها يجتمع بعكاظ، ويتناشدون الشّعر، فإذا استحسن الملك قصيدةً قال علّقوها واثبتوها في خزانتي. فأمّا قول من قال عُلِّقت في الكعبة فلا يعرفه أحدٌ من الرّواة. وأصحّ ما قيل في هذا أنّ حمّاداً الرّاوية لمّا رأى زهد النّاس في الشّعر جمع هذه السّبع وحضّهم عليها، وقال لهم هذه هي المشهورات، فسمّيت القصائد المشهورة لهذا. وقس على ذلك ما قاله السّيوطي، غير إنّه أشار، أيضاً، إلى رواية تعليق الأشعار في الكعبة، قائلاً بجواز صحّة هذه القصّة. (الجزء الثّاني من «شرح القصائد العشر الطّوال»، ٢٤٠). (المترجم)

الدّينيّة من أهمّ مصادر الإسلام؛ لأنّ ما ذكرناه قبل هذا كافٍ وحده عندهم في تأييد هذه القضيّة.

الفصل الثّالث

في البحــث فيما ذهب إليه جماعــةٌ من المعترضين؛ من أنّ بعض التّعاليم والقصص الواردة في القرآن، أو في الأحاديث، هي مأخوذةٌ من تفاســير اليهود الوهميّة، وإنّ بعض فرائض المسلمين الدّينيّة هي مأخوذةٌ من طريقة الصّابئين

لما شرع محمّدٌ في ادّعاء النّبوّة، وبذل كلّ ما في وسعه وإمكانه من المساعي لإبعاد قومه عن عبادة الأصنام وإرجاعهم إلى دين إبراهيم، لم يكن عند العرب كتابُ وحي إلهيٌّ، لو دُعِي أنّه كانت لهم في عصر محمّدٍ، ولا سيّما قبل الهجرة، سطوةٌ عظيمةٌ، وشوكةٌ جسيمةٌ في بلاد العرب، وكانوا أيضاً كثيري العدد. ومن أشدِّ القبائل اليهوديّة بأساً وأعظمهن شأناً: بنو قريظة، وبنو قينقاع، وبنو نظير.

ولما اتّضح أنّهم مصمّمون على عدم الاعتراف بنبوّة محمّدٍ ورسالته انتشبت بينهم وبين المسلمين مكافحاتٍ، وبكلِّ صعوبةٍ ومشقّةٍ قدر المسلمون أن يغلبوهم بقتلهم أو طردهم من بلاد العرب. ومع إنّ أولئك اليهود لم يكونوا مشهورين بالمعارف إلّا أنّهم حافظوا بغاية الحرص الشّديد على كتب أنبيائهم مثل: خمسة أسفار موسى، وزبور داود، وغيرهما. ولهذا السّبب عينه قيل عنهم وعن النّصارى أيضاً في القرآن أنّهم هم أهل الكتاب.

ومع إنّه كان كثيرون منهم لا يعرفون اللّغة العبريّة حقّ المعرفة إلّا أنّهم نقلوا، كاليهود القاطنين في القطر المصري وغيره، بطريق التّواتر كثيراً من القصص والرّوايات الموجودة في التّلمود[1]، وغيرها من

(١) ينقَسِمُ التّلمود إلى جزئين هامَّين: ١- المشناه Mishnah، وهو الأصل (المتن) ٢- جمارا Gamara، وهو شرح المشناه. ومشناه أوّلُ لائحةٍ قانونيّةٍ وضعها اليهودُ لأنفسهم بعد التّوراة، جمعها يهوذا هاناسي Judah Hanasi فيما بين ١٩٠ و٢٠٠ م، أي: بعد قرن تقريبًا من تدميرِ تيطس الرّوماني الهيكل. أمّا جمارا فاثنان: جمارا أورشليم (فلسطين). وجمارا بابل. جمارا أورشليم (أو فلسطين) هو سجِلّ

الخرافات الباطلة. وكثيراً ماكانوا يكرّرون تلك الرّوايات العاطلة التي لا أصل لها، عوضاً عن ذكر تعاليم الوحي الإلهي المدوّنة في الكتب السّماويّة. وما ذلك إلّا لعدم فهمهم شريعة موسى وسائر الكتب الرّبّانيّة. وكانت العرب أيّام الجاهليّة يراعون مقام اليهود ويعتبرونهم؛ لأنّهم كانوا متأكّدين من أنّهم كانوا، بلا شكٍّ ولا ريبٍ، ذرّيّة إبراهيم خليل الله، وأنّهم كانوا لا يزالون حفظة كلمة الله.

قال المعترضون: وبناءً على ذلك لما رأى محمّدٌ أنّ عبادة الأصنام ليست مناسبةً بل بالعكس كانت مكروهةً أمام الله الوحيد سبحانه وتعالى، وبما أنّه عزم في قلبه ونوى على إرجاع قومه إلى دين إبراهيم الخليل فالأرجح أنّه وجّه أنظاره إلى اليهود للاستفادة منهم، فاستفهم منهم عن عقائد دين إبراهيم وفرائضه ورسومه. وإذا قارنا بين التّعاليم والأخبار الواردة في القرآن والأحاديث وبين التّعاليم والقصص والحكايات التي كانت متداولةً بين اليهود في تلك الأعصر اتّضح لنا جليّاً أنّه يوجد بينها علاقةٌ وارتباطٌ ومشابهةٌ عجيبةٌ. وما يؤيّد أنّ محمّداً تعلّم من اليهود وأخذ عنهم كل ما أمكنهم أن يفيدوه عن دين إبراهيم هو ورود آياتٍ كثيرةٍ في القرآن نصّ فيها صريحاً بأنّ دين إبراهيم كان حقّاً. وزد على ذلك أنّه شهد أنّ الله هو الذي أنزل كتب اليهود الموحى بها، وأنّه عندهم الدّيانة الحقيقة.

للمناقشات التي أجراها حاخامات فلسطين (أو بالأخصّ علماء مدارس طبريّة) لشرح المشناه. (المراجع)

مثلاً ورد في سورة العنكبوت ما نصّه:[1]

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾

وكذلك ورد في سورة البقرة ما نصّه:[2]

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إبراهيم وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾

وبناءً على اقتناع محمّدٍ وتثبّته من صحّة هذا الاعتقاد جعل بيت المقدس أي القدس في مبدأ الأمر قبلةً للمسلمين؛ لأنّ هذه المدينة كانت لا تزال قبلةً لليهود. غير إنّ البعض فنّد ودحض ما قيل من أنّ محمّداً أخذ من اليهود التّعاليم والقصص الواردة في القرآن التي تشبه غاية المشابهة التّعاليم والقصص الواردة في التّلمود، وفي كتب اليهود الأخرى، بقوله أنّ محمّداً تسمّى في سورة الأعراف[3] بـ﴿النّبي الأمّيّ﴾؛ لعدم معرفته القراءة والكتابة.

(١) الآية ٤٦.

(٢) الآية ١٣٦.

(٣) الآية ١٥٧.

وبنـاءً على ذلك قالوا: من الواضح البيّن أنّه إذا كان لا يعرف أن يقـرأ كتب اليهود فكيف كان يتيسّر لـه أن ينتحل منها تعاليمه. فنردّ على ذلك قائلين أنّ سـبب تسـميته بالأمّيّ هو أنـه لم ينبغ بين اليهود بـل نبغ بين الأمم لأنّه جرت عادة اليهود أن يطلقوا لفظة الأمم على كلِّ مَـن لم يكن يهودياً من الشّـعوب والملل، كـما إنّ العرب يطلقون لفظـة العجـم ليس على الفارسي فقـط بل على كلِّ مـن لم يكن عربيّاً مـا عـدا بلاد العرب وسـكّانها. ومعنـى لفظة (عجمـي) في الأصل هـو من ليس ذلق الّلسـان وفصيح المنطق. ولكـن إذا رأينا في بعض الكتب العربيّة أنّ حافظَ الشّيرازي[1] كان رجلًا عجميّاً فليس المراد أنّـه كان رجلاً مجـرّداً من الفصاحة بل المراد بلفظة عجمي أنّه لم يكن من العرب.

وإذا فرضنا جدلاً أنّ محمّداً كان أمّيّاً لا يعرف القراءة ولا الكتابة فهـل كان يبعد عليه أن يسـتفهم من غيره ويقف عـلى تعاليـم اليهود وعقائدهـم وأوهامهـم، لا جـرم أنّ ذلـك كان متيسّراً له، ولا سـيّما

(١) شـمس الدّين محمّد حافظ الشّـيرازي (نحو ٧٢٥-٧٩٢ هـ)، الشّـهير بـ«لسان الغيـب»، مـن أشـهر الشّـعراء الإيرانيّين. لُقّـب بـ«حافـظ»، لحفظه القـرآن بقراءاته الأربع عشرة. قيل بأنّه سنّي أشـعري ذو ميولٍ صوفيّة. مع شـكٍّ، لدى البعض، بأنّه من الشّيعة الإثني عشريّة. تُرجمت أشعاره إلى كثيرٍ من اللّغات العالميّة. (المراجع)

أنّ بعـض الصّحابـة؛ كعبيد الله بن سـلام[1]، وحبيبِ بـن مالكٍ[2]، وورقةَ[3]، كانوا ذواتهم من اليهود أو أنهّم كانوا يدينون بدين اليهود أوّلاً ثـمّ آمنـوا بمحمّدٍ، ومـع إنّه لم يكن لهم إلمامٌ تـامٌّ بحقائق تعاليم العهـد القديم صحيحـة إلّا أنّهم كانوا يعرفون أقـلّ ما يكون بعض الرّوايات الباطلة والقصص والحكايات التي كانت متداولةً في تلك الأيّـام بين اليهود، وبلغت مبلغ التّواتـر. وإذا قارنا بين القرآن وبين تلـك القصـص المدوّنـة في التّلمود وفي غـيره من الكتب المشـحونة بالأوهـام التـي لا تـزال متداولـةً بـين اليهود اتّضـح لنا أنّهـا كانت مستعارةً من كتب اليهود الفارغة.

(١) الأصـوب عبـد الله وليـس عبيـد (٤٣هـ): وهـو ابـن الحـارث الإسرائيـلي، ثـمّ الأنصـاري؛ لأنّـه كان حليفًا لهـم. وكان حبرًا من أحبار اليهود الكبـار في المدينة، من بني قَيْنُقَاع. واسمه في الجاهليّة الحصين فلمّا أسلم سمّاه الرّسول عبد الله. (المراجع)

(٢) لم أهتـد إلى هـذه الشّـخصيّة في المصـادر القديمة مـن كتب الأنسـاب والتّراجم والحديث النّبوي والصّحابة. لكن تروى روايةٌ حديثةٌ، نُقلت عن خطبةٍ للشّيخ سعد السّـيسي بمـصر، أنّ حبيب بن مالـك كان أميراً في إمارةٍ قرب مكّـة وأراد أن يحجّ إلى الكعبة على دين الوثنيّة، وبرفقتة أكثر من ١٢ ألفاً من الخدم والحرّاس، فشهد انشقاق القمر، ثمّ التقى بالرّسول الذي استطاع أن يشفي ابنته المريضة، ممّا يدفعه إلى الإيمان به بعد تصديقه بمعجزاته هذه. لكن ليس فيها أيّة إشـارة يهوديته، كما أشـار المؤلّف، إنّما وثنيتـه. في حـين أنّ الرّوايات القديمة عن ظاهرة أو معجزة «انشـقاق القمر» لم تذكر مثل هذه الشّخصيّة. (المراجع)

(٣) هـو ورقة بن نوفل الأسـدي القرشي (٦١٠م): كان حنيفيًّـا موحّداً في الجاهليّة. وتقـول رواياتٌ أنّـه كان يهوديّاً، ورواياتٌ أخرى تقول أنّه كان نصرانيّاً، من الشّـيعة الأبيونيّة. لكن اتّفق معظمها أنّه كان يقرأ التّوراة والإنجيل. وهو ابن عمٍّ خديجة بنت خويلد، زوجة النّبي. (المراجع)

نعم لا يُنكر أنّه كثيراً ما ورد في القرآن أخبارٌ عن سيرة إبراهيم، وغيره من الأفضال، أكثر ممّا ورد في خمسة أسفار موسى. ولكن قد أورد المزيّفون للإسلام هذه القصص الآتية التي أيّدوا بها ما ذهبوا إليه من أنّ القرآن اتّخذ قصصه وحكاياته من خرافات اليهود الفارغة. وممّا أورد معترضو الإسلام من القصص المؤيّدة قولهم هذا ما يأتي:

(١) قصّة قابيل وهابيل: لا يخفى أنّ القرآن لم يذكر صريحاً اسمي ابني آدم، ولكنّه أورد قصّتهما في سورة المائدة، ونصّها[1]:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ* لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ* إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ* فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ* فَبَعَثَ اللّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾

(١) الآيتان ٢٧-٣١.

وليكن معلوماً أنّ اليهود رووا رواياتٍ مختلفةً بطرقٍ شتّى عمّا دار بين قايين وهابيل من هذه المحاورة الوهميّة؛ فورد في ترجوم «يوناثان بن عزية»[1]، وفي التّرجوم المسمّى «بيروشلمي»[2]، أنّ قايين، وهو المسمّى في الكتب العربيّة قابيل، قال: لا عقاب ولا حساب على الخطيئة، ولا ثواب ولا مجازاة على الصّلاح. غير إنّ

(١) pseudo-Jonathan: وهو ترجومٌ بابليٌّ آراميٌّ، وُجِد مع أسفار الأنبياء (الأوّلين والمتأخّرين). يرجع إلى القرن الرّابع الميلادي. وهو فضفاضٌ فيما يتعلّق بتفسيرة للنّص. ثمّ إبّان منتصف القرن السّابع الميلادي ظهر ترجومٌ للتّوراة أُطلق عليه اسم ترجوم «يوناثان المزيّف»؛ من منشأٍ غربيٍّ فلسطيني، لكن دُعي بالخطأ «ترجوم يوناثان»، في الطّبعات الأخيرة في القرون الوسطى. غير أنّ السّلطات الدّينيّة اليهوديّة في القرون الوسطى كانت دائمًا تدعوه باسمه الصّحيح. حصل الخطأ عندما فسّر الطّابع حرفَيْ (ت، ي) المكتوبين على المخطوط «ترجوم يوناثان»، بينما هي «ترجوم يروشليمي». ويشير العلماء اليوم إلى هذا التّرجوم باسم «ترجوم يوناثان المنحول». إنّ نسبة هذا التّرجوم إلى يوناثان بن عزيئيل يناقض التّقليد التّلمودي الذي يُنسب له ترجوم الأنبياء، فقط. ومن المفيد غلإشارة هنا إلى أنّ التّرجوم Targum كلمةٌ آراميّةٌ من الأصل الفارسي «تورجمان»، وتعني ترجمة. ويُطلَق هذا المصطلح على التّرجمات الآراميّة للكتاب المقدّس. وقد وُضعت في الفترة الواقعة بين أوائل القرن الثّاني وأواخر القرن الخامس ق. م.. وقد أصبحت مثل هذه الترجمة أمراً مهمّاً بالنّسبة لليهود؛ لأنّ الآراميّة حلّت محلّ العبريّة بعد التّهجير البابلي. فمنذ أيام عزرا، كانت تُضاف ترجمةٌ آراميّةٌ بعد قراءة أجزاءٍ من العهد القديم، وقد صار هذا تقليداً ثابتاً. (المراجع)

(٢) ويسمّى، أيضاً، ترجوم أورشليم. ظهر حوالي عام ٧٠٠م. ولكن لم يتبقّ سوى بعض أجزائه. ويعدّ التّرجوم الاجزائي أو ترجوم أورشليم الثّاني، الذي يتضمّن ٨٥٠ آية تقريبًا؛ في مقابل ترجوم «يوناثان المزعوم» الذي يعدّ التّرجوم الأورشليمي الأوّل. (المراجع)

هابيـل اعـترف بوجود عقـابٍ وثـوابٍ؛ فلذلـك ضرب قايين أخاه بحجـرٍ وقتلـه. وورد في الكتـاب المسـمّى (فرقـى ربي اليعـازر)[1]، مصـدر مـا ورد في القرآن بخصوص دفن جثّـة هابيل. ولا فرق بين مـا ورد في هـذا الكتاب وبين ما ورد في القرآن إلّا في مسـألة الغراب المذكـور في القرآن، فذكر في الرّواية اليهوديّة أنّ الغراب الموري علّم آدمَ ولم يعلّم قابيل.

وهاك نـصَّ الرّوايـة اليهوديّـة: إنّ آدم ومعينته (أي حـوّاء) كانا جالسين يبكيان ويندبان عليه (أي على هابيل)، ولم يعرفا ماذا يفعلان بهابيـل لأنّهـا لم يعرفا الدّفن فأتـى الغراب، وكان أحـد أصحابه قد مـات وأخذه (أي صاحبـه)، وحفر في الأرض ودفنـه أمام أعينهما، فقال آدم: «سـأفعل كما فعل هذا الغراب». فأخذ عن يد جثّة هابيل، وحفر في الأرض ودفنها. انتهى.

أمّا ما ذُكر في الآية ٢٥ من السّـورة المذكورة فلا علاقة بينه وبين ما ذُكر في الآيات المتقدّمة، ولكن إذا وجّهنا أنظارنا والتفتنا إلى كتاب

(١) في الفصـل ٢١. والصّحيـح هـو «فرقي دي رابي اليعـازر» Pirkei De-Rabbi Eliezer، ورابي بمعنى الحاخام. وهو عملٌ أثير بشـأنه جدلٌ، بخصوص أسـبقيّته على الإسلام، إذ، على الأغلب، أنّه كُتب في القرن الثّامن أو التّاسع الميلادي (بعد الإسلام). واعتـبر برنـارد جروسـفلد أنّ أبكر تاريخ ممكـنٍ لتأليف هذا التّرجوم هو سـنة ٨٠٠م، أي تنتفـي مسـألة تأثّـر القرآن به، بل يذهـب البعض إلى عكس الأمر فيكـون هو متأثّراً بالقرآن. لكنْ ربّما لأساطيره أصلٌ أقدم، بحسب باحثين آخرين. (المراجع)

(مشناه سنهدرين)[1]، رأينا هذه القصّة مذكورةً بالتّمام والتّفصيل الكافي، وهي في القرآن ناقصةٌ غير مستوفيةٍ. وهكذا تتّضح المناسبة بين الآية المذكورة أعلاه وبين قصّة قتل هابيل؛ لأنّ المفسّر اليهودي قال في تفسيره الذي علّقه على قول الله تعالى لقايين، الوارد في سفر التّكوين[2]، وهو:

(١) الفصل ٤، والفقرة ٥. المشناه: كلمةٌ عبريّةٌ مشتقّةٌ من الفعل العبري «شنّاه»، ومعناها بالعربيّة (يُثنّي أو يكرّر)، ولكن تحت تأثير الفعل الآرامي «تانا» أصبح معناها (يدرس)، ثمّ أصبحت الكلمة تشير بشكلٍ محدّدٍ إلى دراسة الشّريعة الشّفويّة، وهي أوّل ما أُلّف في التّوراة الشّفهيّة، وتتضمّن الشّرائع، ومجموعةً واسعةً من الشّروح والتّفاسير؛ تتناول أسفار العهد القديم التي قالها التّنائيم. وهناك آراءٌ مختلفةٌ حول بداية صياغة المشنا، لكنّ تمّ الاتّفاق على أنّ تحريرها وصياغتها النّهائيّة تمّت في نهاية فترة التّنائيم، في بداية القرن الثّالث الميلادي، بواسطة الرّابي يهودا النّاسي وحكماء جيله. أمّا السّيندريون: فهي عبارة عن تجمّعاتٍ تتكوّن من ٢٣ أو ٧١ شيخًا (يُعرف باسم «الحاخامات»)، بعد تدمير الهيكل الثّاني؛ للجلوس كمحكمةٍ في كلّ مدينةٍ في إسرائيل. كانت هناك فئتان من المحاكم اليهوديّة تسمّى السّنهدرين: الكبرى والصّغرى. تتلقّى الطّعون في القضايا التي تقرّرها المحاكم الأصغر. (المراجع)

(٢) الاصحاح ٤، الآية ١٠. وسفر التّكوين: هو أوّل أسفار التّوراة (أسفار موسى الخمسة)، وأول أسفار التّناخ، وهو جزءٌ من التّوراة العبريّة، كما أنّه أوّل أسفار العهد القديم لدى المسيحيّين. وهو يسرد الأحداث منذ بدء الخليقة إلى فترة نهاية حياة يوسف. وقد نُسب تأليف السِّفر، تقليديًّا، إلى موسى، مع سفر الخروج، وسفر اللاويّين، وسفر العدد، ومعظم سفر التّثنية، لكنّ العلماء المعاصرين يرون أنّه منتجٌ من القرنين السّادس والخامس ق. م. وأنها نتاج العديد من الأشخاص على مرّ قرون عدّة. (المراجع)

{ماذا فعلت؟ صوت دم أخيك صارخٌ إليّ من الأرض}

(وكلمة دم الواردة، في هذه الآية، هي بصيغة الجمع في العبري)، ما نصّه:

{قد وجدنا قايين الذي قتل أخاه أنّه قيل عنه صوت دماء أخيك صارخٌ إليك، فلم يقل دم أخيك بل دماء أخيك يعني دمه ودم ذريته. ولهذا السّبب خلق آدم وحده ليعلمك أنّ كلّ من أهلكَ نفساً من إسرائيل فالكتاب يعدّه كأنّه أهلك العالم جميعاً، وكلّ من أحيا نفساً من إسرائيل فالكتاب يعدّه كأنّه أحيا العالم جميعاً}[1].

واعلم أن الآية ٣٥ من سورة المائدة تُرجمت تقريباً حرفيّاً عن أقوال هذا المفسِّر اليهودي القديم. ولكن بما أنّ القرآن أخذ نصف هذه الفقرة فقط، أي شطرين منها، فيلزم لفهم معناها الرّجوع إلى أصل هذه الآية القرآنيّة، كما فصّلنا وأمطنا اللّثام عنها، فظهر المعنى.

(٢) قصّة انقاذ إبراهيم من نار نمرود: إنّ هذه القصّة لم تُذكر في القرآن في محلٍّ واحدٍ بل ذكرت مفرّقةً مشتّتةً في محالٍّ كثيرةٍ؛ فذُكرت

(١) سفر التكوين، الاصحاح ٤، آية ١٠. (المراجع)

في: سـورة البقرة[1]، وفي سورة الأنعام[2]، وفي سورة الأنبياء[3]، وفي

---

(١) الآية ٢٥٨. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. (المراجع)

(٢) الآيات ٧٤-٨٤. ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ، وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ، فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ، فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ، فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ، إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ، وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ، الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ، وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ، وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾. (المراجع)

(٣) الآيات ٥١-٧٢. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ، إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ، قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ، قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ، قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ، قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ، وَتَاللهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ، فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ، قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ، قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ، قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ، قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ، قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ، فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ، ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاء يَنطِقُونَ، قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلاَ يَضُرُّكُمْ، أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ، قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ، قُلْنَا

سورة مريم(١)، وفي سورة الشّعراء(٢)، وفي سورة العنكبوت(٣)، وفي

يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ، وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ، وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾. (المراجع)

(١) الآيات ٤١-٥٠. ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا، يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا، يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا، يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا، قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا، قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا، وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا، فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلا جَعَلْنَا نَبِيًّا، وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾. (المراجع)

(٢) الآيات ٦٩-٨٩. ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ، قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ، قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ، أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ، قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ، قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ، أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ، فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ، الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ، وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ، وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ، رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ، وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ، وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ، وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ، وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ، إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾. (المراجع)

(٣) الآيات ١٦-١٧. ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ، إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. (المراجع)

سورة الصّافات[1]، وفي سورة الزّخرف[2]، وفي سورة الممتحنة[3]، وفي غيرها. ولكن مَن نظر في أوائل كتاب «قصص الأنبياء» أو كتاب «عرائس المجالس»[4]، وطالع قصّة إبراهيم في هذين الكتابين أو في غيرهما، ممّا يشاكلها أو يماثلها، يجد لأوّل وهلةٍ، أنّ جميع هذه القصّة الواردة في القرآن أو الأحاديث هي مأخوذةٌ من أحّد كتب اليهود القديمة المسمّى «مدراش ربّاه»[5]، ويلزم لإقامة البرهان على

(١) الآيات ٨٣-٩٩. ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ، إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ، أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ، فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ، فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ، فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ، فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ، مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ، فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ، فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ، قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ، وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ، قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ، فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ، وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾. (المراجع)

(٢) الآيتان ٢٦-٢٧. ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ، إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾. (المراجع)

(٣) الآية ٤. ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾. (المراجع)

(٤) عنوانه كاملًا هو «عرائس المجالس في قصص الأنبياء»، تأليف أبي إسحاق الثّعلبي (٤٢٧ هـ). وهو كتابٌ يشتمل على قصص الأنبياء المذكورة في القرآن الكريم، وفيه كثير ممّا تسمّى بالإسرائيليّات. (المراجع)

(٥) او مدراش ربّه أو رابي أو رباح Midrash Rabba: هو مدراش الأجاداه البارز لأسفار موسى والمجيلوت، وهي المخطوطات أو «الأسفار الخمس»؛ وهي: نشيد الأناشيد، وكتاب روث، وسفر مراثي إرميا، سفر الجامعة، وسفر أستير. والمدراش: سلسلة مجموعةٍ من التّعليقات القديمة على كلّ أجزاء التّناخ، بتنظيم

صحّة ذلك أن تورَد أوّلاً هذه القصّة بنصّها كما وردت في القرآن وعرائس المجالس وغيره، ثمّ توردها بنصّها من الكتاب اليهودي المذكور أعلاه، ثمّ نقارن هاتين الرّوايتين الواحدة بالأخرى فينجلي الحقّ لذي عينين، فنقول:

قال أبو الفداء في كتابه المسمّى «التّواريخ القديمة من المختصر في أخبار البشر»[1] ما نصّه:

«كان آزر أبو إبراهيم يصنع الأصنام ويعطيها لإبراهيم ليبيعها، فكان يقول إبراهيم: مَن يشتري ما يضرّه ولا ينفعه؟!، ثمّ لما أمر الله تعالى إبراهيم أن يدعو قومه إلى التّوحيد دعا أباه فلم يُجبه فدعا قومه. فلمّا فشا أمره واتّصل بنمروذ بن كوش، وهو ملك تلك البلاد، أخذ نمروذُ إبراهيمَ الخليل ورماه في نارٍ عظيمةٍ فكانت النّار عليه برداً وسلاماً، وخرج إبراهيم من النّار بعد أيّامٍ، ثمّ آمن به رجالٌ من قومه»[2].

وورد في «عرائس المجالس» لما خرج إبراهيم قبل ذلك من

وتقسيم مختلفين من مجموعةٍ إلى أخرى؛ فكلّ جزءٍ من كتاب في المدراش يمكن أن يكون قصيراً جدّاً، وبعضه يصل في القصر إلى كلماتٍ قليلةٍ أو جملةٍ واحدةٍ. ويوجد بعضٌ من أجزاء من المدراش في التّلمود. (المراجع)

(١) اشتهر بـ«المختصر في تاريخ البشر»، لإسماعيل أبي الفداء. الذي كان رجل دولةٍ، ومؤرّخاً، وجغرافيّاً، وراعياً للحياة الفكرية في مدينة حماة السّوريّة. ولكتابه هذا، في الوقت الحاضر، قيمةٌ خاصّةٌ؛ نسبةً لوصفه للمدينة في القرنين الثّالث عشر والرّابع عشر الميلاديّين. وقد كرّس كتابه لتاريخ العالم منذ بدء الخلق وحتّى ٧٣٢هـ (١٣٣١م)، وهو العام الذي توفي فيه المؤلّف. (المراجع)

(٢) ج١، ٤.

المغـارة في اللّيـل رأى الكواكب قبل أن رأى القمر فقال هذا ربّي، ثمّ ساق الكلام كما يأتي:

«﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ، فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ، فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ، إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1]. قالوا: وكان أبوه يصنع الأصنام فلمّا ضمّ إبراهيم إلى نفسه، كان يصنع الأصنام، ويعطيها إبراهيم ليبيعها، فيذهب بها إبراهيم (ع) فينادي: من يشتري ما يضرّ ولا ينفع!. فلا يشتري أحدٌ منه. فإذا بارت عليه ذهب بها إلى نهرٍ فضرب رؤوسها، وقال لها: إشربي كسدتِ. استهزاءً بقومه وبما هم عليه من الضّلالة والجهالة، حتّى فشا عيبه إيّاها واستهزاؤه بها في قومه وأهل قريته، فحاجّه قومه في دينه، فقال لهم: ﴿أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾!؟ (الآيات إلى قوله عزّ وجل): ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[2]، حتّى خصَمَهم وغلبهم بالحجّة. ثمّ أنّ إبراهيم (ع) دعا آباه آزر إلى دينه فقال: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا

(١) سورة الأنعام، الآيات ٧٦-٧٩.

(٢) سورة الأنعام، الآيات ٨٠-٨٣.

يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾[1]، إلى آخر القصّة فأبى أبوه الإجابة إلى ما دعاه إليه، ثمّ أنّ إبراهيم (ع) جاهر قومه بالبراءة ممّا كانوا يعبدون، وأظهر دينه، قال: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ، أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ، فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[2]. قالوا: فمَن تعبد أنت؟ قال: ربّ العالمين. قالوا: تعني نمروذ. قال: لا ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾. إلى آخر القصّة. ففشا ذلك في النّاس حتّى بلغ نمروذ الجبّار فدعاه فقال له: يا إبراهيم أرأيت إلهك الذي بعثك وتدعو إلى عبادته، وتذكر من قدرته التي تعظمه بها على غيره ما هو؟ قال إبراهيم (ع): ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾[3]. قال نمروذ: أنا أُحيي وأُميت. قال إبراهيم: كيف تُحيي وتميت؟ قال: آخذ رجلين استوجبا القتل في حكمي فأقتل أحدهما فأكون قد أمتّه، ثمّ أعفو عن الآخر فأكون قد أحييته. فقال له إبراهيم (ع) عند ذلك: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾[4]. فبهت عند ذلك نمروذ ولم يرجع إليه شيئاً».

وبعد ذلك لما أزف وقت وليمة قومه السّنويّة خرجوا جميعهم من المدينة فرجع إبراهيم (ع) إلى المدينة لحاجة، وكسر أصنامهم

(١) سورة مريم، الآية ٤٢.

(٢) سورة الشّعراء، الآيتان ٧٥-٧٧.

(٣) سورة البقرة، الآية ٢٥٨.

(٤) سورة البقرة، الآية ٢٥٨.

جذاذاً، كما ورد في هذه العبارة الآتية من هذا الكتاب: «إذا هم قد جعلوا طعاماً فوضعوه بين يدي الآلهة، وقالوا: إذا كان حين رجوعنا فرجعنا، وقد باركت الآلهة في طعامنا أكلنا فلما نظر إبراهيم (ع) إلى الأصنام وإلى ما بين أيديهم من الطّعام قال لهم على طريق الاستهزاء: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ، مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ، فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾[1]. وجعل يكسرهن بفأسٍ في يده حتّى لم يبق إلّا الصّنم الأكبر فعلّق الفأس في عنقه، ثمّ خرج، فذلك قوله عزّ وجل، ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾[2]، فلمّا جاء القوم من عيدهم إلى بيت آلهتهم، ورأوها بتلك الحالة ﴿قَالُوا: مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ. قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾[3]. هو الذي نظنّه صنع هذا. فبلغ ذلك نمروذ الجبّار وأشراف قومه فقالوا: ﴿فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾[4]. عليه إنّه هو الذي فعل ذلك، وكرهوا أن يأخذوه بغير بيّنةٍ. قاله قتادة والدي. وقال الضّحّاك: لعلّهم يشهدون بما نصنع به ونعاقبه. فلمّا أحضروه قالوا له: أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟ قال إبراهيم: بل فعله كبيرهم هذا. غضب من أن تعبدوا مع هذه الأصنام، وهو أكبر منها فكسرهن. ﴿فَاسْأَلُوهُمْ

(١) سورة الصّافّات، الآيات ٩١-٩٣.

(٢) سورة الأنبياء، الآية ٥٨.

(٣) سورة الأنبياء، الآيتان ٥٩-٦٠.

(٤) سورة الأنبياء، الآية ٦١.

إن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾[1]. قال النّبي (ص)[2]: «لم يكذب إبراهيم (ع) إلّا ثلاث كذباتٍ؛ كلّها في الله تعالى قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾[3]، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾. وقوله للملك الذي عرض لسارة: هي أختي». فلمّا قال لهم إبراهيم ذلك رجعوا إلى أنفسهم فقالوا: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾[4]. هذا الرّجل في سؤالكم إيّاه وهذه آلهتكم التي فعل بها ما فعل حاضرة فاسألوها. وذلك قول إبراهيم (ع): فاسألوهم إن كانوا ينطقون. فقال قومه: ما نراه إلّا كما قال. وقيل: إنّكم أنتم الظّالمون بعبادتكم الأوثان الصّغار مع هذا الكبير، ثمّ نكسوا على رؤوسهم متحيّرين في أمره، وعلموا أنّها لا تنطق ولا تبطش. فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾[5]. فلمّا اتّجهت الحجّة عليهم لإبراهيم (ع) قال لهم: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ، أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[6]، فلمّا لزمتهم الحجّة وعجزوا عن الجواب قالوا:

---

(١) سورة الأنبياء، الآيتان ٦٣.

(٢) أخرجه البخاري (٢٢١٧)، ومسلم (٢٣٧١)، وأبو داود (٢٢١٢)، سنن التّرمذي، ٣١٦٦، والنّسائي في «السّنن الكبرى» (٨٣٧٥)، وأحمد (٩٢٤١). (المراجع)

(٣) سورة الصّافّات، الآية ٨٩.

(٤) سورة الأنبياء، الآية ٦٤.

(٥) سورة الأنبياء، الآية ٦٥.

(٦) سورة الأنبياء، الآية ٦٦.

﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾[1]. قال عبدالله بن عمر: إنّ الذي أشار عليهم بتحريق إبراهيم (ع) رجلٌ من الأكراد. قال شُعيبٌ الجَبّائي: اسمه ضينون. فخسف الله تعالى به الأرض. فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة. قال: فلمّا أجمع نمروذ وقومه على احراق إبراهيم (ع) حبسوه في بيتٍ، وبنوا له بنياناً كالحظيرة، فذلك قوله عزّ وجل: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾[2]، ثمّ جمعوا لـه من أصلب الحطب، وأصناف الخشب». انتهى. ثمّ ذكر المؤلّف كيف أنّ الله سبحانه وتعالى وقى إبراهيم بنعمته تعالى من حرارة النّار، وخرج منها سالماً غانماً. ثمّ قال: «وفي الخبر أنّ إبرهيم (ع) إنّما نجى بقوله: ﴿حسبي اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[3]. قال الله عزّ وجل: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾[4]. وبما أنّنا أوردنا هذه القصّة بحذافيرها من القرآن والأحاديث علينا أن نوردها من كتب اليهود، ونقارن بين هذه القصّة المتواترة بين اليهود وبين ما ذُكر أعلاه لتعرف حقيقة الفرق بينها فنقول:

ورد في (مدراش ربّاه) في الفصل السّابع عشر، في تفسير الآية السّابعة، من الاصحاح الخامس عشر، من سفر التّكوين ما نصّه:

(١) سورة الأنبياء، الآية ٦٧.

(٢) سورة الصّافّات، الآية ٩٧.

(٣) سورة الزّمر، الآية ٣٨: «حسبي الله»؛ سورة آل عمران، الآية ١٦٧: «وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ». وليس حسبي. (المترجم)

(٤) سورة الأنبياء، الآية ٦٨.

{إنّ تـارح كان يصنـع الأصنام فمرّةً خرج إلى محلٍّ ما وأناب عنه إبراهيـم في بيعهـا فإذا أتى أحَدٌ يريد الـشّراء كان يقول له (إبرهيم): كم عمرك؟ فيقول له: عمري خمسـون أو ستون سنة. فكان يقول له (إبراهيم): ويلٌ لمن كان عمره سـتين سـنةً، ويرغب في عبادة الشّـئ الذي لم يظهر في حيِّز الوجود إلّا منذ أيّام قليلةٍ. فكان يعتري الرّجل الخجل، وينصرف إلى حال سبيله. ومرّةً أتت امرأةٌ وفي يدها صحن دقيـق قمـحٍ، وقالت له: يا هذا ضـع هذا أمامهم. فقـام وأخذ عصا في يـده وكسرها كلّها جـذاذاً ووضع العصا في يـد كبيرهم، فلمّا أتى أبـوه قـال له: مـن فعل بهم كذلـك؟ فقال لـه (إبراهيـم): لا أُخفي عليـك شـيئاً، إنّ امرأةً أتـت ومعها صحن دقيق قمـحٍ وقالت لي: يا هـذا ضع هـذا أمامهـم. فوضعته أمامهـم، فقال هذا: أريـد أن آكل أوّلاً. فقـام كبيرهم وأخذ عصاً وكسرهم. فقال له (أبوه): لماذا تلفّق عليّ خرافـةً؛ فهل هذه الأصنام تدرك وتعقـل!. فقال له (إبراهيم): ألا تسـمع أُذناك ما تتكلّم به شـفتاك!. فألقى عليـه (والده) القبض وسـلّمه إلى نمروذ، فقال له (نمروذ): فلنعبد النّار. فقال له إبراهيم: فلنعبـد المياه التي تطفئ النّار. فقال له نمـروذ: فلنعبد المياه. فقال له (إبراهيم): إذا كان الأمر كذلك فلنعبد السّـحاب الذي يجيء بالمياه. فقـال له (نمـروذ): فلنعبد السّـحاب. فقـال له (إبراهيـم): اذا كان الأمر كذلك فلنعبد الرّياح التي تسـوق السّـحاب. فقال له نمروذ: فلنعبـد الرّيـاح. فقـال له (إبراهيـم): فلنعبد الإنسـان الـذي يقاوم الرّيـاح. فقال له (النّمـروذ): إذا كان مرادك المحاولة فأنا لا أعبد إلّا

النّـار، وها أنـا أُلقيك في وسـطها، وليأت الله الذي تعبـده، وينقذك منها. ونزل إبراهيم في أتون النّار ونجا}.

فـإذا قارنا هـذه الخرافة اليهوديّة بالحكاية الـواردة في القرآن عن إبراهيـم لا نجد بينهما سـوى فـرقٍ طفيفٍ جدّاً، وسـبب هذا الفرق الطّفيـف هـو أنّ محمّداً لم يطالـع هذه القصّة في كتابٍ ما بل سـمعها عن ألسـنة اليهود شـفاهيّاً. وممّا يؤيّد هذا القياس هو أنّ القرآن قال: أنّ اسـم أب إبراهيم هو آزر كما في سـورة الأنعام[1]، مع إنّ اسم أبيه في (مدارش ربّاه)، وفي خسـمة أسـفار موسـى هو تارح. ولكن قال يوزبيـوس[2]، أحّـد مؤرِّخـي اليونان الـذي تُرجم تاريخـه إلى الّلغة السّريانيّة، أنّ اسـم أبي إبراهيم هو (آثر) وهو خطأٌ مبينٌ. والأرجح، أنّ هذا الخطأ نشأ عن تسمية اليهود له في بعض الأحيان بزارح، وبما أنّ محمّداً كان قد سافر إلى بلاد الشّام فيمكن أنّه سمع بعضهم يسمّيه (آثـر)، ولما لم يتذكّـر صحّته تماماً قـال إنّ أبا إبراهيم هـو آزر، ولهذا السّبب يكتب العجم أي الفرس هذا الاسم هكذا (آزر)، ويلفظونه كأنّه مشـتقٌّ من لغة الفرس القديمة، ومعنى آزر بالفارسـيّة القديمة (نار).

(١) الآيـة ٧٤: ﴿وَإِذْ قَـالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَـةً إِنِّيٓ أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. (المراجع)

(٢) أو يوسـابيوس القيـصري (٢٦٥-٣٣٩م) أصبـح أسـقف القيصريّة في ٣١٤م. وكثيراً ما يشار إليه أنّه (أبو التّاريخ الكنسي)؛ بسبب عمله في تسجيل تاريخ الكنيسة المسيحيّة في وقتٍ مبكّرٍ، لا سيّما وقائع التّاريخ الكنسي. (المراجع)

قال بعض المسلمين في تفنيد هذا الاعتراض أنّ ما ذكرتموه يساعدنا مساعدةً عظمى على تأييد صحّة ديانتنا لأنّ محمّداً لم ينتحل هذه القصّة من اليهود ولا من النّصارى بل بالعكس أنزلها عليه جبريل بالوحي. وبما أنّ اليهود الذين هم ذريّة إبراهيم خليل الله قبلوها فشهادتهم تؤيّد وتصدّق لعبارة القرآن في هذه القضيّة. غير إنّ المعترضين المنتقدين ردّوا على هذا قائلين أنّه لم يعتقد بصحّة هذه القصّة إلّا عوام اليهود، أمّا كلّ مهذّبٍ مدقّقٍ فيعرف أن منشأ هذه الخرافة هو الاشتباه واللّبس والخطأ. ولبيان ذلك نقول أنّ أساس هذه القصّة مبنيٌّ على قول الله تعالى الوارد في سفر التّكوين الذي خاطب به إبراهيم، حيث قال: {أَنَا الرَّبُّ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أُورِ الْكَلْدَانِيِّينَ}[1].

ومعنى أور بلغة البابليين القديمة مدينة. وقد وردت هذه اللّفظة في كلمة (أورشليم) ومعناها مدينة شليم، ويعني مدينة إله السّلام. وأور الكلدانيين هو المحلّ المسمى الآن المغير[2]. وكان إبراهيم أوّلاً ساكناً هذه المدينة، ولكن توجد في اللّغة العبريّة، وفي

(١) سفر التّكوين، الاصحاح ١٥، الآية ٧.

(٢) يقصد مدينة أور، وهي الآن موقعٌ أثري لمدينةٍ سومريّةٍ، تقع في تلّ المقيّر جنوب العراق. وكانت عاصمةً للدّولة السّومريّة عام ٢١٠٠ ق. م. وكانت مدينةً بيضاويّة الشّكل، وتقع على مصبّ الفرات في الخليج العربي قرب إريدو، إلّا أنّها حالياً تقع في منطقةٍ نائيةٍ بعيدةٍ عن النّهر؛ بسبب تغيّر مجرى نهر الفرات على مدى آلاف السّنين الماضية. وتقع حاليّاً على بعد بضعة كيلومتراتٍ عن مدينة النّاصرية، وعلى بعد ١٠٠ ميل شمالي البصرة. (المراجع)

الآراميّة (الكلديّة) لفظةٌ أخرى وهي (أور) تشبه (أور) في النّطق وفي الكتابة، غير إنّ معنى (أور) في اللّغة العبريّة (النّور)، وفي اللّغة الكلديّة (النّار). وبعد تدوين التّوراة بسنين عديدةٍ كان أحّد مفسّري اليهود الذي لم يكن له أدنى إلمامٍ ولا معرفةٍ بلغة البابليين القديمة يُترجم الآية المذكورة أعلاه إلى اللّغة الكلديّة، فترجمها وشرحها هكذا: «أنا الرّب الذي أخرجك (تنوّر نار الكلدانيّين)».

وهذا المفسّر الجاهل الغبي قال في تفسيره على الآية ٣٨ من الاصحاح ١١، من سفر التّكوين، ما نصّه لما طرح نمروذ إبراهيم في أتون النّار لامتناعه عن السّجود لأصنامه لم يؤذن للنّار بأن تضرّه. ومثل هذا المفسّر المسمّى «يوناثان بن عزييل» في الخطأ الذي ارتكبه كمثل إنسانٍ طالعَ في إحدى الجرائد الإخباريّة أنّ الرّت Rat، أي الفأر، نقل الهيضة[1] إلى المركب، فعوضاً عن أن يترجم لفظة (الرّت) بالفأر لأنّ هذا هو معناها باللّغة الإنجليزيّة ظنّ أنّ (الرّت) هو الرّجل العظيم نقل الهيضةَ، الخ. لأنّ لفظة الرّت[2]، باللّغة العربيّة، هو الرّجل العظيم، ولم يدر أنّ اللّفظة التي ترجمها هي أجنبيّةٌ. فلا عجب من وقوع الجاهل في مثل هذا الغلط الذي بُنيت عليه هذه القصّة. ولكن هل يمكن أن نصدّق بأنّ النّبيّ الحقيقي يتوهّم صدق هذه العبارة، ويدوّنها في كتابه، ثمّ يدّعي أنّ كتابه هو منزّلٌ من الله،

(١) هي الكوليرا الوبائيّة، من الأمراض المعويّة-المُعديّة التي تُسببها سلالات جرثوميّة. تنتقل إلى البشر عن طريق تناول طعام أو شرب مياهٍ ملوّثةٍ. (المراجع)

(٢) الرّتُّ: رئيس البلد، والخنزير أيضاً. ينظر: الصّحاح، رتت. (المراجع)

عـزّ وجل، وأنّ الدّليل على ذلك هو مطابقته وموافقته لكتب اليهود الموحى بها.

ويـصرف النّظر عـن كلّ ذلك فـإنّ نمروذ الجّبّار، حسـب كلام موسـى الوارد في سفر التّكوين، لم يكن في أيّام إبراهيم (ع) فإنّه كان قبـل مولد إبراهيم بأجيالٍ عديدةٍ. ولكن مع إنّ اسـم نمروذ ورد في الأحاديث والتّفاسـير الإسلاميّة إلّا أنّه لم يرد في هذه القصّة الواردة في القـرآن ذاته. لعمري إنّ مَثَلَ مَن أدخل اسـم نمروذ في القصّة هو كمَثَـلِ جاهـلٍ بالكتابة والتّاريـخ ادّعى أن اسـكندر ذا القرنين ألقى عثمان أحّد سـلاطين العثمانيّين في النّـار، ولم يقل ذلك إلّا لأنّه يجهل مقـدار الزّمان بين اسـكندر وعثمان، ولأنّه لم يـدر أنّ عثمان لم يُلق في النّار مطلقاً.

(٣) حكاية الملكة سـبأ وكيفية مجيئها إلى سـليمان: إذا قارنا بين ما ورد في القرآن بخصوص بلقيس ملكة سبأ وبين ما ورد في «التّرجوم الثّـاني من عن كتاب أسـتير»[1]، نجد حسـب حجّـة المعترضين، أنّ

(١) هذا التّرجوم هو التّرجمة الآراميّة الثّانية لسفر إستير، وفيه توسّعٌ كبيرٌ في التّفصيل القصـصي علـى الرّغم مـن أنّ التّرجومـات لم تُكتـب، في الأصل، إلّا لتقريـب النّصّ المقدّس إلى اليهود الذين نسـوا العبريّة الكتابيّة، وتبنّوا الآراميّة. وبين التّرجوم الأوّل لأستير والتّرجوم الثّاني اختلافاتٌ كبيرةٌ، علماً أنّ التّرجوم الأوّل قد أُلّف سنة ٥٠٠م تقريباً. وسـفر أستير هو من أسفار التّناخ والعهد القديم. وهو واحدٌ من ثلاثة أجزاءٍ مـن الكتـب القانونيّـة اليهوديّة. وينتمـي إلى نـوع الرّواية التّاريخيـة، وكتب من أجل شرح أصل عيد البوريم أو الفوريم أو المساخر، يعني (القرعة)، وهو ذكرى لخلاص اليهود في بلاد فارس من مجزرة هامان، وزير الإمبراطور الأخميني أحشـويرش، حين

اليهود هم الذين أبلغوا محمّداً هذه القصّة فوقعت عنده موقعاً حسناً فانشرح منها غاية الانشراح حتّى أدخلها في القرآن. وهاك نصّها حسب ورودها في سورة النّمل[1]:

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ.... وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ، لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ، فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ، إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ، وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ، أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ، اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ، اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ

ألقى قرعةً ليرى اليوم المناسب لتنفيذ قتل اليهود. لكن (أستير) اليهوديّة- زوجة الملك- استطاعت بتوجيه من مردخاي أن تنقذ اليهود، وتفتك بهامان وأتباعه.

وقد أثير جدلٌ بشأن اقتباس القرآن من هذا التّرجوم؛ إذ ذهب باحثون كتبوا في «الموسوعة اليهوديّة» encyclopaedia judaica وفي «معجم الدّيانة اليهوديّة» The Oxford Dictionary of the jewish religion, p 676، إلى أنّ هذا التّرجوم يكشف لنا أنّه قد ألّف بعد الإسلام، في آخر القرن السّابع وبداية الثّامن، وأنّه ربّما قد استعمل مصادر عربيّة؛ من التّفاسير القرآنيّة أو قصص الأنبياء. (المراجع)

(١) الآية ١٧؛ والآيات ٢٠-٤٤.

مَاذَا يَرْجِعُونَ، قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ، إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ، قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ، قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ، قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ، وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ، فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ، ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ، قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ، قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ، قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ، قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ، فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ، وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ، قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ

صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

فهـذا هـو مـا قاله القرآن عن ملكة سـبأ، ثـمّ إنّ مـا ورد في هذه السّـورة عن هـذا العرش العظيم يختلـف اختلافاً قليـلاً عمّا ورد في التّرجوم أنّ صاحب هذا العرش العجيب كان الملك سـليمان نفسه، وأنّه لم يوجد عرشٌ مثله في مملكةٍ أخرى؛ لأنّه كان له سـتّ درجاتٍ ذهـب، وعـلى كلّ درجةٍ اثنا عشر أسـداً من ذهـبٍ، واثنا عشر نسراً مـن ذهبٍ. وكان يوجـد خلافها أربعة وعشرون نـسراً أخرى فوق هـذا العرش العجيب، تلقي ظلّها على رأس الملكِ، ومتى أراد الملك التّوجّه إلى مكانٍ ما كانت تنزل هذه النّسـور القويّة وتصعد بعرشـه وتحملـه إلى حيـث أراد. فترى أنّ تلك النّسـور كانت، حسـب قول التّرجـوم، تؤدّي الوظيفـة التي قام بها عفريت القـرآن (أي عفريت الجنّ الوارد ذكره في القرآن).

أمّـا من جهة ملكة سبأ ومجيئها إلى سـليمان، ومن جهة الرّسـالة التي أرسـلها إليهـا الملك وغـيره، فتوجد مشـابهةٌ عجيبـةٌ ومطابقةٌ غريبـةٌ بين هذيـن الكتابين. وغاية الأمر أنّه يوجـد هذا الفرق، وهو أنّ التّرجوم يُسـمّي حامل رسـالة سـليمان ديك الصّحراء، والقرآن يسـمّيه الهُدهُـد. مـرّةً أخـرى لـما انـشرح قلب سـليمان بخمـرةٍ أمر باحضار حيوانات الصّحراء وطيور الهواء وزحافات الأرض والجنّ والأرواح والعفاريـت لترقـص أمامه؛ ليظهر بذلـك عظمته لجميع

الملوك الذين كانوا خاضعين خاشعين أمامه. فاستدعى كتبة الملك بأسمائهم فاجتمعوا وأتوا إليه ما عدا المسجونين والأسرى والرّجل الذي فوّضت له حراستهم، وكان ديك الصّحراء في تلك السّاعة يمرح بين الطّيور، ولم يوجد، فأمر الملك من جهته بأن يحضروه بالقوّة، وهمّ باهلاكه، فرجع ديك الصّحراء، ووقف أمام حضرة الملك سليمان، وقال له: اسمع يا مولاي ملك الأرض! وأمِل أُذنك، واسمع أقوالي. ألم تمض ثلاثة أشهر من حين ما تفكّرت في قلبي وصمّمت تصميماً أكيداً في نفسي بأن لا آكل ولا أشرب ماءً قبل أن أرى كلَّ العالم وأطير فيه.

وقلت ما هي الجهة أو ما هي المملكة غير المطيعة لسيّدي الملك فشاهدتُ ورأيت مدينةً محصّنةً اسمها قيطور[1]، في أرضٍ شرقيّةٍ، وترابها ثقيلٌ من الذّهب والفضّة كزبالةٍ في الأسواق، وقد غرست فيها الأشجار من البدءِ، وهم شاربون الماء من جنّة عدنٍ، ويوجد جماهير يحملون أكاليل على رؤوسهم؛ فيها نباتاتٌ من جنّة عدنٍ، لأنّها قريبةٌ منها. ويعرفون الرّمي بالقوس، ولكن لا يمكن أن يقتلوا بها، وتحكمهم جميعهم امرأةٌ اسمها ملكة سبأ. فإذا تعلّقت إرادة مولاي فليمنطق حقوي هذا الشّخص، وأرتفع وأصعد إلى حصن قيطور، إلى مدينة سبأ، وأنا أقيّد ملوكهم بالسّلاسل، وأشرافهم بأغلال الحديد، وأحضرهم إلى سيِّدي الملك.

---

(١) أو حصن قيطور أو قطر، بمعنى بلدة العطور، برأي بعض المؤرّخين. وقيطور اسمٌ يمني قديم يعود الى العماليق. يذكر في الأنساب، من أحفاده السّميدع. (المراجع)

فوقع هذا الكلام عند الملك موقعاً حسناً، فدُعي كتبةُ الملك، وكتبوا كتاباً، وربطوا الكتاب بجناحي ديك الصّحراء، فقام وارتفع إلى السّماء، وربط تاجه، وتقوّى، وطار بين الطّيور. فطاروا خلفه وتوجّهوا إلى قلعة قيطور، إلى مدينة سبأ. واتّفق في الفجر أنّ ملكة سبأ كانت خارجةً إلى البحر للعبادة فحجبت الطّيورُ الشّمس فوضعت يدها على ثيابها ومزّقتها، ودهشت واضطربت. ولما كانت مضطربةً دنا منها ديك الصّحراء فرأت كتاباً مربوطاً في جناحه ففتحته وقرأته. وهاك ما كُتب فيه:

{منّي أنا الملك سليمان سلامٌ لأمرائك؛ لأنّك تعرفين أن القدّوس المبارك هو جعلني ملكاً على وحوش الصّحراء، وعلى طيور الهواء، وعلى الجنّ، وعلى الأرواح، وعلى العفاريت، وكلّ ملوك الشّرق والغرب والجنوب والشّمال، يأتون للسّؤال عن سلامتي، فإذا أردتِ وأتيتِ للسّؤال عن صحّتي فحسناً تفعلين، وأنا أجعلك أعظم من جميع الملوك الذين يخرّون سجّداً أمامي. وإذ لم تُطيعي، ولم تأتي للسّؤال عن صحّتي أرسل عليك ملوكاً وجنوداً وفرساناً. وإذا قلت ما هم الملوك والجنود والفرسان الذين عند الملك سليمان، فإنّ حيوانات الصّحراء هنّ ملوكٌ وجنودٌ وفرسانٌ، وإذا قلت ما هي الفرسان قلت إنّ طيور الهواء هي فرسانٌ، وجيوشي الأرواح، والجنّ والعفاريت هم الجنود الذين يخنقونكم في فراشكم، في داخل بيوتكم. حيوانات الصحراء يقتلونكم في الخلاء، وطيور السّماء تأكل لحمكم منكم}.

فلمّا سمعت ملكة سبأ أقوال الكتاب ألقت ثانيةً يدها على ثيابها ومزّقتها، وأرسلت واستدعت الرّؤساء والأمراء وقالت لهم: ألم تعرفوا ما أرسله إليّ الملك سليمان؟ فأجابوا قائلين: لا نعرف الملك سليمان، ولا نعتدّ بمملكته، ولا نحسب لها حساباً. فلم تصغ إلى أقوالهم بل أرسلت واستدعت كلّ مراكب البحر، وشحنتها هدايا وجواهر وحجارةً ثمينةً، وأرسلت إليه ستّة آلاف ولد وابنة، وكلّهم ولدوا في سنةٍ واحدةٍ، وشهرٍ واحدٍ، ويومٍ واحدٍ، وساعةٍ واحدةٍ. وكانوا كلّهم لابسين ثياباً أرجوانيّةً. ثمّ أنّها كتبت كتاباً وأرسلته إلى الملك سليمان على أيديهم. وهذا نصّه:

{من قلعة قيطور إلى أرض إسرائيل سفر سبع سنين. إنّه بواسطة صلواتك وبواسطة استغاثتك التي ألتمسها منك، سآتي إليك بعد ثلاث سنين. فوقع بعد ثلاث سنين أن أتت ملكة سبأ إلى الملك سليمان. ولما سمع الملك سليمان أن ملكة سبأ أتت أرسل إليها بنايابن يهوياداع[1] الذي كان كالفجر الذي يبزغ في الصّباح، وكان يشبه كوكب الجلال (أي الزّهرة) التي تتلألأ وهي ثابتة بين الكواكب، ويشبه السّوسن المغروس على مجاري المياه. ولما رأت ملكة سبأ بنايابن يهوياداع نزلت من العربة فأجاب بنايابن يهوياداع قائلاً

(١) أو بَنَايَاهُو بْنُ يُهَويَادَاع: اسمٌ عبريٌّ معناه «من بناه يهوه»، وهو ابن رئيس الكهنة، في أيّام داود الملك. وقد اشتهر بشجاعته وإقدامه مرارًا عديدةً. وكان صديقًا مخلصًا لسليمان، واتّفق معه ضدّ أدونيّا. وبعد ما قتل يوآب أخذ محلّه في قيادة الجيش. (المراجع)

لها: لماذا نزلت من عربتك؟ فأجابته وقالت له: ألست أنت الملك سليمان؟ فأجابها وقال لها: لست أنا الملك سليمان بل أحّد خدّامه الواقفين أمامه. ففي الحال التفتت خلفها ونطقت بمثلٍ للأُمراء (وهو): {إذا لم يظهر أمامكم الأسد فقد رأيت ذريّته، فإذا لم تروا الملك سليمان فقد شاهدتم جمال شخصٍ واقفٍ أمامه}. فأتى بها بنايا بن يهوياداع أمام الملك، ولما بلغ الملك أنّها قد أتت أمامه قام وذهب وجلس في بيتٍ بلوريٍّ. ولما رأت ملكة سبأ أنّ الملك جالسٌ في بيتٍ بلوريٍّ توهّمت في قلبها قائلةً: أنّ الملك جالسٌ في الماء. فرفعت ثوبها لتعبر فرأى أنّ لها شعراً على السّاقين، فأجاب الملك قائلاً لها: إنّ جمالك هو جمال النّساء، وشعرك هو شعر الرّجل. فالشّعر هو حلية الرّجل، ولكنّه يعيب الامرأة. فأجابت ملكة سبأ قائلةً: يا مولاي الملك! سأنطق لك بثلاثة أمثالٍ فإذا فسّرتها لي فأعرف أنّك حكيمٌ وإلّا كنت كسائر النّاس... (ففسّر الملك سليمان لها الثّلاثة أمثالٍ). فقالت: يتبارك الرّب إلهك الذي سرّ بك وأجلسك على عرش المملكة لتجري قضاء وعدلاً. وأعطت للملك ذهباً وفضّةً، وأعطاها الملك كلّ ما اشتهت}.

فترى في هذه القصّة اليهوديّة أنّه ذكر فيها بعض الأمثال التي طلبت ملكة سبأ من سليمان حلّها. ومع إنّه لم يرد لها ذكرٌ في القرآن إلّا أنّها ذُكرت في الأحاديث. وبما أنّ القرآن لم يستوفِ صفة ساقي الملكة وجب استيفاء تكملتها من الأحاديث، وقد رأينا في «عرائس

المجالس»، ضالّتنا المنشودة، فقد ذُكر هناك أنّه[1]:

«لمّا أرادت ملكة سبأ الدّخول إلى قصر سليمان، وتوهّمت أنّ البلّور ماءٌ، حينئذٍ كشفت عن ساقيها لتخوضه إلى سليمان. فنظر سليمان (ع) فإذا هي أحسن النّاس ساقاً وقدماً، إلّا أنّها كانت شعراء السّاقين. فلمّا رأى سليمان ذلك صرف بصره عنها ونادها إنّه صرحٌ ممردٌ من قوارير».

والآن يناسب أن نتحرّى ونتروّى فيما إذا كانت قصّة ملكة سبأ (وفي العبرية شبا) لها أساسٌ حقيقيٌّ أو لا أصل لها مطلقاً. فإذا نظرنا إلى الكتاب المقدّس نجد أنّ لها أصلاً؛ لأنّه ورد في كتاب «الملوك الأول»، وكذلك في سفر «أخبار الأيّام» الثّاني ذكر مجيئها فقط إلى سليمان، كما ترى فيما يأتي:

{وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان لمجد الرّب فأتت لتمتحنه بتسائل. فأتت إلى أورشليم بموكبٍ عظيمٍ جدّاً بجمالٍ، حاملةً أطياباً وذهباً كثيراً جدّاً وحجارةً كريمةً، وأتت إلى سليمان، وكلّمته بكلّ ما كان بقلبها. فأخبرها سليمان بكلّ كلامها. لم يكن أمراً مخفيّاً عن الملك لم يخبرها به. فلمّا رأت ملكة سبأ كلّ حكمة سليمان، والبيت الذي بناه، وطعام مائدته، ومجلس عبيده، وموقف خدّامه وملابسهم، وسقاته، ومحرقاته التي كان يصعدها في بيت الرّب، لم يبق فيها روحٌ بعد فقالت للملك: صحيحاً كان الخبر الذي سمعته في أرضي عن

(1) ص ٤٣٨.

أمورك وعن حكمتك ولم أصدّق الأخبار حتّى جئت وأبصرت عيناي، فهوذا النّصف لم أُخبر به. زدت حكمةً وصلاحاً على الخبر الذي سمعته. طوبى لرجالك! وطوبى لعبيدك! هؤلاء الواقفين أمامك دائماً، السّامعين حكمتك. ليكن مباركاً الرّب إلهك الذي سرّ بك وجعلك على كرسي إسرائيل لأنّ الرّب أحبّ إسرائيل إلى الأبد. جعلك ملكاً لتجري حكماً وبرّاً. وأعطت الملك مئة وعشرين وزنة ذهب، وأطياباً كثيرةً جدّاً، وحجارةً كريمةً لم يأت بعد مثل ذلك الطّيب في الكثرة الذي أعطته ملكة سبأ للملك سليمان}[1].

فهذا هو أصل هذه القصّة، وما زاد على ذلك فهو زياداتٌ وهميّةٌ وتفاصيل خرافيّةٌ، كما قرّر ذلك علماء اليهود أنفسهم. نعم وُجِد، أيضاً، في السّفرين المذكورين وهما: سفر الملوك، وأخبار الأيّام، شيءٌ عن عرش سليمان الرّفيع، ولكن لم يرد شيءٌ عن نقله وحمله. وما ورد في القرآن بخصوص حكم سليمان على الجنّ والعفاريت وغيره يطابق غاية المطابقة لما ورد في التّرجوم المذكور سابقاً. ولكن إذا بحثنا عن أصل هذه الرّواية نجد منشأها الوهم أيضاً. فقد قال علماء اليهود أنّ هذا المفسّر بني أوهامه على ما اقترفه من الخطأ في ترجمة كلمتين عبريّتين هما: (شداه وشدوت)، في (سفر الجامعة ٢،

(١) سفر الملوك الأوّل، الاصحاح، ١٠، الآيات ١-١٠؛ الأيّام الثّاني، الاصحاح ٩، الآيات ١-٩.

الآية ٨)[1]، ومعناهما (سيّد) و(سديات)؛ لأنّه لما كان يندر وجود هاتين اللّفظتين في العبريّة خلط هذا المفسّر الجاهل بينهما لعدم معرفته بمعناهما الصّحيح فاشتبهتا عليه بكلمتين شبّههما وفسّرهما بالجنّ. وكان له إلمامٌ بالكلمتين الدّالتين على الجنّ. وكلّ من تحرّى قصّة ملكة سبأ التي ترجمناها من كتاب التّرجوم يظهر له بلا شكٍّ أنّ هذه الخرافة تشبه الحكايات الواردة في كتاب ألف ليلةٍ وليلةٍ شبهاً كثيراً، ولكن لما لم يكن محمّدٌ عارفاً بذلك، وقد سمع هذه الرّواية من اليهود، توهّم أنّهم أخذوها عن التّوراة وتلوها عليه فأوردها في القرآن.

(١) هو أحد أسفار التّناخ والعهد القديم. ويأخذ الكتاب اسمه من الاسم اليوناني ekklesiastes، وهي ترجمةٌ للعنوان الذي يشير به الشّخص المحوري إلى نفسه: Kohelet (كوهيلت)، والذي يعني «الشّخص الذي يعقد اجتماعًا أو يخاطب التّجمّع». ووفقًا للتّقاليد الحاخاميّة،كتب سفر الجامعة سليمان (٩٣١ ق. م. تقريبا)، في سن الشّيخوخة. لكن ثمّة رأيٌ بديلٌ أنّ «حزقيا وزملاؤه كتبوا إشعياء، والأمثال، ونشيد الأناشيد، والجامعة»، لكنّه، على الأرجح، يعنّي أنّه قد تمّ تحرير الكتاب من قبل حزقيا. ولكن العلماء النّاقدين رفضوا منذ فترةٍ طويلةٍ فكرة تأليفه ما قبل الأسر البابلي. ويشير وجود كلماتٍ ذات أصولٍ فارسيّةٍ وآراميّةٍ إلى تاريخ لا يتجاوز ٤٥٠ عامًا ق. م.، في حين أنّ آخر تاريخ ممكنٍ لتكوينه هو سنة ١٨٠ ق. م.، وهو العام الذي يقتبس الكاتب اليهودي «بن سيرا» منه. ويدور الخلاف حول ما إذا كان الجامعة ينتمي إلى العصور الفارسيّة أو الهلنستيّة، ويدور النّقاش حول درجة الهلينة (تأثير الثّقافة والفكر اليوناني) الموجودة في الكتاب. ويرى العلماء الذين يقترحون تاريخاً فارسيّاً (حوالي ٤٥٠-٣٣٠ ق. م.) أنّ هناك نقصًا تامًا في التّأثير اليوناني؛ في حين يجادل أولئك الذين يدافعون عن التّاريخ الهلنستي (حوالي ٣٣٠-١٨٠ ق. م.) بأنّه يُظهر أدلةً داخليّةً على الفكر والوضع الاجتماعي اليوناني. (المراجع)

ومع أنّ كثيراً من قصص القرآن مستعارةٌ من الخرافات اليهوديّة نكتفي بسرد قصّةٍ أخرى مثل هذه قبل أن ننتقل إلى الكلام على ما هو أهمّ من ذلك. وهي حكاية هاروت وماروت. وها نحن نوردها أوّلاً من القرآن والأحاديث، ثمّ ننقل ما ورد منها في الكتب اليهوديّة ونقارنها بما ورد في القرآن والأحاديث.

(٤) قصّة هاروت وماروت: ورد في القرآن ما نصّه[1]:

﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾

وورد في «عرائس المجالس»، في تفسير هذه الآية ما نصّه[2]:

«قال المفسّرون: إنّ الملائكة لما رأوا ما يصعد إلى السّماء من أعمال بني آدم الخبيثة (وذلك في زمن إدريس النّبي ع)، عيّروهم بذلك، وأنكروا عليهم، وقالوا لله: إنّ هؤلاء الذين جعلتهم خلفاء في الأرض واخترتهم يعصونك. فقال تعالى: لو أنزلتكم إلى الأرض وركبت فيكم ما ركبت فيهم لفعلتم مثل ما فعلوا. قالوا: سبحانك ربّنا ما كان ينبغي لنا أن نعصيك. قال الله تعالى: اختاروا ملكين من خياركم أُهبطهما إلى الأرض. فاختاروا هاروت وماروت، وكانا

(١) سورة البقرة، الآية ١٠٢.

(٢) ص ٤٤٦.

من أصلح الملائكة وأعبدهم. وقال الكلبي: قال الله تعالى: اختاروا ثلاثةً منكم فاختاروا عزّا، وهو هاروت، وعزابيا وهو ماروت، وعزرائيل. وإنّما غُيّر اسمهما لما اقترفا من الذّنب كما غيّر الله اسم ابليس، وكان اسمه عزرائيل. فركّب الله تعالى فيهم الشّهوة التي ركّبها في بني آدم، وأهبطهم إلى الأرض، وأمرهم أن يحكموا بين النّاس بالحقّ، ونهاهم عن الشّرك والقتل بغير الحقّ والزّنا وشرب الخمر. فأمّا عزرائيل فإنّه لما وقعت الشّهوة في قلبه استقال ربه، وسأله أن يرفعه إلى السّماء، فأقاله ورفعه وسجد أربعين سنةً، ثمّ رفع رأسه بعد ذلك مطأطأً رأسه حياءً من الله تعالى. وأمّا الآخران فإنّهما ثبتا على ذلك يقضيان بين النّاس يومهما، فإذا أمسيا ذكرا اسم الله تعالى الأعظم، وصعدا إلى السّماء. قال قتادة: فما مرّ عليهما شهرٌ حتّى افتتنا؛ وذلك أنّه اختصم إليهما ذات يوم الزّهرة، وكانت من أجمل النّساء. قال عليٌّ (رض): كانت من أهل فارس، وكانت ملكةً في بلدها، فلما رأياها أخذت بقلوبهما، فراوداها عن نفسها، فأبت وانصرفت، ثمّ عادت في اليوم الثّاني، ففعلا مثل ذلك، فقالت: لا إلّا أن تعبدا ما أعبد، وتُصلّيا لهذا الصّنم، وتقتلا النّفس، وتشربا الخمر. فقالا: لا سبيل إلّا هذه الأشياء! فإنّ الله قد نهانا عنها. فانصرفت ثمّ عادت في اليوم الثّالث، ومعها قدحٌ من خمرٍ، وفي نفسها من الميل إليهما ما فيها، فراوداها عن نفسها، فأبت وعرضت عليهما ما قالت بالأمس: الصّلاة لغير الله أمرٌ عظيمٌ، وقتل النّفس عظيمٌ، وأهون الثّلاثة شرب الخمر. فشربا الخمر فانتشيا، ووقعا بالمرأة وزنيا بها،

فرآهما إنسانٌ فقتلاه. قال الرّبيع بن أنس: وسجدا للصّنم، فمسخ الله الزّهرة كوكباً. وقال علي (رض) والسّعدي والكلبي: إنّها قالت: لا تدركاني حتّى تُعلّماني الذي تصعدان به إلى السّماء. فقالا: نصعد باسم الله الأكبر. فقالت: فما أنتما بمدركي حتّى تعلّمانيه. قال أحدهما لصاحبه: علّمها. فقال: إنّي أخاف الله. فقال الآخر: فأين رحمة الله تعالى. فعلّماها ذلك، فتكلّمت به وصعدت إلى السّماء، فمسخها الله كوكباً».

فإذا أخذنا في البحث والتّحرّي عن أصل هذه القصّة، وجدناها في موضعين أو في ثلاثة مواضع من تلمود اليهود، ولا سيّما في (مدراش يلكوت)[1]، وهذا نصّ ترجمتها:

{استفهم تلاميذ يوسف الرّباني من أُستاذهم عن عزائيل، فقال لهم: لما قام جيل الطّوفان (يعني القوم الذين كانوا موجودين في عصر طوفان نوح)، ودانوا بالعبادة الباطلة، سخط عليهم القدّوس (تبارك اسمه). فقام ملكان (شمحزاي) و(عزائيل)، وقالا بحضرته: يا ربّ العالمين! ألم نقل بحضرتك لما خلقت عالمك من هو الإنسان حتّى تذكره[2]. فقال لهما: وأمّا العالم فماذا يحصل له؟

---

(١) في الفصل الرّابع والأربعين. أو يلكوت شيموني Yalkut Shimoni: وهو تجميعٌ لكتاباتٍ على أسفار الكتاب المقدّس العبري. بمثابة مجموعةٍ من التّفسيرات القديمة لمقاطع من الكتاب المقدّس، مرتّبةً وفقًا لتسلسل تلك الأجزاء من الكتاب المقدّس. (المراجع)

(٢) المزامير، الاصحاح ٨، الآية ٤.

فقالا له: يا ربّ العالمين! نتسلّط عليه. فقال لهما: إنّه مكشوفٌ معلومٌ عندي بأنّه إذا تسلّطتم على الأرض تتسلّط عليكم الشّهوة الرّدية، وتكونون أكثر من بني آدم عناداً. فقالا له: إئذن لنا أن نسكن مع الخلائق، وترى كيف نقدّس اسمك. فقال لهما: اهبطا واسكنا معهم. فنظر (شمحزاي) صبيّةً، واسمها اسطهر (استير)، فشخص وقال لها: أطيعيني. فقالت له: لا أصغي لك مالم تعلّمني الاسم المختصّ (بالله). الذي في ساعة ذكرك إيّاه أصعد إلى الفلك. فعلّمها إيّاه فذكرته وصعدت إلى الفلك، أيضاً، ولم تدنّس عرضها. قال القدّوس (تبارك اسمه): بما أنّها نزّهت نفسها عن التّجاوز فاذهبوا واجعلوها بين السّبعة الكواكب، لتكونوا طاهرين من جهتها إلى الأبد. فوُضِعت بين الثّريّا. وتنحبسا مع بنات آدم اللّواتي كنّ جميلاتٍ، ولم يقدرا على قمع شهوتهنّ، فقاما واتّخذا زوجاتٍ، وولدا ولدين: (هوآء، وهيئآء). فاستعان عزائيل بالحلى المتنوّعة، وأنواع زخرفات النّساء المبهرجة على اغواء بني آدم واغرائهم على اقتراف التّجاوز}.

وممّا يجب التّنبيه إليه أنّ عزرائيل الذي تقدّم ذكره في الأحاديث المذكورة آنفاً هو ذات عزائيل المذكور في التّلمود. ومن قارن هاتين القصّتين احداهما بالأخرى يرى أنّهما قصّةٌ واحدةٌ. وغاية الأمر أنّ الحديث قال أنّ الملاكين اللّذين أخطأا هما: هاروت وماروت. مع اعترافه بأنّهما كانا يسمّيان بالأصل باسمين آخرين. أمّا في (مدراش يلكوت) فتسمّيا بشمحزاي وعزائيل.

ولكن إذا سأل سائلٌ وقال: من أين استُعيرَ الاسمُ الوارد في القرآن والأحاديث؟ قلنا: إنّنا نرى بعد التّحرّي أنّ هاروت وماروت هما اسما إلهين قديمين كاذبين كان يعبدهما الأرمن، في الأزمنة القديمة؛ لأنّ مؤرِّخي الأرمن رووا في تواريخهم أنّ الأرمن كانوا يعبدون إلهين اسمهما باللّغة الأرمنيّة: (هوروت وموروت)[1]. وهاك نصّ عبارة أحَد مؤرِّخي الأرمن قال[2]:

{هوروت وموروت كانا، بلا شكٍّ، من أعوان الآلهة (أسباندارميت)، وهما بطلا جبل (مازيس) و(آمينابيغ)، أيضاً. وربّما كانت توجد آلهةٌ أخرى لا علم لنا بها إلى الآن. وكانوا من أعظم المساعدين على تقوية الأرض، وجعلها مخصبةً كثيرة الكسب}

ولإيضاح هذه الجملة نقول أنّ (اسباندارميت) كانت الآلهة التي يعبدها الفرس، أيضاً، (الزّردشتيّين) كانوا يعتقدون أنّها روح الأرض من المحصولات الطّيّبة والثّمار اليانعة. وكان سكّان أرمنية يسمّون إله الكروم باسم (آمينابيغ). وذهبوا إلى أنّ هوروت وموروت هما الإلهان المساعدان لآلهة الأرض؛ إذ توهّموا أنّهما

(١) زعم بعض المحققين أنّ هاروت وماروت لفظان فارسيّان قديمان. فـ«هوروت» تعني «الخصب»، و«موروت» تعني «عديم الموت». وذهب آخرون إلى أنّهما من أصولٍ هنديّةٍ، إذ وردت في كتاب «آوِستا» ألفاظٌ مثل: «هرودات» ويعني «شهر خرداد»، وكذلك «أمردات» بمعنى عديم الموت، وهو نفسه اسم «شهر مرداد». وفي معجم «دهخدا» تفسيرٌ للفظين شبيهٌ بما سبق. (المراجع)

(٢) لم أقع على معرفة من هو هذا المؤرِّخ الأرمني. (المراجع)

الرّوحان المتسلّطان على الرّياح، وهما اللّذان يحملان ويسخّران الرّياح التي كانت تجمع السّحاب الذي يأتي بالمطر ليصدم قمّة جبل أراراط[1] الشّامخة، فتهطل الأمطار عليه، وحينئذٍ تقوى الأرض على إنبات النّباتات، وإخراج المحصولات، فيتّضح من هذا أنّ هوروت وموروت كانا، في الأصل، روحين للرّياح، وممّا يؤيّد ذلك أنّ كثيراً ما ذُكر في كتب الهنود القديمة كلمة (المرتون)، فإنّ قدماء الهند كانوا يعتقدون أنّهم آلهة الزّوابع القاصفة والرّياح العاصفة.

وبناءً على ذلك، انتقلت كلمة (مرت) إلى اللّغة الأرمنيّة، وصارت (موروت). وتوهّم الأرمن أنّ لفظة موروت هي مشتقّةٌ من لفظة (مور) باللّغة الأرمنيّة، وهي مضافٌ إليه لكلمةٍ معناها (أمٌّ)، ثمّ وضعوا لفظة (هور) في مقابلة لفظة (مور) لحصول المناسبة فإنّ معنى (هور) هي بلغتهم مضافٌ إليه لكلمةٍ معناها (أبٌ). وبهذه الكيفيّة صاغوا كلمتي هوروت وموروت. وهذا هو أصل وضعهما ومنشئهما. وعليه فيكون المراد من قوله أنّ هذين الملكين

(١) أو أرارات: هو أعلى قمّةٍ جبليّةٍ (٥١٦٥ م) بتركيا. وعبارةٌ عن بركانٍ نائم، تغطّيه الثّلوج، يقع في شمال شرق الأناضول بمحافظة أغري، على بعد ١٦ كلم من الحدود مع إيران، و٣٢ كلم من الحدود مع أرمينيا. يرتبط أرارات بعدّة دياناتٍ؛ حيث طبقاً لسفر التكوين، فقد استقرّت سفينة نوح على قمّته، كما يحظى بمكانةٍ رفيعةٍ لدى الأرمن، حيث يرتبط بالقوميّة الأرمنيّة، منذ عصور ما قبل الميلاد. ويعدّ الرّمز الوطني الرّئيس لأرمينيا. وقد اعتبره الأرمن جبلاً مقدّساً. وظهر بشكلٍ بارزٍ في الأدب والفنّ الأرمني، وأصبح أيقونةً لفكرة أرمينية العظمى. جنباً إلى جنبٍ مع سفينة نوحٍ، يصوّر على شعار أرمينيا. (المراجع)

هبطا من السّماء، ومالا إلى التّناسل أنّ هذين الرّوحين اللّذين في قبضتهما الرّياح ساعدا الأرض على إنبات المحصولات وإخراج الثّمار بتسخيرهما الرّياح التي كانت تسوق سُحب الأمطار.

أما (أسطهر) وهو اسم الصّبيّة الواردة في القصّة اليهوديّة، وهي ذات (عشتاروت)[1] إحدى الآلهة الكاذبة التي كان يعبدها عبدة الأصنام القدماء فهي الزّهرة، أي الكوكب السّيّار التي ورد اسمها في الأحاديث التي ذكرناها آنفاً. وكان يعتقد أهل بابل، في قديم الزّمان، أنّ هذا الكوكب السّيّار آلهةٌ، فكان جميع سكّان بابل وسوريّة قاطبةً يعبدونها؛ لأنّهم زعموا أنّ لها الرّئاسة على التّوليد وانتاج الذّريّة، وتوهّموا، أيضاً، أنّها كانت تنشرح وتسرّ من كلّ أنواع الفسق والفجور. ووجدت لفظة (أشتر)، وهو اسمها منقوشاً في قوالب آجرٍ قديمةٍ، اكتشفت حديثاً في البلاد الواقعة بين النّهرين، ووجدت كتابة منقوشة بالأحرف الآشوريّة الأثريّة القديمة على قوالب اللّبن المشوري، فإنّ بعض هذه القوالب كانت عند القدماء بمنزلة كتبهم، ووجد فيها رواياتٌ كثيرةٌ عن (أشتر)، أي الزّهرة. وهاك ترجمة قصّةٍ

(١) عشتروت (Astarte): آلهة الخصب لدى الفينيقيّين والكنعانيّين. ويطلق عليها البابليون عشتار، وتانيت لدى القرطاجيّين، وأفروديت وهيرا وسيبل لدى الإغريق. ويعتقد أنّه من عشتار آلهة الحبّ والحرب الأكاديّة، اشتقّت عشتروت (عشتارة أو عشتاره) آلهة الحبّ والجمال، وعشيرة (أشيرا، أثيرة، إيلات) الإلهة الأم، سيدة الأموريّين والكنعانيّين، والتي منها اشتقّ عشتر أو عشتار إله الرّي، ومن عشتروت كذلك اشتقّ عتر إلهة الآراميّين، وزوجة حدد، التي وجد لها آثارٌ في البتراء في الأردن. (المراجع)

منهـا، تُرجمت من اللّغة البابليّة القديمة، فأفادتنا عن شـخصٍ وهيمٍ لا وجـود لـه إلّا في الخيـال. والوهم اسـمه (جلجميش)[1] عشـقته (اشتر)، ولكنه لم يمل إليها. وهاك نصّ ترجمة القصّة وهي:

{لبس جلجميش تاجه، ولما أرادت الآلهة أشتر أن تستميله إليها قالـت له: (قبّلني يـا جلجميش! ويـا ليتك تكون عريـسي! أعطني ثمـرك عطيّةً، وليتك كنت بعلي، وأنا زوجةٌ لك، فكنت أركب عربةً مـن لازوردٍ وذهـبٍ، وعجلاتها من ذهبٍ، وعريشـها من الألماس. وكنّـا نقطـر البغـال العظيمـة إليهـا يومـاً فأدخـل إلى بيتنـا مع عطر السّرور). غـير إنّ جلجاميش اسـتهزأ بأشـتر وأنّبهـا، ولم يرض أن يتّخذها زوجةً له}

ثـمّ ذُكـر في هذه القوالب ما بقي من القصّـة، ونصّها. فاغتاظت الألهة أشـتر وصعدت إلى السّـموات، ومثلت الآلهة أشتر أمام الإله (آنـو)، وهو إله السّـماء الذي كان يعبده البابليّـون، وكانوا يعتقدون أنّ أشتر هي ابنته.

فمـن الواضح أنّـه ورد في هذه القصّة القديمة المتداولة بين عبدة

(١) جلجامـش أو كلكامش، وكانت بالأصل بلكامش: ملكٌ تاريخي لدولة الوركاء السّومريّة، وبطلٌ مهمٌّ في ميثولوجيا بلاد الرّافدين القديمة، وبطل ملحمة جلجامش، وهـي قصيدةٌ ملحميّةٌ، كُتبت بالأكديّة، خلال أواخـر الألفيّة الثّانية ق. م.، فيُحتمل أنّـه حكـم بـين ٢٨٠٠ و٢٥٠٠ ق. م.، وألّه بعد موته. وأصبح جلجامش شـخصيّةً هامّةً في الأساطير السّومريّة خلال وجود سلالة أور الثّالثة (٢١١٢-٢٠٠٤ ق. م.). ورُويت حكاياتٌ عن مآثره البطوليّة في خمس قصائد سومريّةٍ ناجيةٍ. (المراجع)

الأصنام البابليّين ذكرٌ لصعود أشتر، أي الزّهرة، إلى السّماء، كما ورد ذكر هذه الحادثة، أي صعودها في الأحاديث الإسلاميّة، وفي التّفسير اليهودي الذي استشهدنا بعبارته. وليس ذلك فقط بل ورد في الكتاب الهندي المكتوب بلغة سانسكريت[1] القديمة، واسمه (المهابهارته)[2]، ما يُشبه هذه الخرافة؛ إذ قيل فيه أنّ روحين اسمهما (سند) و(أبسند) نالا، في قديم الزّمان، من الآلهة (برهما) فضلاً واستحاقاً بواسطة تقشّفهما وزهدهما. فتسلّطا على السّماء والأرض واستوليا عليها استيلاءً. فداخل هذا الإله الجزع لئلّا تخرج جميع أملاكه من يده مالم يقتل خصميه اللّذين شاطراه الملك. وللتّوصّل إلى اهلاكهما خلف حوريّةً اسمها (تلوتما) ووهبها لهما. ولما شاهداها

(١) السّنسكريتيّة: لغةٌ قديمةٌ في الهند. وهي لغةٌ طقوسيّةٌ للهندوسيّة، والبوذيّة، والجاتيّة. ولها موقعٌ في الهند، وجنوب شرق آسيا، مشابهةٌ للغة اللّاتينيّة واليونانيّة في أوروبا، في القرون الوسطى. وقد كانت السّنسكريتيّة، وما زالت، في الهند في المعابد، فيُسمح فقط لكهنة البراهما بقراءة النّصوص السّنسكريتيّة، أمّا في الماضي فتواجدت في الأدب الهنديّ: أدب لغتي البالي والبراكريت، الأدب الدّرافيدي الباكر، الأدب البنغالي. وغيره من الآداب والشّعر الدّيني المستوحى. (المراجع)

(٢) المهابهارتا: واحدةٌ من الملحمتين الكُبريين المكتوبتين بالسّنسكريتيّة، في الهند القديمة، -الأخرى رامايانا-. وهي جزءٌ من الإيتيهاسا الهندوسيّة- التّاريخ الهندوسي-. وتُشكّل جزءاً هاماً من الميثولوجيا الهندوسيّة. وتعدّ أطول قصيدةٍ ملحميّةٍ في العالم؛ باحتوائها على ٧٤ ألف سطرٍ شعريٍّ، وقطع نثريّةٍ طويلةٍ، ووجود مليون وثمانمائة ألف كلمةٍ فيها. تقريباً، يبلغ حجمها عشرة أضعاف حجم الإلياذة والأوديسّة مجتمعتين، وتقريباً يبلغ حجمها خمسة أضعاف الكوميديا الإلهيّة، وأربعة أضعاف الرّامايانا. ويُدعى أنّه لا تُوجد ملحمةٌ أطول منها باستثناء الملحمة التّبتيّة، ملحمة الملك جيسار، والملحمة القرغيزيّة: ملحمة ماناس. (المراجع)

هذان الأخان أخذها (سند) من يدها اليمنى، وأخذها (أبسند) من يدها اليسرى، ورغب كلٌّ منهما أن يتّخذها قرينةً له. فنشأ عن ذلك بين الأخين العداوة البغضاء، واستفحل الشرُّ، وتفاقم الضّرّ، حتّى اقتتلا فقُتلا، فبارك برهما الحوريّةَ (تلوتما)، وأثنى عليها ثناءً جميلاً، وقال لها: ستحيطين بجميع الدّنيا التي تشرق عليها الشّمس، ولا يمكن لأحدٍ أن يفتح عينيه فيك لعظم بهائك، وسنا أشعّة زينتك، وتفوّق جمالك الرّائع الباهر». كما هو مذكورٌ في كتاب (المهابارته) في باب رواية (سند وبسند وياكهيانم)، أي (قصّة سند وابسند).

فترى في هذه الخرافة أنّه ورد، أيضاً، فيها ذكرٌ للصّعود إلى الفلك، والحوريّة التي كان جمالها رائعاً وباهراً، تختلف اختلافاً زهيداً جدّاً عن الزّهرة وأشتر. وغاية الأمر أنّ الزّهرة وأشتر كانت حسب الرّواية اليهوديّة والأحاديث الإسلاميّة على الأرض قبل صعودها إلى الفلك. ولكنّها حسب الرّواية الهنديّة والبابليّة كان لها صلةٌ بالسّماء من أوّل الأمر، لاعتقادهم أنّ أشتر كانت آلهةً. وكذلك (تلوتما) الحوريّة. وهنالك اختلافٌ آخر وهو أنّ مقتضى الرّواية الهنديّة هو أنّ الرّوحين اللّذين عشقاها كانا أوّلاً على الأرض، ولكن مقتضى الرّواية اليهوديّة والإسلاميّة أنّهما هبطا من الفلك. وذهب اليهود إلى أنّ هذين الأخين تناسلا من آلهةٍ اسمها (دتي)، فيكون أصلهما، حسب الرّواية الهنديّة، أيضاً، من السّماء. والحاصل أنّ جميع هذه القصص هي مشابهةٌ بعضها لبعضٍ من وجوهٍ كثيرةٍ، وكانت سائدةً بين الوثنيين عبدة الأصنام في الأزمنة القديمة.

وقد ذهب المحقّقون إلى أنّه لما كان اليهود يميلون إلى الخرافات المصنّعة والحكايات الملفّقة أخذوا من عبدة الأصنام في بابل قصّة (أشتر)، ولما نسوا أصلها اعتقدوا، في الأزمنة الحديثة، أنّها حكايةٌ صحيحةٌ، فدوّنوها بالتّلمود، بالصّورة التي وجدناها عليها، ولما سمع المسلمون هذه الحكاية من اليهود لم يعرفوا أنّها خرافةٌ باطلةٌ، دوّنوها بالاختصار بالقرآن، كأنّها حكايةٌ صحيحةٌ وواردةٌ مفصّلةٌ بالأحاديث.

وإذا سأل سائلٌ وقال: لماذا قبلها اليهود؟ قلنا: أنّ سبب قبولهم إيّاها هو خطأهم في فهم معنى كلمةٍ في سفر التّكوين، فكلّ ما كُتب في التّلمود عن معاشرة الملائكة للنّساء من بني آدم ناشئٌ عن تفسير الفقرة الآتية في سفر التّكوين وهي:

{وحدث لما ابتدأ النّاس يكثرون على الأرض، وولد لهم بناتٌ أنّ أبناء الله رأوا أنّ بنات النّاس أنهنّ حسناتٌ، فاتّخذوا لأنفسهم نساءً من كلٍّ ما اختاروا.... كان في الأرض (النّفيليم)[1] في تلك الأيام، وبعد ذلك، أيضاً، إذ دخلوا بنو الله على بنات النّاس، وولد لهم أولاد، هؤلاء هم الجبّابرة الّلذين منذ الدّهر ذو اسمٍ}[2].

(١) بحسب الكتاب المقدّس، فالنّفيلم: هم ذريّةٌ من العمالقة أنجبها ملائكةٌ أشرار، عندما تزوّجوا نساءً من البشر، أيّام نوحٍ. وهم عمالقةٌ عنفاء امتلكوا قدرةً تفوق الطّبيعة البشريّة. (المراجع)

(٢) التّكوين، الاصحاح ٦، الآيات ١، ٢، ٤.

قولـه أبنـاء الله هم الأتقياء الصّالحون الذين تناسـلوا من شـيث بـن آدم الثّالـث، والأرجـح أنّ أصـل ومعنـى كلمة نُفيـل، وجمعها (نفيليـم) في العبريّة، هو مثل قولنا في اللّغـة العربيّة (نبيل)، وجمعها نبـلاء. وذهـب البعـض إلى أنّهـا تدلّ عـلى العُتـاة الذيـن كان دأبهم التّعـدّي عـلى الضّعـاف وتجريعهـم غصـص الجَور. وتَرجـم كتاب (ترجوم أونتلوس)[1] لفظة (نفيليم) الواردة في الآية المتقدّمة بكلمةٍ كلديّـةٍ معناها بالعربيّة: الجَبابرة. وأنّها مشـتقّةٌ من أصل هذه الكلمة العربيّة، ولا شـكّ أنّ هـذا هو صوابٌ. ولكن لما كان أحَد مفسّري قدمـاء اليهود، واسـمه يوناثان بن عزئيل، يجهل معنـى كلمة نيفيلم العبريّة النّادرة الاسـتعمال، توهّم أنّ معناها الملائكة السّاقطين؛ فلذا فسّر الآية الرّابعة الواردة في الآية المذكورة من سفر التّكوين هكذا:

{شمحزاي وعزئيل هبطا من السّماء، وكانا على الأرض في تلك الأيّام}

(١) أو أنجلـوس: دوّن في أراميّـة أدبيّـة. ونُسـب التّقليـد إلى هـذا الترّجـوم المهتـم بالحرفيّة، اسمًا قريبًا من «أكيلا» الذي هو صاحب ترجمةٍ للتّوراة أخذت بطريقة الكزّ والترّسـيم. ويعـود التّدويـن الأخير لهذا الترّجـوم إلى محيطٍ بابليٍّ، في القـرن الرّابع أو الخامس. ويبدو أنّ الكاتب قد أعاد النّظر في نسـخةٍ فلسطينيّةٍ ترجع إلى القرن الثّاني، وكتبها من جديد. لهذا سُمّي هذا التّرجوم بـ«التّرجوم البابلي»، مع أنّ الأساس الذي فيه يعود إلى فلسـطين. وفي العالم اليهودي الذي بعد التّلمود، صار ترجوم أونكلوس التّرجوم الرّسمي، وحلّ محلّ سائر النّسخ. ويبدو، في مجموعه، ترجمةً حرفيّةً أكثر من أيّ ترجوم آخر، وإن كان كثيرًا ما يكشف عن آراء معيّنةٍ، كتفسيره المسياني لما جاء في التّكويـن (٤٩: ١٠)، والعـدد (٢٤: ١٧). وقد وصل إلينا عددٌ محترمٌ من نسـخ هذا التّرجوم. (المراجع)

فمن هنا نرى أنّ منشأ هذه الخرافة من أوّلها إلى آخرها عن أشتر المذكورة في (مدارش يلكوت) هو الخطأ الذي اقترفه هذا الرّجل، وغيره ممّن نحا نحوه، فقبلوا إحدى خرافات عبدة الأصنام البابليّين جهلاً وتفريطاً بالحقّ، وتوهّموا أنّها تبيّن معنى آيةٍ في التّوارة التبس عليهم معناها، فلم يفهموها. ومع ذلك، فلا عذر لهم في ذلك، إذ قد رأينا أحَد علماء اليهود المفسّرين، وهو أقدم منهم عهداً وزمناً، وأرسخ منهم قدماً، فسّر هذه اللّفظة حقّ تفسيرها، وشرح معناها الحقيقي الذي التبس عليهم.

وبما أنّ اليهود جهلةٌ كانوا يميلون إلى الخرافات، وكانوا مولعين بذكر الغرائب، فلا عجب إذا وجدنا في بعض كتبهم قصّة سقوط الملائكة وخطيئتهم بهذه الكيفيّة. وكانت تزداد غرابةً من وقتٍ إلى آخر. ففي مبدأ الأمر قال اليهود أنّ ملاكين هبطا وسقطا، ولكن بعد ذلك زادوا عددهم من حينٍ إلى آخر، في الخرافات المتواترة بينهم، وفي آخر الأمر ورد في الكتاب الملفّق المنسوب كذباً وزوراً إلى النّبي أخنوخ[1]، أنّه بلغ عدد الملائكة الذين هبطوا من السّماء ٢٠٠، وأنّهم

(١) ويطلق عليه اسم «أُنس الله»، وبالعبرية: حنوخ. يظهر في كتاب الخروج بالتّوراة على أنّه ابن يارد، والد متوشلخ، والجدّ الأكبر للنّبي نوح. وتذكر التّوراة أنّه مشى مع الله ولم يعد. وذُكر في العهد الجديد ثلاث مرّاتٍ. أمّا في الإسلام فيعتبره البعض هو النّبي إدريس نفسه. وهناك بعض الكتابات التي تُنسب إليه، وتعترف بها الكنيسة الأرمنيّة، وكنيسة التّوحيد الأرثوذكسيّة الإثيوبيّة، والكنيسة المورمونيّة، إلّا أنّ الكنائس الأخرى مثل الكاثوليكيّة، والأرثوذكسيّة الشّرقيّة، والبروتستانتيّة، لا تعترف بهذه الكتب، مع أنّها تعتبره من الأقدمين الأتقياء. ويطلق على كتابه

أجمعين هبطوا لاقتراف الفسق مع النّساء. وها نحن نورد الفقرة الآتية من كتاب أخنوخ، المشار إليه، مترجمةً من اللّغة الحبشيّة؛ لأنّ الأصل اليوناني لهذا الكتاب وصل إلينا بحالةٍ مهشّمةٍ ناقصةٍ. وهاك ترجمة هذه العبارة:

{ولما رأت (أي بنات النّاس) الملائكة، وهم أبناء السّموات، افتتنوا بهنّ، وقالوا بعضهم لبعضٍ: تعالوا نتّخذ لأنفسنا زوجاتٍ من بنات النّاس، ونخلّف أولاداً لأنفسنا. فقال لهم سميازا (أي شمحزاي)، الذي هو رئيسهم... وعلّم أزازيل (أي عزازيل) بني آدم صناعة عمل السّيوف والخناجر والتّروس والدّروع؛ لصدورهم، وأراهم، وأعقابهم، ومصنوعاتهم، يعني الأساور، والحلي، واستعمال الكحل؛ لتزجيج أهداب عيونهم، واستعمل جميع أنواع الصّباغة المتنوّعة، وعملة الدّنيا (أي النّقود التي يتعامل بها الإنسان في هذه الدّنيا}[1]

وممّا يجب التّنبيه إليه أنّ مسألة تعليم الملائكة للنّاس الأمور

الشّهير سفر أخنوخ، وهو من الأسفار غير القانونيّة، ويسمّى أيضاً «نسخة أخنوخ الأثيوبيّة» أو «الحبشيّة»، ويسمّى أيضاً أخنوخ الأوّل. وهو عبارةٌ عن مجموعةٍ من الأسفار اليهوديّة، كتبت أصلاً في اللّغة الآراميّة، على وجه التّرجيح. وقد فقد الأصل الآرامي، ولكن وجدت أجزاءٌ منه في التّرجمة اليونانيّة. وكذلك توجد نسخةٌ حبشيّةٌ، ترجمت عن النّسخة اليونانيّة التي بدورها تُرجمت عن الأصل الآرامي، الذي يرجّح أنّه كُتب بين ١٦٣ و٨٠ ق. م. (المراجع)

(١) كتاب أخنوخ، الفصل ٦، الآيتان ٢، ٣؛ والفصل ٨، الآية ١.

المذكورة آنفاً قد ذكرت في سورة البقرة[1]، حيث قيل:

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾

ومراده بالملاكين المشار إليهما، هنا، هما: هاروت وماروت. غير إنّ القرآن انتحل ذكر تعليم الملاكين للنّاس أيضاً، ممّا ورد في (مدارش يلكوت)، كما رأينا ممّا تقدّم في صحيفة ٦٨. حيث ذكر أنّ عزائيل استعان بالحلى المتنوّعة وأنواع زخرفات النّساء المبهجة لاغواء بني آدم على اقتراف التّجاوز. فما قلناه عن هاروت وماروت يجوز أن يكون برهاناً كافياً يؤيّد أنّ هذه القصّة، أيضاً، هي مأخوذةٌ من كتب اليهود.

(٥) ولنتكلم الآن بالإيجاز عن بعض القصص والرّسوم التي انتحلها المسلمون من اليهود. ولو لا ضيق المقام لأوردنا من القرآن قصصاً شتّى، وكان يسهل علينا النّظر والبحث فيها وإقامة الدّليل والبرهان على إنّها إذا لم تكن مطابقةً لنصوص التّوراة فهي موافقةٌ للأوهام الباطلة التي ألّفها كتبةُ الخرافات من اليهود. مثلاً أورد القرآن في قصص يوسف، ودواد، وشاول (طالوت)، أموراً شتّى لم يرد لها ذكرٌ في العهد القديم، ولكنّها وردت في خرافات اليهود.

(١) الآية ١٠٢.

ومن هذا القبيل ما ورد في سورة الأعراف[1]:

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

وورد مثله في سورة البقرة[2]، ومعنى ذلك أنّ الله، سبحانه وتعالى، شرع في اعطاء التّوراة للإسرائيليّين، ولما رأى منهم عدم الميل والرّضى بقبولها رفع أو نتق جبل سيناء فوقهم، وأمسكه على رؤوسهم، ليوقع الرّعب والفزع في أفئدتهم.

وقد وردت، أيضاً، هذه القصّة في الكتاب اليهودي المسمّى (عبوداه زاراه)[3]، ونصّها:

{... قد سترتكم بالجَبل كغطاءٍ}

ولا لزوم للتّنبيه إلى أنّ مثل هذه الخرافة لا أثر لها في التّوراة، ولكن كان منشأ هذه القصّة وهمَ سوءِ فهمِ بعض المفسّرين من

(١) الآية ١٧١.

(٢) الآيات ٦٣، ٩٣. ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٦٣)؛ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. (المراجع)

(٣) الفصل ٢، القسم ٢. أو رسالة العبودا زارا «عبدة الأوثان» التّلموديّة البابليّة. وهي، كما يشير اسمها، تهتمّ أساساً بعبدة الأوثان، وكيف يمكن لليهوديّة الحاخاميّة التّعامل معهم. (المراجع)

اليهود، فورد في سفر الخروج[1] بأنّه لما نزل موسى من الجّبل، ورأى أنّ الإسرائيليّين كانوا يعبدون العجل الذي صنعوه، فغضب موسى، وطرح من يديه اللّوحين اللّذين كان منقوشاً فيهما العشر الوصايا، وكسرهما في أسفل الجّبل، فمن قوله تعالى (في أسفل الجّبل) يُفهم أنّ هذين اللّوحين كُسرا عند سفح الجّبل، وليس تحت الجّبل، ولكن لما كان اليهود الذين في الأعصر المتأخّرة مولعين بالغرائب والعجائب لووا معنى الكلمات وصرفوها عن حقيقتها وابتدعوا الخرافة المتقدّمة لتفسير هذه الكلمات.

ومع ذلك فإنّ هذه القصّة تشبه بنوعٍ عجيبٍ قصّةً هنديّةً وردت في مجلّةٍ سانسكريتيّةٍ، بخصوص أحّد آلهتهم الكاذبة، ويسمى (كرشنة)[2]. وبيان ذلك أنهّم رووا أنّ هذا الإله، في ذات يومٍ، لما

(١) الاصحاح ٣٢، الآية ١٩. وسفر الخروج أو كتاب الخروج: هو أحّد الأسفار المقدّسة لدى الدّيانة اليهوديّة والمسيحيّة. يصنّف كثاني أسفار العهد القديم التّناخ. يتحدّث عن كيفيّة نجاة بني إسرائيل من بطش فرعون مصر واستعباده إيّاهم. ونُسب السِّفر في التّقاليد اليهوديّة والمسيحيّة إلى موسى، ويُدعى إلى جانب أوّل أربعة أسفارٍ في العهد القديم باسم أسفار موسى الخمسة أو التّوراة أو الشّريعة. بينما يرى الباحثون الحديثون أنّ السِّفر كان في البداية نتاج فترة النّفي البابلي (القرن ٦ ق. م.)، وتمّ تكوينه على أساس التّقاليد المكتوبة والشّفهيّة السّابقة، مع حدوث المراجعات النّهائيّة في الفترة الفارسيّة ما بعد النّفي (القرن ٥ ق. م.). (المراجع)

(٢) كريشنا: يعني الأسود أو المظلم، وهو أحّد آلهة الدّيانة الهندوسيّة الكبار، تعبده طائفةٌ من الهندوسيّة. يُرسم عادةً على شكل ولدٍ، راعي بقرٍ، يعزف النّاي، أو كأميرٍ يقدّم توجيهاتٍ فلسفيّةٍ. ويُعبد في الهندوسيّة على أنّه أفاتار أي تجسّد فيشنو الذي يعتبر الإله الأعلى في الفيشنويّة، وفي طوائف أخرى هو مصدر كلّ الأفاتارت بما فيها فيشنو. وهناك قصصٌ كثيرةٌ مختلفةٌ حوله في الهندوسيّة، لكنّها تتّفق على أنّه أفتار

رغب أن يقي سكّان مدينةِ مسقطِ رأسهِ ومنبتِ غرسهِ، (وهي مدينة كوكله)، من غوائل زوبعةٍ وأمطارٍ وابلةٍ، رفع جبلاً، اسمه (كووردهنة)، من قاعدته الحجريّة، وهو أعظم كلّ الجبال، وعلّقه مدّة سبعة أيّام وسبعة ليالٍ بأطراف أصابعه فوق رؤسهم كمظلّةٍ.

ولا نعرف باليقين إذا كان اليهود قد أخذوا هذه القصّة من الهنود أم لا، ولكن من الواضح البيّن أنّ هذه القصّة الورادة في القرآن هي نفس القصّة الواردة في كتب اليهود. يوجد أيضاً في القرآن غرائب بخصوص ما حصل في البريّة، في أيّام موسى، فمن هذه الغرائب قوله أنّ العجل الذّهبي المشار إليه، وله خوارٌ، وأنّه خارَ لما أُخرج من أتون النّار فوراً، في سورة الأعراف[1]، وفي سورة طه[2]، ما نصّه:

﴿فكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ، فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ﴾

وأصل هذه القصّة موجودٌ في كتاب فرقى ربّي العازار. وهاك ترجمة أصل أقواله العبريّة وهي:

{وهذا العجل خرج خائراً فرآه الإسرائيليّين، وقال (ربّي يهوداه): أنّ سمائيل كان مختفياً في داخله، وكان يخور لغشّ إسرائيل}

لفيشنو، وحياته كمعلّم ومحارب، وقيل أنّ كريشنا كان له ١٦ ألف زوجةٍ، ومات عندما أصابه صيّادٌ بطريقِ الخطأ في قدمه، ومات بسبب السّهم المسمومة. (المراجع)

(١) الآية ١٥٢. ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾.

(٢) الآية ٨٨.

ولا شكّ أنّ محمّداً أخذ هذا النّبأ من اليهود، وهم من سوء حظّه غشّوه وخدعوه؛ لأنّهم اختلقوا هذه الخرافة من عالم أوهامهم، إذ لا أصل لها مطلقاً. وهنا، لم يلتفت محمّدٌ ولم ينتبه إلى لفظ اسم الشّخص المذكور في هذه القصّة اليهوديّة فسمّاه (بالسّامري). واعلم أنّه كثيراً ما وردت لفظة السّامري في العهد الجديد، ومرّةً، أيضاً، في العهد القديم. وكان اليهود يعتبرون السّامريّين أعداءً لهم، ويعتقدون أنّهم زاغوا عن سواء السّبيل، ولازموا الضّلالة بسبب الخطاء والجهالة. ولكن بما أنّ مدينة السّامرة[1] لم تُبنَ إلاّ بعد وفاة موسى بنحو أربعمائة سنة، فيتعذّر على عقولنا القاصرة أن نفهم كيف يمكن وجود الاسم قبل وجود مسمّاه.

وعلى كل حال فلا بدّ أن يكون محمّدٌ قد قصد أن يكتب السّمائيل عوضاً عن السّامري، ولكن بـمّا أنّه لم يدر أنّ اليهود يسمّون ملك

(١) السّامرة أو جبال نابلس: هي القسم الشّمالي الجبلي من الضّفة الغربيّة. وأصل الاسم من المدينة القديمة (السّامرة)، التي كانت عاصمة مملكة إسرائيل الشّماليّة. تقع أطلالها قرب قرية سبسطيّة، على بعد ١٢ كم، شمال غرب نابلس. وربّما الكلمة من (شمر) التي تعني المراقبة والحراسة. والسّامريّون: فرقةٌ يهوديّةٌ صغيرةٌ جدّاً، تعيش بجوار مدينة نابلس، تقول أنّ جبل جرزيم، المجاور لنابلس، هو المكان المقدّس، والقبلة الحقيقيّة لليهود، وليس القدس. وهم يؤمنون بإلهٍ واحدٍ روحانيٌ بحتٍ، وأنّ موسى رسول الله، وخاتم رسله، وأنّ توراة موسى هي كلام الله. وكثيرٌ من اليهود ينفون عن السّامريين الانتساب إلى إسرائيل؛ لأنّهم كانوا لا يتّقون الرّب، ويعبدون الأوثان، فغضب عليهم الرّب ولعنهم، كما يقولون. وهم ينسبون أنفسهم إلى هارون أخي موسى، وينتخبون كاهناً أكبر يسمّونه «الكاهن اللّاوي»، كما أنّ العبرانيّين ينظرون نظرةً دونيّةً لهؤلاء السّامريّين. (المراجع)

الموت باسم سمائيل توهّم أنّ هذا هو اسم الرّجل الذي صنع العجل الذّهبي، كما هو واضحٌ من منطوق القرآن. فالقرآن إذن مخالفٌ للتّوراة في هذه القضيّة، أيضاً؛ لأنّ التّوراة ذكرت، بالنّصّ الصّريح، أنّ هارون نفسه هو الذي صنع العجل خوفاً من اليهود، ثمّ أنّ ما ذكر في سورة البقرة[1]، وفي سورة النّساء[2]، من أنّ بعض الإسرائيليّين رأوا الله فماتوا، ثمّ بعثهم وأحياهم ثانيةً، هو مأخوذٌ من خرافات اليهود. لأنّه ورد في هذه الخرافات أنّ التّوراة ذاتها توسّلت لأجلهم فعادت أرواحهم إلى أجسادهم بسبب هذا.

(٦) في انتحالاتٍ أخرى. إعلم أنّه يوجد في القرآن كلماتٌ عبريّةٌ، وكلديّةٌ، وسريانيّةٌ، عجز المفسّرون المسلمون عن تفسيرها لجهلهم بتلك اللّغات. ومن هذه الكلمات ما يأتي ذكره: (توراة، تابوت، جنّة عدن، جهنّم، حبر، سكينة، طاغوت، فرقان، ماعون، ملكوت)، وغيرها. فمن أراد معرفة حقيقة معنى هذه الكلمات القرآنيّة فعليه بمراجعة قواميس اللّغات العبريّة والكلديّة والسّريانيّة. ومن له إلمامٌ تامٌّ بعلم صرف اللّغة العربيّة واشتقاقها لا يسعه إلّا الاقرار

(١) الآية ٥٢: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾. (المراجع)

(٢) الآية ١٥٣: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾. (المراجع)

والاعتراف بأنّ كثيراً من هذه الكلمات ليس أصله عربيّاً، ولم تُصغ من أصولها حسب قواعد اللّغة العربيّة، مع إنّ هذه الأصول نفسها موجودة في العربيّة، كما هي موجودةٌ في اللّغات الأخرى المذكورة.

وانتحل القرآن من اليهود أموراً أخرى خلاف ما تقدّم، مثلاً ذُكر في سورة الإسراء[1]، أنّه يوجد سبع سماواتٍ، وتكلّم في سورة الحجر[2]، عن سبعة أبوابٍ لجهنّم. وهذان الأمران مأخوذان من كتابين من كتب اليهود؛ أحدهما يسمّى «حكيكاه»[3]، وثانيهما «ذوهر»[4].

وذهب الهنود أيضاً إلى أنّه يوجد سبعُ دركاتٍ تحت الأرض،

(١) الآية ٤٦: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾. (المراجع)

(٢) الآية ٤٤: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾. (المراجع)

(٣) باب ٩، فصل ٢. والحكيكاه Hagigah: وهو واحدٌ من ستّة أوامر في الميشنا، وهي مجموعةٌ من التّقاليد اليهوديّة المدرجة في التّلمود. تتعامل مع طقوس الحجّ الثّلاثة. ويشير المصطلح أيضاً إلى الذّبائح الطّوعيّة التي يقدّمها اليهود مع حمل الفصح في عيد الفصح، وفي الأعياد الأخرى من قبل اليهود أثناء حجّهم إلى الهيكل في القدس. (المراجع)

(٤) فصل ٢، ص ١٥٠. أو الزّوهار: كلمةٌ عبريّةٌ تعني الإشراق أو الضّياء. ويعدّ من أهمّ كتب التّراث الكابالي، وهو تعليقٌ صوفيٌّ مكتوبٌ بالآراميّة، على المعنى الباطني للعهد القديم، ويعود تاريخه الافتراضي إلى ما قبل الإسلام والمسيحيّة. ويُنسب إلى أحد معلّمي المشناه الحاخام شمعون بن يوحاي (القرن الثّاني)، وإلى زملائه، ولكن يُقال إنّ موسى دي ليون (مكتشف الكتاب في القرن ١٣م) هو مؤلّفه الحقيقيّ أو مؤلّف أهمّ أجزائه، وأنّه كتبه بين عامي ١٢٨٠ و١٢٨٥. (المراجع)

وسبع درجاتٍ فوقها، وكلّ من هذين القسمين مستندٌ إلى رأسٍ من رؤوس ثعبانٍ جسيمٍ اسمه «شيشه»، له ألف رأسٍ. فالمدّون في الكتب الهنديّة، وفي الخرافات اليهوديّة، وفي الأحاديث الإسلاميّة أصله واحدٌ.

مثلاً أنّ ما ورد في «عرائس المجالس»[1]، عن سبع دركات الأرض، هو موجودٌ في الكتاب المسمّى (أوستا)[2]، وهو كتابٌ دينـي لقدماء الفرس فيه أنّ الأرض تشتمل على سبع (كثور) أو سبعة أقاليم. وورد في أحد أبواب الأوستا[3]:

{أنّ جمشيد[4] استولى على الأرض التي تشتمل على سبعة أقاليم}

(١) الصّفحات ٥-٩.

(٢) أو الأفيستا Upasta، أو الأبستاق: هو كتاب الرّسول زرادشت الذي يعدّ الكتاب المقدّس لدى أتباع الدّيانة الزّرادشتيّة. وكلمة «الأفيستا» باللّغات القديمة تعني (الأساس، والبناء القوي). والأبستاق مكتوبٌ باللّغة الأبستاقيّة (الأفستيّة)، ذات الصّلات القويّة باللّغة السّنسكريتيّة الهنديّة القديمة. ويقول المؤرّخون أنّ (الأفيستا) المقدّسة كتب على ١٢٠٠٠ قطعة من جلود البقر، أتلفت أغلبها نتيجةً لمرور تلك القرون من الزّمن، وبقيت ٣٨٠٠٠ ألف كلمة منها. وتقول بعض الرّوايات أنّها كانت حوالي ٣٤٥٧٠٠ كلمة أي أربعة أضعافٍ، وكانت من واحداً وعشرين جزءً وخمسة أقسامٍ. (المراجع)

(٣) يشت، باب ١٩، فصل ٣١.

(٤) جمشيد أو جم أو جمشيذ. ويذكر في بعض الكتب العربيّة،كالطّبري، باسم جم الشّيذ: وهو من أهمّ شخصيّات الشّاهنامة، وقد ذكر اسمه في الأساطير الآريّة الدّينيّة والتّاريخيّة. ومعناه «المتلألئ». وأصبح جمشيد ملكاً في آريانا، عندما مات أبوه طهمورث. فأوّل شيءٍ اشتغل به في ملكه هو إعداد آلات الحرب. وهو أوّل من

وزد على هذا أنّ ما ورد في سورة هود[1]، بخصوص عرش الله حيث قيل:

﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾

يطابق الرّوايات اليهوديّة المذكورة في تفسير أحّد مفسّري اليهود المشهور باسم راشي[2]، فإنّه قال في تفسيره لـ(تكوين ١، الآية ٢) ما نصّه:

{إنّ العرش المجيد استقرّ في الهواء، وعام على المياه}

وذهب المسلمون، كما هو مشهورٌ، أنّ الله سبحانه وتعالى عيّن على جهنم ملاكاً يسمّى مالكاً، فكذلك اليهود كثيراً ما يتكلّمون، في كتبهم القديمة، عن رئيس جهنّم. غير إنّ المسلمين انتحلوا اسم هذا الملاك من عبدة أصنام فلسطين القدماء، فإنّهم كانوا يسمّون

سنّ ارتداء الملابس فاستعمل ثياب الكتّان، ثمّ أمر الجنّ بنحت الأحجار، وتخمير الأطيان، ثمّ تتبّع المعادن فاستخرج منها الذّهب والفضّة والياقوت والفيروز. ثمّ أخرج أنواع الطّيب من مستودعاتها كالمسك والكافور والعنبر. وسمّى جمشيد أوّل يوم من السّنة، وقت حلول الشّمس في برج الحمل، بالنّيروز. (المراجع)

(١) الآية ٧.

(٢) شلومو يتسحاقي، أو باللّاتينيّة Salomon Isaacides. معروف بالاختصار راشي (١١٠٥م): حاخامٌ فرنسيٌّ. تعد إسهاماته الأهم بين اليهود الإشكناز في دراسة التّوراة. اشتهر بكتابة تفسيرٍ شاملٍ للتّلمود، بالإضافة إلى تفسيرٍ شاملٍ للتّاناخ. يُعتبر «كأبٍ» لكلّ التّفسيرات التي تلت. وبذلك يعدّ من أشهر المفسّرين للكتاب المقدّس. وقد حاول إيجاد توازنٍ بين التّفسير الحرفي للنّصّ والمواعظ الأخلاقيّة التّقليديّة للحاخامين. (المراجع)

أحد آلهتهم الكاذبة الذي كان يترأس على النار (مولك)[1]، وهم اسم فاعلٍ باللّغة العبريّة، كما إنّ مالك هو اسم فاعلٍ باللّغة العربيّة.

وورد في سورة الأعراف[2] أنّ الاعراف هو موجودٌ بين السّماء وجهنّم. وهاك نصّ عبارة القرآن وهي:

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾

وقد انتحل ذلك، أيضاً، من اليهود؛ لأنّه ورد في كتاب «مدارش»، في تفسير الآية ١٤ من الاصحاح السّابع، من كتاب «سفر الجامعة» أنّه لما استفهم بعضهم «ما هي المسافة بينهما»، أي بين السّماء وجهنّم؟ أجاب ربّي يوحانان قائلاً: «إنّه بينهما حائطٌ». وقال ربّي أخاه: «إنّها مسافة شبرٍ». وقال الرّبانيّون: إنّهما متقاربان بحيث تنفذ أشعّة النّور من احدهما إلى الآخر. ومنشأ الوهم وجود الأعراف في كتاب (أوستا) للزّردوشتيّين، أي قدماء الفرس. واسم الأعراف

(١) أو مولوك أو مولوخ: اسمٌ كنعاني معناه «ملك»، وهو إلهٌ للعمونيّين. وكانوا يذبحون له ذبائح بشريّة؛ ولا سيّما الأطفال. ويعتقد أنّ كلمة مولك اشتقّت من الكلمة الفينيقيّة «ملك» التي تشير إلى نوع من التّقدمات التي كانت تقدّم للحلّ من القسم. وكلمة ملك في العبريّة تعني نفس الشّيء، وفي العربيّة «ملك». وكان من المعتاد أن يقوم الإسرائيليّون بإضافة حروفٍ متحرّكة إلى أسماء الآلهة الوثنيّة، بسبب الإحساس بالعار bosheth. وهكذا صارت عشتار آلهة الخصب والحرب عشتاروت. وإضافة/ المزج بين ملك، ميليك والحرف المتحرّك نتج عنها مولك الذي يمكن أن يكون تفسيره «الحاكم المتجسّد لذبيحة العار». ومن أشكال هذا الإسم «ملكوم»، و«مليكيم»، و«مالك»، و«مولوك». وكانت عشتاروت قرينته، وكان الزّنى الطّقسي جزءً هامّاً من العبادة. (المراجع)

(٢) الآية ٤٦.

بلغتهم مسوانوكاتس، واسمه بلغة بهلوي (مسوت كاس).

ومقتضى مذهب الزّردوشتيّين أيضاً أنّ المسافة بين السّماء وجهنّم قدر المسافة بين النّور والظّلمة. وورد في سورة الحجر[1] عن الشّيطان الرّجيم أنّه:

﴿اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾

وكذلك ورد مثل هذا في سورة الصّافّات[2]، وفي سورة الملك[3]. وأصل ذلك مأخوذٌ من خرافةٍ من الخرافات اليهوديّة؛ لأنّه ورد في الكتاب المسمّى حكيكاه[4]، عن الشّيطان أنهم ينصتون من وراء حجابٍ ليطّلعوا على الحوادث المستقبليّة.

وورد في سورة ق[5]، ما نصّه:

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾

وورد في الكتاب اليهودي المسمّى (أوتوت دربي عقيباه)[6]، ما

(١) الآية ١٨.

(٢) الآيتان ٨-٩: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ، لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾. (المراجع)

(٣) الآية ٥: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾. (المراجع)

(٤) الباب ٦، الفصل ١.

(٥) الآية ٣٠.

(٦) مدراشٌ كتبه الرّابي «عقيبا» الذي جمع موادّ متميّزة من المدراشات الأخرى

يطابق ذلك نصّه:

{أنّ رئيس جهنّم يقول يوماً فيوماً أعطني طعاماً حتّى أستكفي}

وورد في سورة هود[1]، وكذلك في سورة المؤمنين[2]، أنّه في أيّام طوفان نوح:

﴿فار التّنّور﴾

وأصل هذا المعنى مأخوذٌ من كتابين من كتب اليهود؛ أحدهما كتاب (روش هشاناه)[3]، وثانيهما رسالة تسمّى (سنهدرين)[4].

والمشناه والهاجداه. وقد ذهب مؤلّفا كتاب Introduction to The Talmud and Midrash إلى أنّه قد أُلّف في فترة ما من القرن ٧ إلى ٨ الميلادي. وقرّرت الموسوعة اليهوديّة The Universal Jewish Encyclopedia أنّه قد أُلّف في القرن ٨ أو ٩. أي ينتفي بذلك استمداد القرآن منه. (المراجع)

(١) الآية ٤٠: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾. (المراجع)

(٢) الآية ٢٧: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾. (المراجع)

(٣) فصل ١٦، الآية ٢. رُوش هَشَنَه أو رُوش هَاشَنَاه Rosh Hashanah: تعني بالأساس «رأس السّنة». وينطقه الأشكناز «غوش هشنه»، بدلاً من روش. وهو عيدٌ يهودي يحتفل فيه برأس السّنة العبريّة، ويعتبر هذا العيد يوم الدّين الذي يحاكم الإنسان فيه عن السّنة الماضية، كما يذكر بداية أيام التّوبة العشرة. (المراجع)

(٤) فصل ١٠٨. أو سنهدريم: كلمةٌ عبريّةٌ منقولةٌ عن «سندريون»، وباليونانيّة synedrion، وبالإنجليزيّة The Great Sanhedrin، ومعناها «الجالسون معًا». وقد تعني مجمع أو مشيخة أو مجلس شورى. وقد توقّف العمل به بعد عام ٧٠م، وذلك بعد خراب أورشليم، والشّتات اليهودي. (المراجع)

ونصُّ عبارتيهما:

{أنّ جيل الطّوفان دينوا بالماء المغلي}

وبخلاف كل ما ذكر فاعلم أنّ كثيراً من رسوم المسلمين الدّينيّة أُخذت من اليهود. ومع إنّ ضيق المقام يمنعنا عن إيراد كلّ هذه الرّسوم مفصّلةً، إلّا أنّه يجب أن نورد رسمين أو ثلاثة من هذه الرّسوم لإثبات قولنا هذا. وقد رأينا ممّا تقدّم أنّ صوم رمضان ليس مطابقاً لعادة اليهود بل لعادة الصّابئيّين.

غير أنّ محمّداً انتحل من اليهود شيئاً له ارتباطٌ بهذا الصّيام؛ وذلك أنّه ورد، في سورة البقرة[1]، فقرةٌ فيها أمرٌ بخصوص الأكل والشّرب، في الّليل في شهر رمضان، ونصّها:

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ﴾

وقد ورد في (مشناه برأخوت)[2]، أنّ أوّل النّهار هو الوقت:

{الذي يمكن للإنسان أن يميّز فيه بين الخيط الأزرق من الخيط الأبيض}

(١) الآية ١٨٧.

(٢) في الباب ١، فصل ٢. Berachoth: وهو المبحث الأوّل من المجلّد الأوّل للمشنا، بعنوان «براخوت» أي البركات. وهو مكرّس لجوانب خدمات الصّلاة اليوميّة، والسّنن المتعلقة بها وبالبركات، ونادرًا ما يتطرق فيه أو بشكلٍ عرضي على قضايا لاهوتيّة. (المراجع)

فهل حصل هذا الاتّفـاق الغريب بين القرآن والكتاب اليهودي اتّفاقاً، أي هل يمكن أن يكون ذلك الاتّفاق من قبيل توارد الخواطر؟

جرت عادة المسـلمين في جميع البلاد أن يؤدّوا كلّ يوم الصّلوات الخمـس المفروضـة عليهـم في أوقاتها المقـرّرة، حيثما كانوا سـواء في بيوتهـم أو في الشّـوارع أو في أيّ محلٍّ آخـر. وفي الواقع، إنّهم يؤدّون الصّلوة في المحالّ المطروقة أي التي يكثر فيها مرور النّاس بالمصلّين، واختصّـوا بهـذه العـادة غـير المستحسـنة لأنّ جميـع الملـل والنِّحـلِ يسـتهجنونها وينكرونهـا. ولا شـكّ أنّ اليهـود الذين كانـوا في بلاد العرب في عصر محمّدٍ اعتادوا هذا الأمر؛ لأنّ كثيرين منهم كانوا من ذريّة الفرقة التي اسمها فريسيّون[1]، التي كثيراً ما ذُكرت في البشائر الأربع[2]، فتناسلوا منهم تناسلًا طبيعيّاً، ومن لم يتناسل منهم طبيعيّاً كانوا على مشربهم ومذهبهم. وسـنّ القوم تلك العادة لأنفسهم منذ أقدم الأزمنة، وجاء في الإنجيل الشّريف أنّهم كانوا:

{يحبّـون أن يصلّوا قائمين في المجامع، وفي زوايا الشّـوارع؛ لكي

(١) الفريسـيّون Pharisees: حزبٌ سـياسيٌّ دينيٌّ، برز خـلال القرن الأوّل داخل المجتمع اليهودي في فلسـطين. يعود أصل المصطلح إلى الآراميّة، ويشـير إلى الابتعاد والاعتزال عن الخاطئين. وكان الفريسـيّون يتبعون مذهبًا دينيّاً متشدّداً في الحفاظ على شريعة موسى والسّنن الشّفهيّة التي استنبطوها. (المراجع)

(٢) وهـي مـن مقدّمات أسـفار الكتـاب المقدس: البشـائر الأربع، وسـفر الأعمال. (المراجع)

يظهروا للنّاس}[1]

ونعرف بالاستنتاج أنّ المسلمين أخذوا هذه العادة منهم. وبيان ذلك أنّ أصحاب محمّدٍ سمعوه يقول: إنّ اليهود هم أهل الكتاب وذريّة إبراهيم الخليل. فنسجوا على منوالهم واقتدوا بهم متوهّمين أنّ تلك العادة أيضاً مأخوذةٌ من إبراهيم.

ومن الغرائب أنّ القرآن، مع إنّه قرّر أنّ سبب نزوله كان للتّصديق على الكتب اليهوديّة المقدّسة، إلّا أنّه اقتبس صريحاً آيةً واحدةً منها، وأوردها في سورة الأنبياء[2]، وهي هذه:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾

إنّ وعد الله المذكور في الزّبور الذي استشهد به القرآن هو مكتوبٌ في (مزمور ٣٧، الآية ١١):

{أمّا الوُدعاءُ فيرثون الأرضَ}

وهنالك أمران آخران انتحلها المسلمون من اليهود، وقد ذهب المسلمون إلى أنّ القرآن كُتب في اللوح المحفوظ قبل إنشاء العالم[3]، ونصّ العبارة:

(١) متّى، الاصحاح ٦، الآية ٥.

(٢) الآية ١٠٥.

(٣) ص ١٠؛ سورة البروج، الآيتان ٢١-٢٢.

﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ، فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾

وقبل الخوض في الكلام عن اللّوح المحفوظ ينبغي أن نسأل علماء الإسلام هل كان الزّبور قبل القرآن أم لا؟ وهل هو أقدم منه عهداً وأسبق زمناً أم لا؟ لأنّه ذُكر في الآية التي أوردناها من سورة الأنبياء أنّ ما اشتملت عليه هذه الآية بخصوص ميراث عباد الله الصّالحين كُتب قبلاً بأمر الله في الزّبور، وممّا يؤيّد هذه القاعدة المصطلح عليها وهي: أنّنا إذا عثرنا مثلاً في كلام «مثنوي مولانا الرّومي»[٤] على شطرةٍ من بيت شعرٍ ضمّنها بعض عباراتٍ مقتبسةٍ من كتاب «شاه نامة»[٥] مثلًا أو عبارات القرآن، جزمنا جزماً أكيداً بأنّ الشّاه نامة أو القرآن، (كما يتّفق أن يكون الحال)، متقدّمٌ على تأليف مثنوي، وهو أسبق منه في الزّمان. وعلى هذا القياس نقول

(٤) المثنوي المعنوي: ديوانٌ شعريٌّ بالغ الإسهاب باللّغة الفارسيّة لجلال الدّين الرّومي (١٢٧٣). تعني المثنوي بالعربيّة النّظم المزدوج في القصيدة، إذ يتّخذُ شطرا البيت الواحد قافيةً خاصّةً، ويكون لكلّ بيتٍ قافيته الدّاخليّة، وبذلك تتحرّر القصيدة من القافية الموحّدة. ويعدُّ المثنوي أحَد أهمّ الكتب الصوفيّة، وأعظمها تأثيراً، حتّى أنّ البعض يُسمّيه «القرآن الفارسي». وهو عند كثيرٍ من النّقاد والأدباء أعظم قصيدةٍ صوفيّةٍ في الأدب. بلغت عدد أبيات المثنوي ٢٥٦٣٢ بيتاً، موزّعة على أجزائه السّتّة، وفيه ٤٢٤ قصّةً تسرد معاناة الإنسان للوصول إلى حبّه الأكمل الذي هو الله. (المراجع)

(٥) الشّاهنامه: ملحمةٌ فارسيّةٌ ضخمةٌ، تقع في نحو ستين ألف بيتٍ. من تصنيف الفردوسي (١٠٢٠م)، و«تُعتبر أعظم أثرٍ أدبي فارسي في جميع العصور». صوّر فيها تاريخ الفرس منذ العهود الأسطوريّة حتّى زمن الفتح الإسلامي، وسقوط الدّولة السّاسانيّة، منتصف القرن السّابع للميلاد. (المراجع)

متّى رأينـا في القرآن ذاته آيـةً من آيات مزامـير داود النّبي يتّضح لنا جليّاً أنّه لم يكن للقرآن وجودٌ قبل أيّام النّبيّ الذي أُوحي إليه الزّبور. ولكـن إذا أخذنـا بالبحث والتّحرّي عن معلومات المسـلمين التي استفادوها من أحاديثهم، بخصوص اللّـوح المحفوظ، وجدنا هذه البيّنات، في مثل هذه الكتب، وهي: «قصص الأنبياء»، ونصّها[1]:

«ومـن تحت العرش خلق (الله) لؤلؤةً، ومـن تلك اللّؤلؤة خلق اللّوحَ المحفوظ، وارتفاعه سـفرُ سبعمائة سـنة، وعرضه سفر ثلثمائة سـنة، وكان مرصّعـاً بالياقوت الأحمـر، ثمّ بقوّة الله تعـالى، ثمّ صدر الأمر إلى القلم اكتب علمي في خلقي، وما هو كائنٌ إلى يوم القيامة- كُتـب أوّلاً في اللّوح المحفوظ: ﴿بِسْـمِ اللهِ الرَّحْمـنِ الرَّحِيمِ﴾، أنا الله لا إله إلّا أنا! مَن يستسـلم لقضائي، ويصبر على بلائي، ويشكر على نعمائي، كتبته وبعثته مع الصّدِّيقين. ومَن لم يرضَ بقضائي، ولم يصبر على بلائي، ولم يشـكر عـلى نعمائي، فيطلب ربّاً سـوائي، ويخرج من تحـت سـمائي. ثـمّ كتب القلـم: علـم الله في خلق الله تعالى كلّ شـيءٍ أراده إلى يوم البعث، حتّى مقدار تحريك ورقة الشّـجرة أو نزولها أو صعودها. وكتب كلّ شيءٍ مثل هذا بقوّة الله تعالى».

وأصـل هذه القصّـة موجودٌ في كتـب اليهود، غير إنّ المسـلمين توسّـعوا وبالغوا فيما كتبـه اليهود في هذا الصّـدد. واعلم أنّه ورد في توراة موسـى أنّـه لما أراد الله أن يسـلّم للاسرائيليّـين العشر وصايا،

(١) ص ٣، ٤.

الوارد نصّها في الاصحاح العشرين من سفر الخروج، سلّمها لموسى بالكيفيّة التي أوردها موسى كليم الله في سفر التّثنية[1]:

{وفي ذلك الوقت قال لي الرّب: إنحت لك لوحين من حجرٍ مثل الأوّلَينِ، واصعد إليّ إلى الجَبل، واصنع لك تابوتاً من خشبٍ، فاكتب على اللّوحين الكلمات التي كانت على اللّوحين الأوّلين اللّذين كسرتَهما، وتضعهما في التّابوت. فصنعت تابوتاً من خشب السّنط[2]، ونحتُّ لوحين من حجرٍ مثل الأوّلَينِ، وصعدت إلى الجَبل، واللّوحان في يدي. فكتبَ على اللّوحين مثل الكتابة الأولى الكلمات العشر التي كلّمكم بها الرّب في الجَبل، في وسط النّار، في يوم الاجتماع، وأعطاني الرّبُّ إيّاها، ثمّ انصرفت، ونزلت من الجَبل، ووضعت اللّوحين في التّابوت الذي صنعتُ، فكانا هناك، كما أمرني ربي}

وورد في سفر الملوك الأوّل[3]، وفي رسالة بولس الرّسول إلى

---

(1) الاصحاح ١٠، الأيات ١-٥.

(2) السَّنْط أو الطَّلْح أو القَرَظ أو الأكاسيا أو الأقاقيا Acacia: جنسٌ نباتيٌّ من الفصيلة البقوليّة. يضم ١٣٠٠ نوعاً. تنمو على ارتفاع ٤٠ قدماً، وقد يصل بعض أنواعها إلى ارتفاع ٧٠ قدماً، وقطرها ٣ أقدام. استخدم السّنط في العصور الفرعونيّة في النّجارة، ولحائه في الدّباغة، والأوراق والأزهار في أغراضٍ طبيّة. وكان يستخدم في تصنيع السّفن لقوّته ومتانته، وحالياً يدخل في العديد من الصّناعات كصناعة الأثاث، ولعب الأطفال، والمجوهرات، والأدوات، وإنتاج الأرضيات، ويستخدم أيضاً للزّخرفة والزّينة. وكانت من الأشجار المقدّسة عند العبرانيّين. (المراجع)

(3) الاصحاح ٨، الآية ٩. بالعبرية: سفر ملاخيم. وهو أحد أسفار التّناخ والعهد

العبرانيّين[1]، أنّ هذين اللّوحين حُفظا في تابوت العهد الذي صنعه موسى، حسب أمر الله. وهذا هو معنى اللّوح المحفوظ، أو بالأحرى معنى اللّوحين المحفوظين[2]. وممّا يجب التّنبيه إليه، أنّه ورد في سورة البروج[3]، ما نصّه:

القديم. يرجع تاريخ كتابته، مع سفر الملوك الثّاني، إلى ما بعد ٥٦١ ق. م. وهما في الأصل العبري سفرٌ واحدٌ يمثّل فترة الملوك ٤٠٠ سنة؛ من داود ١٠٠٠ ق. م. تقريباً إلى سقوط أورشليم ٥٨٧-٥٨٦ ق. م. لكن في زمن التّرجمة السّبعينيّة من العبري إلى اليوناني لم يسعهم درجٌ واحدٌ فتمّ تقسيمه على سفرين: الملوك الأوّل، والملوك الثّاني. وتُنسب كتابته إلى إرميا النّبي. (المراجع)

(١) الاصحاح ٩، الآيتان ٣-٤. وهي إحدى رسائل العهد الجديد التي توصف بأنّها صلة الوصل ما بين العهدين القديم والجديد. وهي موجّهةٌ للعبرانيّين الذين تخلّوا عن اليهوديّة واعتنقوا المسيحيّة؛ وكلّفهم قرارهم هذا رفض المجتمع اليهودي الممثّل بمجلس السّنهدريم لهم، لذلك كُتبت هذه الرّسالة لتشجيعهم، ولتؤكّد لهم بأنّهم يشبهون بمعاناتهم المسيح الذي سبق وطُرد، أيضاً، من قبل أهله، وصُلب خارج أورشليم. أمّا مؤلّف الرّسالة فغير محسوم، وعلى الأرجح كُتبت بتقليدٍ متعمّدٍ لأسلوب بولس. ففي الكنائس الغربيّة غلب الاعتقاد في الفترة ما قبل القرن ٤ م، على أنّه إكليمندس الرّوماني، ثمّ رجّحت الكفّة لبولس الرّسول، بينما كان ترتليان العلّامة الكنسي الذي عاش في القرن ٢ م.، ينسبها إلى برنابا، ومن جهةٍ أخرى ساد الظّنّ في الكنائس الشّرقيّة بأنّ بولس هو المؤلّف. أمّا أوريجانوس فقد اعتقد بأنّ الكاتب قد يكون لوقا الإنجيلي. (المراجع)

(٢) يربط بعض الباحثين أصول اللّوح المحفوظ بلوح الأقدار البابلي. ففي الأساطير الرّافديّة، كان لوح الأقدار لوحاً طينيّاً متصوّراً منقوشاً عليه كتابة مسماريّة، يخوّل الإله إنليل سلطته العليا كحاكم للعالم. ويفترض أنّ من يملك لوح الأقدار يحكم الكون. أمّا اللّوح المحفوظ، اليهودي أو الإسلامي فمدوّنٌ فيه كلّ ما يخص الحياة ومجرياتها منذ بدء الكون حتّى نهايته. (المراجع)

(٣) الآيتان ٢١-٢٢.

﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ، فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾

ولم يقـل في «اللّوح المحفوظ»، بل وردت لفظة لوحٍ منكّرةً بدون أداة التّعريـف. فمن الواضح، إذن أنّ قوله أنّ القرآن كُتب على لوحٍ محفوظٍ ليس أنّه كُتب على اللّوح الواحد المحفوظ بل لا بدّ من وجود لوحٍ آخر، أقلّ ما يكون.

فـإذا قيل لماذا ذهب محمّدٌ إلى أنّ القـرآن كُتب على لوحٍ محفوظٍ؟ قلنـا: لفهم هذا القول حقّ الفهم يجب أن نبحث في الكتب اليهوديّة لننظـر مـا قالـه اليهـود في عصر محمّـدٍ وقبله عـمّا كُتـب في اللّوحين اللّذيـن حُفظا في تابـوت العهد. ومع إنّ التّـوراة صرّحت، كما رأينا بـما لا يقبل الشّـكّ، أنّ ما كُتب عـلى اللّوحـين كان الوصايا العشر، (سفر التّثنية)[1]، أو العشر كلماتٍ، كما ورد باللّغة العربيّة. أنّ اليهود توهّمـوا بعد مدّةٍ من الزّمان أنّ جميع كتب العهد القديم، وأيضاً، كلّ التّلمود كُتب عليهما أو، على الأقلّ، نزلت معهما.

ولـما سـمع محمّـدٌ مـن اليهـود هـذا القـول عـن شريعتهـم حذا حذوهم، ونسـب إلى شريعته ما نسبه اليهـود إلى شريعتهم، فادّعى

(١) الاصحاح ١٠، الآية ٤. أو سفر تثنية الاشتراع: أحد الأسفار المقدّسة في التّناخ. وهو سـفرٌ تشريعيٌّ، تكتمـل معه الشّريعة اليهوديّة، ولا يمكـن فهم أحداثه من دون الاطّلاع على الأسـفار التي سـبقته خصوصًا سـفر الخروج وسـفر اللّاويّين. كُتب في أورشـليم خلال عهد داوود أو سـليمان، نقلاً عن التّقليد الشّـفهي، أو بعض الوثائق المكتوبة التي فقدت اليوم، بينما تشـير الموسـوعة البريطانيّة إلى نموٍ تدريجيٍّ في النّصّ. (المراجع)

أنّ القرآن كان مكتوباً في لوحٍ من اللّوحين المحفوظين، أو كما قال في سورة البروج: ﴿لوح محفوظ﴾. ولما كان المسلمون لا يعرفون معنى قوله (لوح محفوظ)، ولا ما المراد من ذلك، ابتدعوا هذه القصّة التي تقدّم ذكرها. وهاك ما قاله اليهود عمّا اشتمل عليه هذان اللّوحان:

{قال (ربّي شمعون بن لاقيش)[1]: أمّا الذي كتب فهو: فأعطيك لَوحَي الحجارة والشّريعة والوصيّة التي كتبتها لتعليمهم (سفر الخروج). واللّوحان هما العشر الوصايا، والتّوراة هي التي تُتلى، والوصية هي المشناه. والتي كتبها هي الأنبياء. والكتب لتعلّمهم الجمّارا. ويُستفاد من هذا أنّه أُوحي جميعها لموسى من جبل سيناء}

وكل يهوديٍّ نبيهٍ يرى وجوب رفض تفسير هذه الآية[2] الباطل وشرحها العاطل، لأنّه يعرف أنّ كتاب المشناه ألّف نحو سنة ٢٢٠ بعد التّاريخ المسيحي، وأُلّف الجمّارا الأورشليمي[3] نحو سنة

(١) أحّد حاخامات القرن الثّالث الميلادي المعروفين. (المراجع)

(٢) يقصد الآية التّوراتيّة. (المراجع)

(٣) الجمّارا تعني التّكملة. من الفعل جَمَر الذي يعني في العبريّة: أتمّ، وفي الآراميّة يعني درس. يتكوّن التّلمود من مكوّنين أساسيّين: الأوّل هو المشناه، والثّاني هو الجمّارا. والجمّارا هي نقاشٌ حول المشناه. إذ بعد سنة ٢٠٠ م.، وعلى مدى ثلاثة قرونٍ، جرى على المشناه تحليلٌ ونقاشٌ في فلسطين وبابل. ويُعرف هذا التّحليل باسم الجمّارا. ويُشار إلى حاخامي الجمّارا باسم الشّرّاح (أموراثيم). وتحليل الأموراثيم يتركّز على إيضاح آراء وأقوال ووجهات نظر التّنائيم (أي المعلّمين، وهم حاخامو المشناه). تُطرح الجمّارا على شكل سجالٍ جدليٍّ بين اثنين من الحاخاميم؛ متُناقضين في الرّأي، (ومراراً ما يكونان مُغفلي الهويّة، وربّما حتّى خياليّين)، يُصطلح على تسميّتهما بـ مَشكان (أي السّائل)، وترَتسان (أي المُجيب). وهذه السّجالات تشكّل الكتل

٤٣٠ ب.م. وأُلّف الجِمارا البابلي[١] نحو سنة ٥٣٠ بعد التّاريخ المسيحي، أيضاً. ولكن لما كان المسلمون يجهلون هذا قبلوا ما قاله جهلة اليهود، وطبّقوه على قرآنهم. فنرى من هذا أنّ هذه الرّواية مأخوذةٌ من هذا المصدر، كغيرها من الرّوايات والقصص المدوّنة في الأحاديث. ولا حاجة بنا لذكر أمورٍ أخرى من هذا القبيل غير ما تقدّم، وإنّما يجب التّنبيه إلى أنّ المسلمين ليسوا منفردين في الاعتقاد بأنّ لوحهم المحفوظ، كان قديماً بل إنّ اليهود يتوهّمون، أيضاً، أنّ اللّوحين المشتملين على العشر الوصايا كانا قديمين جدّاً. فقد ورد في «فرقى أبوت»[٢]، أنّ هذين اللّوحين، مع تسعة أشياءٍ أخرى، خلقت وقت خلق الدّنيا، وقت غروب الشّمس، قبل يوم السّبت.

وأصل ما ورد في الأحاديث الإسلاميّة عن جبل قاف، الذي لا وجود له إلّا في الوهم والخيال، هو الكتب اليهوديّة؛ فأخذه المسلمون منها، ونقلوه عنها. والبرهان على ذلك أنّنا إذا قارنا بين

البنائيّة للجِمارا. واسم الفقرة الواحدة من الجِمارا هو سُوجياه (أي المسألة، وجمعها سُوجيوت). وترد مقاطع الجِمارا بالآراميّة. (المراجع)

(١) على الرّغم من أنّ المشناه واحدةٌ، لكن هناك نوعين من الجِمارا: الأورشليميّة التي كُتبت في أرض أورشليم، والبابليّة التي كُتبت في بابل. وتعدّ الجِمارا البابليّة أكثر شمولاً في محتواها من الفلسطينيّة. على الرّغم من أنّهما كُتبتا بالآراميّة. وإنّ أي جمارا مع المشناة تكوّن التّلمود، وبما أنّ الجِمارا البابليّة أكثر شمولاً فقد انعكس ذلك على التّلمود البابلي بأنّ أصبح أكثر شهرةً وتداولاً، وهو الكتاب القياسي عند اليهود. (المراجع)

(٢) الباب ٥، الفصل ٦.

مـا ورد في «عرائـس المجالس» و«قصـص الأنبياء»، وبـين ما يقوله اليهـود، نجـد الأمريـن واحداً. فقـد ورد في «عرائـس المجالس» ما نصّه[1]:

«خلـق الله تعالى جبلاً عظيماً من زبرجدةٍ خضراء خضرة السّـماء منـه، يقال له: جبل قاف. فأحاط بها كلّها (أي الأرض)، وهو الذي أقسـم الله به، فقـال[2]: ﴿ق، وَالْقُـرْآنِ الْمَجِيـدِ﴾. وورد في «قصص الأنبياء»: «فذُكر أنّ عبدالله بن سلّامٍ استفهم من محمّدٍ قائلاً: ما هي أعلى قمّةٍ في الأرض؟ قال: هي جبل قاف. فقال: جبل قاف ممّا هو. فقـال: مـن زمرّدٍ أخضر، وخضرة السّـماء هي منه. قـال: صدقت يا رسـول الله. قال: ما هو ارتفاع جبل قاف. فقال: إنّه سـفر خمسـمائة سـنة. وقال: كم هي المدّة التي يقطع الإنسان فيها محيطه؟ فقال: إنّها سفر ألفي سنة»[3].

وأصـل حكايـة جبل قـاف ما جاء في كتـب أحّد اليهود المسـمّى «حكيكاه»[4]، في تفسـير الكلمة العبريّة «توهو»، النّادرة الاستعمال، ومعناهـا: القضـاء والفراغ. وقد وردت في التّكويـن[5]. وهاك نصّ

(١) ينظر: عرائس المجالس، ٧-٨.

(٢) سورة ق، الآية ١.

(٣) ص ٥.

(٤) الباب ١١، الفصل ١.

(٥) الاصحاح ١، الآية ٢.

الفقرة من كتاب «حكيكاه»:

{توهـو هـو الخطّ الأخـضر المحيـط بجميع العـالم قاطبـةً، ومنه تنبعث الظّلمة}

فاللّفظـة العبريّـة التـي ترجمناهـا بالخـطّ هـي «قاو». ولما سـمع الصّحابـة هـذه القصّـة، أي «قـاو» لم يعرفـوا أنّ معناهـا خـطٌّ، بـل توهّمـوا أنّها سلسـلة جبالٍ عظيمةٍ، اسـمها قـاف. ولا حاجة للقول أنّ الجغرافيّـين، أي الذيـن يبحثون في الكـرة الأرضيّة وفي أقطارها، جابوا أطراف الدّنيا بأكنافها للاكتشـاف، ولم يكتشفوا سلسلة جبالٍ يصدق عليها الوصف الوارد في الأحاديث عن جبل قاف.

ونختـم كلامنـا بهذه العبارة وهي: يتّضح ممّـا قيل في هذا الفصل صدق ما ذهب إليه المعترضون من أنّ كتب اليهود، ولا سـيّما كتاب «التّلمود» المشحون بالخرافات، هي أهمّ مصادر الدّيانة الإسلاميّة. وإذ قـد تقـرّر ذلك فيجـدر بنا أن نبحـث في المصـادر الأخرى لهذه الدّيانة. وننظر إذا كانت الدّيانة الإسلاميّة قد انتحلت باقي عقائدها من الدّيانة المسيحيّة، ولاسيّما من الكتب الملفّقة والخرافات الباطلة، التي كانت متواترةً في عصر محمّدٍ، بين بعض الفرق المسيحيّة الضّالّة، وأصحاب البدع العاطلة.

الفصل الرّابع

في النّظـر فيما ذهب إليـه البعض من أنّ كثـيراً ممّا ورد في القـرآن هـو مأخوذٌ مـن حكايات بعـض الفـرق النّصارى المبتدعة، وآرائهم الباطلة

لا يخفى إنّه كان في عصر محمّدٍ كثيرون من النّصارى القاطنين في البلاد العرب منغمسين في الجهالة، وليس ذلك، فقط، بل كانوا، أيضاً، واقعين في البدع والضّلالة. ولما طُرد كثيرٌ منهم من حدود مملكة الرّوم بسبب تعاليمهم الفاسدة وآرائهم الكاسدة التجأوا إلى بلاد العرب. ولما لم يكن لهم معرفةٌ كثيرةٌ بالإنجيل، وبكتب الحواريّين، تداولوا بعض الكتب الملفّقة الملآنة من الخرافات التي لا أصل لها، واعتادوا تلاوتها، وكانوا يروون القصص المدوّنة فيها ويتناقلوها. فقال المزيّفون لدين الإسلام بما أنّ محمّداً لم يكن له إلمامٌ تامٌّ بالإنجيل الشّريف، واختلط مع أصحاب هذه البدع، توهّم أنّ ما سمعه منهم كان مدوّناً في الإنجيل، أو في رسائل الحواريّين.

وبما إنّه وجّه أنظاره إلى تأسيس دينٍ يدين به جميع سكّان بلاد العرب، ويتّحدون بواسطته، ويصيرون جماعةً واحدةً، فلهذا قبلَ كثيراً من خرافات جهلة النّصارى، ومذاهبهم الفاسدة، وأدخلها في قرآنه. وبما إنّه لا يصحّ تصديق رأي المعترضين بدون النّظر والفحص فمقصودنا أن نتحرّى بالتّدقيق هذه القضيّة، وتمعّن النّظر فيها في هذا الفصل لننظر إذا كان مثل هذه الخرافات التي أشرنا إليها هي إحدى مصادر الإسلام أم لا.

(١) قصّة أصحاب الكهف التي يسمّيها المسيحيّون «السّبعة النّيام»: لا يخفى أنّ قصّة أصحاب الكهف الوارد ذكرها في سورة

الكهـف[1]، هي خرافةٌ من خرافات اليونان الواردة في كتابٍ لاتينيٍّ اسـمه «مجـد الشّـهداء»[2]، تأليف غريغوريـوس[3]، وفحـوى هذه القصّة هو ما يأتي:

(لمـا كان «دكيـوس»[4] إمبراطـور رومـا ينفـث الاضطهـاد على المسـيحيّين بغايـة القسـوة والتّوحّـش، ويُجرّعهـم غصـص جـوره وظلمه، ليمحو حتّى اسـم المسـيحيّين مـن أذهان النّاس، فرّ سـبعة شـبّانٍ من سـكّان مدينة أفسـس[5] (التي لا تزال أطلالها باقيةً لغاية

(١) الآية ٢٦.

(٢) الكتاب الأوّل، فصل ٩٥.

(٣) عنوانه الأصلي «المسيح مجد الشّهداء»، للأسقف غريغوريوس النّيصي (٣٩٥م) Gregory of Nyssa. تعتبر كتاباته من أشـهر ما سـجّله الآبـاء الكبادوك الكبار الذيـن يعـدّون من الشّـخصيّات المسيحيّة الكبيرة التـي خلّفت أثراً كبيراً في عقيدة وتاريخ المسيحيّة، والذين تعود أصولهم إلى منطقة كبادوكيا، الموجودة حاليّاً في تركيا. يضم الآباء الكبادوكيون كلٌّ من: باسيليوس قيصرية (٣٣٠-٣٧٩) أسقف قيصريّة، وواحـد مـن أهمّ علماء اللّاهوت المسـيحي. إلى جانب أخيه الأصغـر غريغوريوس أسـقف نيصـص (٣٣٢-٣٩٥). وغريغوريـوس النّزينـزي (٣٢٩-٣٨٩)، والذي كان رئيس أسـاقفة القسـطنطينيّة. ويُعتبر غريغوريوس أكثر اللّاهوتيين براعةً إلى حدٍّ بعيدٍ في أسلوبه البلاغي في العصر الآبائي.
لعب الآباء الكبادوكيين دوراً في تطوير الفلسفة المسيحيّة واللّاهوت المسيحي المبكّر، منها على سبيل المثال عقيدة الثّالوث. (المراجع)

(٤) ترايانوس ديكيوس (دقيانوس) (٢٥١م): امبراطور روماني، شـارك حكمه مع ابنـه في السّـنة الأخيرة، حتّى قُتلا سـويّاً في معركة أبريتاس. اسـتغل العداء الشّـعبي للمسـيحيّين كوسـيلةٍ لتوحيد الإمبراطوريّة؛ فأصدر مرسـوماً لقمع المسـيحيّة عرف باضطهاد ديكيوس الشّهير. (المراجع)

(٥) أو إفسـوس: مـن أشـهر المُـدن الاغريقيّة القديمـة في الأناضول، تقـع في منطقة

الآن، بجوار المدينة التي اسمها آيا سلوك في برّ الأناضول). ونجوا من ظلمه وجوره، واختبأوا في كهفٍ قريبٍ من تلك المدينة، فناموا نحو ٢٠٠ سنة تقريباً؛ لأنّهم دخلوا الكهف في عهد دكيوس بين سنة ٢٤٩ و٢٥١ مسيحيّة، ولم يخرجوا منه ثانيةً إلّا في سنة ٤٤٧. وكان الملك ثيودوسيوس الثّاني[1] مستولياً على هذه السّلطنة وقت خروجهم. فلمّا استيقظوا ورأوا أنّ الدّيانة المسيحيّة قد انتشرت انتشاراً عظيماً في تلك المدّة ذهلوا كثيراً جدّاً؛ لأنّهم لما ناموا كان النّاس يعتبرون الصّليب علامة الاحتقار والعار، ولما استيقظوا رأوا الصّليب يتلألأ على تاج الإمبراطور وعلى ألوية مملكته تقريباً، وأنّ جميع رعايا المملكة الرّومانيّة قد دانوا بالدّيانة المسيحيّة، وأنّ هذه الدّيانة قد تغلّبت على كلّ ديانةٍ أخرى في جميع أنحاء الدّنيا قاطبةً، أو أنّها كادت تزيل غيرها من سائر الأديان).

ولا شكّ أنّ قصّة السّبعة النّيام هي خرافةٌ، ولكن بعض ذوي العقول الوقّادة ذهبوا إلى أنّ هذه الحكاية لا تخلوا من حكمةٍ وفائدةٍ. ولم يقصد واضع هذه الرّواية إضلال النّاس وغشّهم بل، بالعكس، أوردها على سبيل المجاز والكناية، وغايته أن يُظهر للمطالع انتشار

ليديا، غرب الأناضول، عند نهر كيستر الذي يصب في بحر إيجة. أُسّست في القرن العاشر قبل الميلاد من الإغريق القدامى. (المراجع)

(١) عُرف باسم ثيودوسيوس الأصغر أو الخطاط (٤٥٠م): أصبح إمبراطور الإمبراطوريّة الرّومانيّة الشّرقيّة (بيزنطة). بين ٤٠٨ و٤٥٠ م. من أبرز أسباب ذياع صيته مخطوطة القانونيّة، ولبنائه لأسوار ثيودوسيوس في القسطنطينيّة. كما أنّه شهد انقسامين عقائديّين مسيحيّين كبيرين هما: النّسطوريّة والأوطاخيّة. (المراجع)

الدّيانة المسيحيّة بسرعةٍ عجيبةٍ بنعمة الرّوح القدس، وبسفك دماء الشّهداء المحبّين الأبطال.

إذن لا يُحتمل أنّ مسيحيّاً من المسيح يتوهّم حصول هذه القصّة حرفياً بل، بالعكس، إنّ جميع المسيحيّين يرون أنّها خرافةٌ من الخرافات التي تقصّها العجائز على الأطفال لتسليتهم كحكاية القطّ والفأر، وحكاية حسين الكردي، وحكاية الغول، وغيره. غير إنّ محمّداً اتّخذها وأوردها في قرآنه، وعلّمها لصحابته، كأنّها حكايةٌ حقيقيّةٌ، ولكن بما أنّه لا أصل لهذه القصّة فمن الواضح، أنّ المولى القدّوس، العالم بكلّ شيءٍ، لم يكتبها في اللّوح المحفوظ، ولم يُنزلها على محمّدٍ بل أخذها محمّدٌ من روايات بعض جهلة النّصارى.

(٢) قصّة مريم: ورد في سورة مريم[١]، أنّ مريم أتت إلى قومها بعد ولادة ابنها المبارك فقالوا لها:

﴿يا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا، يا أُخْتَ هارُونَ ما كانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾

ويتّضح من هذه الآية، أنّ محمّداً كان يرى أنّ مريم كانت أُخت هارون، أخي موسى. وما يزيد هذا الأمر وضوحاً وجلاءً ما ورد في سورة التّحريم[٢]، ما نصّه:

(١) الآيتان ٢٧-٢٨.

(٢) الآية ١٢.

﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ﴾

وهذا مذكورٌ أيضاً، في سورة آل عمران[1]، وفي سورة الفرقان[2]، ونصّه:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾

وثبت من ذلك، أنّ عمران وموسى وهارون ومريم هم ذات الأشخاص الذين ورد ذكرهم بهذه الأسماء في خمسة أسفار موسى. غاية الأمر، أنّه ورد في التّوراة «عمرام»[3] عوضاً عن عمران. وورد في «سفر العدد»[4] ما نصّه:

{واسم امرأة عمرام يوكابد بنت لاوي، التي ولدت للاوي في مصر، فولدت لعمرام هارون وموسى ومريم أختهما}

(١) الآية ٣٥: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. (المراجع)

(٢) الآية ٣٥.

(٣) عمرام أو عمران: هو والد موسى وهارون ومريم وزوج يوكابد في العهد القديم، كما يقول سفر الخروج. (المراجع)

(٤) الاصحاح ٢٦، الآية ٥٩. وهو أحد الأسفار المقدّسة في التّناخ. وأصل تسميته بالعدد لأنّه يحتوي تعدادًا سكانيًا لبني إسرائيل بعد ستتين من خروجهم من مصر، وكان عدد بني إسرائيل إثر هذا التّعداد يقارب السّتمائة ألف شخص، ولا يذكر السّفر أسماء جميع المعدودين، إنّما أسماء رؤساء العائلات وأفراد عائلاتهم، ثمّ يرتّبها حسب الأسباط الإثني عشر. (المراجع)

وورد في «سفر الخروج»[1]، أيضاً، أنّ «مريم النّبيّة» كانت {أخت هارون}، كما رأينا في سورة مريم، حيث قيل: ﴿يا مَرْيَمُ... يا أُخْتَ هارُونَ﴾. فلا شكّ أنّ محمّداً توهّم أنّ مريم أخت هارون التي كانت، أيضاً، ابنة عمرام (أي عمران)، هي نفس مريم التي صارت أمّ يسوعٍ (المسيح عيسى)، بعد ذلك بنحو ألفٍ وخمسمائة وسبعين سنة.

وهذا القول يشبه الرّواية الواردة في الشّاهنامة بخصوص «فريدون وأختي جمشيد»[2]، فإنّه ذكر فيها أنّه بعد أن هزم فريدون الضّحّاكَ، واستولى على بيت ذلك الجبّار، وجد فيه أُختي جمشيد اللّتين أقامتا في بيت الضّحّاك، من أوائل حكم الضّحّاك، نحو ألف سنة تقريباً، من قبل ذلك. أنّه لما رآهما فريدون راعه جمالها. إلى آخر تلك الحكاية.

نعم إنّ بعض المفسّرين المسلمين حاولوا تفنيد هذا البرهان الذي أُقيم لتزييف القرآن، ولكنّهم عجزوا عن ذلك؛ لأنّهم لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً، وربّما كان سبب هذا الغلط أنّه ورد في إحدى خرافات اليهود كلامٌ بخصوص مريم أخت هارون نصّه:

---

(١) الاصحاح ١٥، الآية ٢٠.

(٢) أو أفريدون أو آفريدون: بطلٌ تشترك فيه أساطير إيران والهند كذلك. وهو الذي غلب الضّحّاك وقيّده على جبلِ دماوند. وأسطورة أفريدون في الأبستاق تشبه أسطورة في الفيدا الهندية. وأكبر الظّن أنّها تمتّان إلى أصلٍ واحدٍ. وأفريدون هو نوح الإيرانيين، كما يتبيّن من قصّته وقصّة أبنائه الثّلاثة: سلم، وتور، وايرج. (المراجع)

{إنّ ملاك الموت لم يتسلّط عليها بل ماتت بقبلةٍ إلهيّةٍ، ولم يتسلّط عليها الدّود ولا الحشرات}

وعلى كلِّ حالٍ، فهذا خطأٌ جسيمٌ؛ لأنّه لم يقل أحدٌ من اليهود أنّ مريم هذه بقيت على قيد الحياة إلى أيّام المسيح. وقد ورد في القرآن أشياءٌ كثيرةٌ بخصوص مريم، والدة يسوع (المسيح عيسى)، مخالفةً لما ورد في الأربعة الأناجيل الحقّة الصّحيحة؛ لأنّ روايات القرآن مأخوذةٌ من خرافات أصحاب البدع والضّلالة، كما يتّضح ممّا يأتي، في هذا الكتاب، فقد ورد في القرآن عن قصّة مريم ما نصّه[1]:

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

وفضلاً عن ذلك قال البيضاوي، وغيره من المفسّرين: أنّ امرأة عمران كانت عاقراً عجوزاً، فلمّا مرّةً رأت طيراً يزقّ فرخه حنّت إلى الذّريّة، وتوسّلت إلى الله أن يرزقها ولداً، وقالت: اللّهم إن رزقتني

(١) سورة آل عمران، الآيتان ٣٥-٣٧.

ولداً ذكراً أو أنثى فأقدّمه كهبةٍ في حضرتك لبيت المقدس. فأجاب المولى طلبها، فحملت وولدت بنتاً هي مريم. وقال جلال الدّين: بعد مضي سنين حملت أمّ مريم، وكان اسمها حنّة، فأتت بابنتها إلى المسجد، وسلّمتها إلى الأحبار، سدنة بيت المسجد المقدّس، فقالت: دونكم هذه النّذيرة. فتنافسوا فيها لإنّها بنت إمامهم. فأخذها زكريّا، وبنى لها غرفةً في المسجد، بسلّمٍ لا يصعد عليه غيره، وكان يأتيها بأكلها وشربها، فيجد عندها فاكهة الصّيف في الشّتاء، وفاكهة الشّتاء في الصّيف؛ فإنّ ملاكاً كان يأتيها بأكلها. ثمّ ورد في هذه السّورة ما نصّه[1]:

﴿وَإِذ قَالَتِ ٱلمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَريَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلعَٰلَمِينَ، يَٰمَريَمُ ٱقنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسجُدِي وَٱركَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ، ذَٰلِكَ مِن أَنبَآءِ ٱلغَيبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيهِم إِذ يُلقُونَ أَقلَٰمَهُم أَيُّهُم يَكفُلُ مَريَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيهِم إِذ يَختَصِمُونَ، إِذ قَالَتِ ٱلمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَريَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنهُ ٱسمُهُ ٱلمَسِيحُ عِيسَى ٱبنُ مَريَمَ وَجِيهاً فِي ٱلدُّنيَا وَٱلأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلمُقَرَّبِينَ، وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلمَهدِ وَكَهلاً وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ، قَالَت رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَد وَلَم يَمسَسنِي بَشَر قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾

(١) سورة آل عمران، الآيات ٤٥-٤٧.

أمّا من جهة ما ورد بخصوص الاقتراح وإلقاء الأقلام، فقال البيضاوي والجلالين: أنّه لما تنافست الأحبار قال زكريّا: أنا أحقّ بها. فقالوا: لا حتّى نقترع. فانطلق زكريّا، وستة وعشرون، إلى نهر الأردن، وألقوا أقلامهم في الماء، على أنّ مَن ثبت قلمه في الماء وصعد فهو أولى بها، فثبت قلم زكريّا، فأخذ مريم وتكفّل بها، فورد في سورة مريم[1] ما نصّه:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا، فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا، قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا، قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا، قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا، قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا، فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا، فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا، فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا، وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا، فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا، فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا، يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا

(١) الآيات ١٦-٣٠.

كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا، فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا، قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾

فهذه هي قصّة مريم، حسب ورودها في القرآن وفي كتب أقدم المفسّرين عليها. ويجب علينا الآن أن ننظر في مصدر هذه القصّة فنقول: قال المحقّقون المدقّقون أن هذه الأمور لم تؤخذ من الأناجيل الصّحيحة بل أُخذت من كتب الخرافات التي كانت متداولةً في الأزمنة القديمة بين أصحاب البدع الباطلة. وبما أنّنا لا نقبل قولاً بدون بيّناتٍ كافيةٍ وبراهين شافيةٍ، وجب علينا أن نُمعن النّظر في الأدلّة التي يقيّمونها لإثبات قولهم هذا. وهاك هي: ورد في كتابٍ اسمه «يروت يو أنجيلون»[1] ليعقوب الصّغير[2]:

{فرفعت حنّة عينيها إلى السّماء فرأت عشّ عصافير في شجرة غارٍ، فتنهّدت قائلةً: يا أحاح! يا أحاح! من ولدني أح أح؟.... ومَن أُشبه؟ فلست مثل طيور السّماء؛ لأنّ طيور السّماء، أيضاً، هي ذات ثمارٍ أمامك يا ربّ... وإذا بملاك الرّبّ وقف بجانبها قائلاً لها: يا

(١) الاصحاحات: ٣، ٤، ٥.

(٢) يعقوب الأصغر أو الصّغير (٦٢م): هو أحّد رموز المسيحيّة المبكّرة، وهو واحدٌ من الإثني عشر الذين اختارهم المسيح. ويخلط أحياناً بينه وبين يعقوب بن زبدي (يعقوب الكبير). يُظن بأنّه هو يعقوب البار، ويعتقد أنّ القديس جيروم وأولئك الذين تبعوه أنّه من أقارب المسيح. يحتفل بذكرى القدّيس يعقوب الأصغر احتفالاً تقليديّاً مع القدّيس فيلبس في الأوّل من آيار في التّقويمات الغربيّة. (المراجع)

حنّة! يا حنّة! إنّ الرّبَّ الإله استجاب طلباتك؛ فستحبلين، وتلدين، ويُذاع صيت نسلك في جميع أنحاء العالم. فقالت حنّة: حيٌّ هو الرّبُّ إلهي! وإذا ولدت ولداً ذكراً كان أو أُنثى نذرته للرّبِّ إلهي وسيخدمه طول أيّام حياته... وتمّت أشهرها وولدت حنّة في الشّهر التّاسع... وأرضعت الطّفلةَ، وسمّتها مريم}

وورد في كتابٍ عربي تافهٍ يسمّى «قصّة نياحة أبينا القدّيس الشّيخ النّجّار»[1]، بخصوص مريم ما نصّه:

{أبهاتها قدّموها إلى الهيكل، وهي ابنة ثلاث سنين، وأقامت في هيكل الرّبِّ تسع سنين. حينئذٍ، لما رأى الكهنةُ العذراءَ القدّيسة الخائفة من الرّبِّ قد نشأت، خاطبوا بعضهم بعضاً قائلين: سل عن رجلٍ يخاف الله لتودّعوا عنده مريم إلى زمان العرس؛ لئلّا تبقى في الهيكل}

ولكن قبل ذلك، لما أحضر والدا مريم ابنتهما إلى الهيكل، حصلت أشياءٌ أخرى وردت في سياق القصّة في «اليورت يوانجيلون»[2]، ونصّها:

(١) الفصل الثّالث. وكلمة «النّياحة» أو «المتنيّح» تعني «الرّاحة» أي أنّ الشّخص الذي توفّي «ارتاح»، وأخذ راحةً وهدوءًا وسلامًا من أتعاب الدّنيا. وتُفضّل الكنيسة استخدام كلمة «تنيح» أي «راحة» بدلاً من «وفاة أو موت» لتأكيدها على المفهوم الصّحيح للموت في العقيدة المسيحيّة، وهو انتقالٌ من عالمٍ إلى عالمٍ آخر أكثر راحةً. ويرجع أصل كلمة «تنيح» إلى الأصل العبرى للكلمة، وهي «منوح»، والتي تعنى «راحة. (المراجع)

(٢) الاصحاحات: السّابع، والثّامن، والتّاسع، والحادي عشر.

{إنّ الكاهن قبَلَها وقبّلها وباركها قائلاً: إنّ الـرّبَّ الإله، عَظّم اسمكِ بين جميع أجيال الأرض، وعليك في آخر الأيّام، يعلن الرّبُّ الإلـه فـداء بني إسرائيـل... وربَت مريـم كحمامةٍ في هيـكل الرّبِّ، وكانت تناول الأكل من يد ملاكٍ اثنتي عشرة سنةً من العمر. ثمّ التأم مجلس الكهنة فقالوا: إذا بلغت مريم اثنتي عشرة سـنةً من العمر، في هيكل الرّبِّ، فما الذي يجب فعله بها؟... فوقف ملاك الرّبِّ بجانب زكريّا وقال له: يا زكريّا! أُخرج واجمع أرامل القوم، وليأت كلّ واحدٍ بقلـمٍ، ومن بريه الرّبّ الإله علامـةً تكون زوجةً له. فخرج المنادون في جميـع نواحي اليهوديّة، وبوّقوا ببـوق الله، فأتى الجَميع مسرعين، فألقى ذات يوسـف قدومه، أيضاً، وولـج في المجلس، ولما اجتمعوا توجّهـوا إلى الكاهـن، فأخذ الكاهن أقلام الجَميـع، ودخل الهيكل، وصـلّى، ولـما تمّت صلاته، خـرج وردّ لـكلِّ واحدٍ قلمـه، فلم تظهر علامـةٌ فيها، غير إنّ يوسـف أخذ القلم الأخـير فخرجت من القلم حمامةٌ، وطارت على رأس يوسف... فقال له الكاهن: صار لك حقٌّ بواسـطة القرعـة أن تتّخذ عذراء الرّبِّ فخذهـا وديعةً عندك... ولما كان يوسـف منزعجاً، أخذهـا وديعةً عنده... فأخـذت مريم جرّةً، وخرجـت لتملأها ماءً، وإذا بصوتٍ قائلٍ: السّـلام لـكِ أيّتها المنعِم عليهـا الـرّبُّ معك! مباركـةٌ أنت في النّسـاء. فأخذت تلتفـت يميناً ويسـاراً؛ لـترى من أين أتى هـذا الصّوت. ولـما انزعجت، توجّهت إلى بيتها، ولما وضعت الجَرّة... جلسـت على الكرسيّ... وإذا بملاك الـرّبِّ قـد وقف بجانبها، وقال لها: لا تخـافي يا مريم! لأنّك وجدت

نعمةً أمام الله، وستحبلين بكلمته، ولما سمعت هذا قالت مريم في نفسها: هل أحبل كما تلد كلّ امرأةٍ؟ فقال لها الملاك: ليس كذلك يا مريم! لأنّ قوّة العليّ تضلّلك، فلذلك، أيضاً، القدّوس المولود منك يُدعى: ابن الله (وتسمّينه يسوع)}

وتبيّن من آخر هذه القصّة، أنّ كلمات الملاك هذه هي مأخوذةٌ من «إنجيل لوقا»[1]، لكن بقيّة الحكاية لا أصل ولا صحّة لها. واعلم أنّ قصّة إقامة مريم في هيكل الله هي واردةٌ في كتبٍ أخرى ملفّقةٍ، ولاسيّما في بعض المؤلّفات القبطيّة؛ فقد ورد مثلاً في الكتاب القبطي المسمّى «سيرة العذراء»، أنّه لما وضعت حنّة ابنتها مريم في الهيكل:

{كانت تُرزق في الهيكل كحمامةٍ، وكانوا يأتون إليها برزقها من السّماء بواسطة ملائكة الله، ولما كانت تسجد في الهيكل كانت ملائكة الله يخدمونها، وكثيراً ما حدث أنّهم كانوا يأتون لها بأثمارٍ من شجرة الحياة، فكانت تأكلها بانشراحٍ}

وورد، أيضاً، في كتابٍ قبطيٍّ يسمّى «حكاية رحلة يوسف»، ما نصّه:

(١) الاصحاح ١، الآيات ٢٨-٣٥. وهو أطول الأناجيل الأربعة، وأطول كتابٍ في العهد الجديد؛ جنباً إلى جنب مع سفر أعمال الرّسل يشكّلان جزئين اثنين لعملٍ واحدٍ من تأليف المؤلّف نفسه، ويُسمّيان لوقا- أعمال. ومصادر هذا الإنجيل هي إنجيل مرقس، وتجميعة أقوالٍ افتراضيّةٍ تسمّى «الوثيقة ق»، ومجموعةٌ من المحتويات تسمّى «المصدر ل»، والتي لا توجد إلّا في هذا الإنجيل. أمّا تاريخ تأليفه الأكثر احتمالاً فهو بين سنتي ٨٠-١١٠م، وهناك أدلّةٌ على أنّه كان لا يزال قيد التّنقيح خلال القرن ٢م. (المراجع)

{إنّ مريم... كانت تقيم في الهيكل، وتعبد الله، هنا، بطهارة النيّة، وكانت تنمو إلى أن بلغت سنّ الاثنتي عشرة سنةً، فأقامت في بيت والديها مدّة ثلاث سنين، وفي هيكل الرّبِّ تسع سنين، أيضاً. ثمّ لما رأت الكهنةُ أنّ تلك العذراء اشتهرت بالعفاف، ولم تزل خائفةً من الرّبِّ، تشاوروا بعضهم مع بعضٍ قائلين: لنفتّش على رجلٍ صالحٍ لتكون خطيبةً له إلى أن يحلّ وقت عرسها... ودعوا، فوراً، سبطَ يهوذا، واختاروا منه اثني عشر رجلاً، بحسب عدد أسباط بني إسرائيل الاثني عشر، فوقعت القرعة على يوسف، ذلك الرّجل الشّيخ الصّالح}.

وبعد ذلك، لما حبلت مريم أحضروها مع يوسف أمام الكاهن واشتكوها. وورد في (اليورت يو أنجيليون)، في الفصل الخامس عشر، ما نصّه:

{فقال الكاهن: يا مريم! لماذا فعلت ذلك، وثلمت عرضك؟ أنتِ نسيت الرّبَّ إلهك، مع إنّك تربّيت في قدس الأقداس، وكنت تتناولين الطّعام من يد الملاك، وكنت تسمعين التّرنيمات (الإلهيّة)... لماذا فعلت هذا؟ فبكت بشدّةٍ، وقالت: حيٌّ هو الرّبُّ، إنّني طاهرةٌ أمامه، ولا أعرف رجلاً}

ثمّ ذُكر أنّ يوسف ومريم خرجا من النّاصرة إلى بيت لحم، ولم يجدا محلّاً في الخان، فأقاما في مغارةٍ، حيث ولد فيها يسوع (المسيح عيسى)، كما ذكر في الاصحاح الثّامن عشر، من ذلك الكتاب. وهاك

نصّ عبارته وهي:

{إنّ (يوسف) وجد مغارةً، وأدخلها فيها.... وأنا يوسف.... شخصتُ بعيني إلى السّماء، فرأيت قبّة السّماء واقفةً، وطيور السّماء ترتعد. ثمّ نظرت إلى الأرض، فرأيت قصعةً موضوعةً، والعملة جالسين وأيديهم في القصعة، فالذين كانوا يتناولون الطّعام لم يتناولوه، والذين كانوا يضعونه في أفواههم لم يضعوه، بل كانت وجوه جميعهم مرتفعةً إلى فوق، ورأيت غنماً مسوقةً، وقد وقفت، فرفع الرّاعي (يده) ليضربها فوقفت يده مرفوعةً، ثمّ حوّلت نظري إلى مجرى ماءٍ، فرأيت بعض الجداء، وكانت أفواهها مرتفعةً فوق الماء، ولم تشرب، فنظرت أنّ كلّ شيءٍ كان في غاية الدّهشة}

واعلم أنّ هذه الخرافة هي أصل القصّة الواردة في «روضة الأحباب عن الغرائب والعجائب»[1] التي يقال أنها حصلت عند مولد محمّدٍ.

وربّما ردّ بعض علماء المسلمين على هذه الأدلّة بقولهم: أنّ هذا برهانٌ على صحّة النّبأ الوارد في القرآن بخصوص مريم؛ لأنّنا نعلم

(١) لم أقف على كتابٍ بهذا الاسم عن سيرة النّبي محمّدٍ، إنما وجدت كتباً ذات صلةٍ بهذا العنوان مثل: «روضة الأحباب في سير النّبي - عليه الصّلاة والسّلام - والآل والأصحاب»، وهو بالفارسيّة، لجمال أو (جلال) الدّين بن عطاء الله الشيرازي النّيسابوري (١٠٠٠هـ). و«روضة الأحباب في اختصار الاستيعاب» ليحيى الحلبي (٦٣٠م). ينظر: كشف الظّنون عن أسامي الكتب والفنون، ج١، ٩٢٢. (المراجع)

الآن أنّ كثيراً من كتب المسيحيّين القديمة المشابهة لهذه الكتب تؤيّد ما أورده القرآن في هذا الصّدد. قلنا: لا يخفى على العاقل النّبيه، أنّه يلزم قبل الاعتماد على شهادة شاهدٍ البحث عن صفاته وخلاله وصحّة أقواله أفمن الواضح، أنّنا إذا جرينا في كتب البدع هذه، بموجب هذه القاعدة، انهارت دعائم بنائها وشهادتها، وسببه: أنّها؛ أوّلاً لا يركن إليها، وثانياً أنّها ليست قديمةً جدّاً، فإنّ النّصوص الواردة في الأناجيل القانونيّة الصّحيحة أقدم منها عهداً جدّاً، وثالثاً لم يعتمد ولن يعتمد عليها أحَدٌ من العلماء، فإنّها مجرّد خرافاتٍ، أَلَّف أغلبها الذين يعبدون المباركة مريم، وكانوا أَلّفوها لتكون مسوّغاً لعبادتهم الصّنميّة.

وبصرف النّظر عن كلّ هذا، فهي تدلّ على جهلٍ مركّبٍ مطبقٍ؛ لأنّه لم يكون يجوز تربية أيّة ابنةٍ كانت في الهيكل بين الكهنة، بل لم يكن يمكن لها الإقامة في قدس الأقداس، إذ لم يكن مسموحاً لأحَدٍ أن يدخله إلّا رئيس كهنة اليهود، فقط، بل إنّ هذا الرّئيس نفسه لم يكن يسوّغ له أن يدخله إلّا مرّةً واحدةً في السّنة، وذلك في يوم الكفّارة العظيم. فكان يُقدِّم الذّبيحة، ويأتي بالدّم ليقدّمه أمام الله في

قدس الأقداس: (لاويين[1]، وعبرانيين[2]، على إنّه لم يرد في الأناجيل ذكرٌ لاسم أمّ مريم. ولكن أصحاب البدع زعموا أنّ اسمها حنّة؛ لسببين:

أوّلها- أنّه ورد في إنجيل لوقا[3] أنّ نبيّةً عجوزاً تُدعى حنّة.

وثانياً- أنّ لفظة حنّة هي اسم أمّ صموئيل النّبي.

أمّا قصّة نذر مريم لله سبحانه وتعالى، قبل الحبل بها، في بطن أمّها، وأنّها تربّت في الهيكل، فمخترعةٌ وملفّقةٌ، تقليداً لقصّة صموئيل النّبي الحقيقيّة الورادة في «صموئيل الأوّل»[4]، وما دروا أنّ هذا كان جائزاً في الحالة التي يكون فيها النّذير صبيّاً، ولكنّه لا

(١) الاصحاح ١٦، الآية ٢. سفر اللّاويّين: أحّد الأسفار المقدّسة في التّناخ. أصل التّسمية تعود إلى مفردة لاوي، وهو أحّد أسباط بني إسرائيل الإثني عشر. وقد عهد إلى هذا السّبط شؤون الخدمة الكهنوتيّة في المجتمع اليهودي بشكلٍ حصري؛ أمّا في التّرجمة اليسوعيّة للكتاب المقدّس فيظهر السّفر تحت اسم سفر الأحبار. ويعتبر السّفر الثّالث من حيث التّرتيب في الكتاب المقدّس. وهو سفرٌ تشريعي، وليس سفرًا يروي أحداثًا تاريخيّة. (المراجع)

(٢) الاصحاح ٩، الآية ٧.

(٣) الاصحاح ٢، الآية ٣٦.

(٤) الاصحاح ١، الآيات ١١، ٢٤، ٢٨؛ الاصحاح ٢، الآيات ١١، ١٨-١٩. هو تاسع أسفار التّناخ. يصنّف ضمن الأسفار التّاريخيّة أو النّبويّة القديمة، أي تلك القريبة من فترة القضاة وحكمهم. وفقًا للتّقاليد اليهوديّة، قام صموئيل بكتابة هذا السّفر، مع إضافاتٍ من الأنبياء جاد وناثان، إلّا أنّ التّفكير العلمي الحديث هو أنّ التّاريخ التّثنوي بأكمله تألّف في الفترة بين ٦٣٠-٥٤٠ ق. م. من خلال الجمع بين عددٍ من النّصوص المستقلّة من مختلف العصور. (المراجع)

يجوز في الحالة التي يكون فيها النّذير صبيّةً، كما يسلّم بذلك كلّ من له إلمامٌ بعادات الشّرق. فبناءً على ذلك تكون شهادة هذه الخرافات لتأييد القرآن ساقطةً. على إنّ المشابهة بينها وبين ما ورد في القرآن تدلّ على إنّ محمّداً اتّخذها من مثل هذه الخرافات التّافهة.

ثمّ إنّ ما ورد في سورة مريم[1]، بخصوص الجنّي الذي تساقطَ من النّخل على مريم، مأخوذةٌ من كتابٍ ملفّقٍ يُدعى (حكاية مولد مريم وطفوليّة المخلّص)، فقد ورد في الفصل العشرين من ذلك الكتاب ما نصّه:

{ولكن في اليوم الثّالث، بعد ارتحاله، حدث أنّ مريم تعبت في البريّة، من شدّة حرارة الشّمس. فلمّا رأت شجرةً قالت ليوسف: لنسترح هُنيهةً تحت ظلّ هذه الشّجرة. فبادر يوسف، وأتى بها إلى تلك النّخلة، وأنزلها من على دابّتها. ولما جلست مريم شخص بعينيها إلى أعلى النّخلة فرأتها ملآنةً بالتّمر، فقالت ليوسف: يا ليتني آخذ قليلاً من تمر هذا النّخل. فقال لها: يا للعجب! كيف تقولين هذا وأنت ترين أنّ أفرعَ هذه النّخلة عاليةٌ جدّاً؟! لكنّني في غاية القلق بخصوص الماء؛ لأنّ الماء الذي في قريتنا قد نفد، ولا يوجد محلٌّ نملأها منه لنروي ظمأنا. ثمّ قال الطّفل يسوع، الذي كان متّكئاً على صدر أمّه، مريم العذراء، ووجهه باشٌّ: يا أيّتها الشّجرة! اهبطي أفرعَك لتنتعش أمّي بثمرك. وحالما سمعت النّخلة هذا الكلام

(١) الآية ٢٥: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾. (المراجع)

طأطأت فوراً برأسها، عند موطئ قدمي مريم. فالتقط الجميع من التّمر الذي كان عليها وانتعشوا، وبعد ذلك لما التقطوا جميع ثمرها استمرّت النّخلة مطأطئةً رأسها؛ لأنّها كانت منتظرةً الارتفاع بأمرِ مَن قد طأطأت رأسها بأمره. فقال لها يسوع: ارفعي رأسك يا أيّتها النّخلة! وانشرحي صدراً، وكوني من أشجاري التي في الجنّة أبي، ولكن افتحي بجذورك الينبوع المستتر في الأرض، وليفض المياه من هذا الينبوع... ففي الحال انتصبت النّخلة، ونبعت من جذورها مجاري مياهٍ زلازلٍ صافيةٍ باردةٍ، آيةٍ في غاية الحلاوة، ولما رأوا مجاري المياه هذه فرحوا فرحاً عظيماً جدّاً، فرووا ظمأهم مع جميع بهائمهم وخدمتهم، وحمدوا الله}

فلا فرق بين هذه الخرافة وبين القصّة الواردة في القرآن إلّا في هذا، وهو أنّه يُفهم من رواية القرآن أنّ هذه الحادثة العجيبة حصلت عند ولادة المسيح، ولكن يُفهم من هذه القصّة القديمة أنّ هذه الحادثة حصلت لما كان يوسف ومريم بعد ذلك بمدّةٍ قليلةٍ مسافرين إلى مصر.

وإذا قيل: مِن أين اتّخذ أصحاب البدع والخرافات هذه القصّة؟ قلنا: إنّ هذه القصّة واردةٌ بالصّورة الواردة في القرآن، وبالصّورة الواردة في كتب أصحاب البدع، في كتب أصحاب بودا، الذي ولد في الهند قبل التّاريخ المسيحي بنحو ٥٥٧ سنة، فورد في أحد هذه

الكتب المسمّى «ندانه كها جاتكم»[1]، ذكر ولادة بودا، وقيل أنّه: لما حبلت أمّه توجّهت من قصر زوجها إلى قصر الملك أبيها، لتلد هناك، ولما كانت سائرةً في الطّريق عرجت مع خادمتها على غابةٍ جميلةٍ، ثمّ قيل ما نصّه:

{إنّها قربت من أسفل شجرة (سال) طيبة الفأل، وتمنّت لو تمسك فرعاً من شجرة السّال هذه، فانثنى فرع شجرة السّال، كأنّه قصوى عصا، صار تليينها ببخارٍ، وقَرُبَ من قبضة يد السّائرة، فمدّت يدها، وأمسكت الفرع، فجاءها المخاض، ووضعت لما كانت واقفةً ممسكةً بفرع شجرة السّال}

ووردت هذه القصّة بصورةٍ أخرى في كتابٍ من كتب أصحاب بودا، يسمّى «جرياتكم»[2]، وذلك أنّ بودا في حياته السّالفة، (على مذهب التّقمّص)، كان أميراً يُدعى «ويسنترو»، ثمّ حصل أن طُرد ونُفي مع قرينته وولديه الصّغيرين من المملكة، فقطعا الفيافي والجبال الشّاسعة القاصية، باحثين عن ملجأٍ يلجئون إليه. فاشتدّ الجوع بالولدين، وقيل في نصّ الكتاب[3]:

{فاذا رأى الطّفلان أشجاراً حاملةً ثماراً عند سفح الجبل بكيا؛ للحصول على ثمرها، فلما رأت الأشجارُ الباسقة الولدين باكيين،

(١) فصل ١، ٥٠-٥٣.

(٢) الفصل الأوّل، قصيدة ٦.

(٣) الآيتان ٣٤-٣٥.

طأطأت رؤوسها، واقتربت من الولدين}

فمن الواضح البيّن، أنّ أصحاب البدع ومؤلّف القرآن اتّخذوا قصصهم من هذه القصّة، وإن كانوا لم يعرفوا أصلها الحقيقي، ولا لزوم لنوضّح البون الشّاسع والفرق الجسيم بين الأناجيل الصّحيحة الصّادقة وبين كتب أصحاب البدع الموضوعة. فإنّ الحواريّين الذين كتبوا أناجيلهم الصّادقة الصّحيحة بوحي الله، المقبولة عند جميع المسيحيّين، هم في غنى عن الانتحال من قصص الوثنيّين؛ لأنّهم دوّنوا كتبهم ممّا شاهدوه وعرفوه أو ما بلغهم من شهادة الذين عاينوا الحوادث بأعينهم[1]. وكانوا، في كلّ حالٍ من الأحوال، تحت ارشاد الوحي الإلهي والإلهام الرّباني، وعاشوا في عصر المسيح ذاته، ولكن لما كان أصحاب البدع قد كتبوا كتبهم في الأزمنة المتأخّرة، وكانوا جهلةً سذّجاً مولعين بتصديق الخزعبلات، دوّنوا في كتبهم التي ألّفوها للجّهلة وللعوام المغرمين بحبِّ الغرائب قصصاً كثيرةً لم يعرفوا أصلها. فظهر من هذه الخرافة وأمثالها أنّ المعترضين على القرآن أوردوا أدلّةً كثيرةً لتأييد قولهم من أنّ «النّبي الأميّ» انخدع بمثل هذه الخرافات. فتنبّه.

(٣) قصّة طفوليّة يسوع (المسيح عيسى): ورد في سورة آل عمران[2]، أنّه قبل مولد (المسيح عيسى) قال الملاك:

(١) ينظر: لوقا، الاصحاح ١، الآيات ١-٤.

(٢) الآيات ٤٦-٤٩.

﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ... إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾

وكذلك ورد في سورة المائدة[1] ما نصّه:

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾

واعلم أنّه اختطف أغلب هذه المواد المذكورة، هنا، من كتبٍ كاذبةٍ لا من إنجيلٍ؛ لأنّه اتّضح ممّا تقدّم أنّ مخاطبة يسوع الموهمة لشجرة النّخل هي مبنيّةٌ على ما توهّمه البعض من أنّه تكلّم في المهد. أمّا من جهة معجزة احياء الطّير المصنوع من الطّين فأُخذت من كتابٍ يوناني كاذبٍ اسمه «بشارة توما الإسرائيليّ»[2]؛ لأنّه ورد في

(١) الآية ١١٠.

(٢) من بين المخطوطات المكتشفة في «نجع حمّادي»، وجد كتاب باسم «إنجيل توما»، يرجع للقرن الخامس الميلادي، ويرجّح بأنّه من كتب الغنوصيّين المنسوبة لرسل المسيح، وهو مكتوبٌ باللّغة القبطيّة. ويسمّى أيضاً بكتاب «توما الإسرائيلي»، وهو كتابٌ غير قانوني موحى به، بل هو نصٌّ مسيحي شعبي، يخلط بين الأدب

هذا الكتاب السّاقط، (فصل ثان)، ما نصّه:

{لما بلغ الصّبي يسوع من العمر خمس سنين كان يلعب في جدولٍ فجمع المياه الجّارية إلى بحيراتٍ، وكان يجعلها، على الفور، نظيفةً، ورتّبها، بمجرّد كلمةٍ، ثمّ جمع بعض طينٍ ناعماً، وصنع منه اثني عشر عصفوراً، وكان يوم السّبت، لما فعل هذه الأشياء. ومع إنّه كان يوجد أولادٌ كثيرون يلعبون معه إلّا أنّه لما رأى أحّد اليهود ما فعله يسوع، وأنّه كان يلعب في يوم السّبت، ذهب وأخبر والده يوسف قائلاً: إنّ ابنك هو عند جدول المياه، وقد أخذ طيناً وصنع منه اثني عشر طيراً، ونقض يوم السّبت، فأتى يوسف إلى المحلّ، وعاين ما فعله الولد فصرخ قائلاً له: لماذا تفعل في السّبت هذه الأشياء التي لا يحلّ فعلها فطبق يسوع كفّيه الواحد على الآخر، وصاح بالعصافير قائلاً لها: اذهبي. فطارت العصافير، فذُهل اليهود الذين شاهدوا هذه الأمور، ولما انصرفوا أخبروا رؤسائهم بما فعله يسوع}

وهذه الخرافة كلّها توجد، أيضاً، في كتابٍ عربي ساقطٍ يُسمّى «إنجيل الطّفوليّة»[1]، وذُكرت بصورةٍ أخرى، في الفصل ٤٦ من هذا

الشّعبي والأساطير والمبالغات الخرافيّة الأسطوريّة والفكر الغنوصي والأساطير الهنديّة. ويرجع إلى القرنين الثّاني والثّالث للميلاد. وقد كتب كأدبٍ إعجازي يرويه العامّة من النّاس ليشبع فضولهم لمحاولة معرفة الكثير عن حياة المسيح في طفولته، لعدم ذكر الأناجيل القانونيّة لتفصيلات حياته في هذه الفترة؛ باستثناء ما سجّله كلٌّ من إنجيلي متّى ولوقا. (المراجع)

(١) فصل ٣٦. وإنجيل الطفولة لتوما هو إنجيل سيرةٍ يروي قصّة طفولة يسوع، يُعتقد أنّه مكتوبٌ في نهاية القرن الثّاني الميلادي، وهو ليس معدودًا في ضمن القانون

الكتاب؛ لأنّ آخر هذا الكتاب مأخوذٌ من بشارة توما الإسرائيليّ.

ولنرجع الآن إلى ما ذُكر من أنّ يسوع تكلّم لما كان طفلاً في المهد. جاء في سورة مريم[1]، أنّه لما وبّخ القومُ مريم أشارت إلى الطّفل يسوع (المسيح عيسى) ليُجيب عنها. فلمّا قالوا لها:

﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾

أجاب يسوع (المسيح عيسى) قائلاً:

﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾

وورد في «إنجيل الطّفوليّة»، في الفصل الأوّل ما نصّه:

{قد وجدنا في كتاب يوسيفوس[2] رئيس الكهنة الذي كان على عهد المسيح، وقد قال أُناسٌ: أنّ قيافا قال: هذا إنّ يسوع تكلّم حين كان في المهد. وقال لمريم أمّه: إنّي أنا هو يسوع ابن الله، الذي ولدتِني، كما بشّرك جبرئيل الملاك، وأبي أرسلني لخلاص العالم}

الكنسي. يُعتقد أنّه سفرٌ غنوصي. اعتبره المسيحيّون الأوائل هرطقةً وسفرًا غير موثوق. (المراجع)

(١) الآيتان ٢٩-٣٠.

(٢) يوسيفوس فلافيوس، أو يوسيبوس، أو باسمه العبري يوسف بن ماتيتياهو (١٠٠م): أديبٌ ومؤرّخٌ وعسكري يهودي. عاش في القرن ١ م. واشتهر بكتبه عن تاريخ منطقة يهوذا، والتّمرّد اليهودي على الإمبراطوريّة الرّومانيّة، والتي تلقي الضّوء على الأوضاع والأحداث في فلسطين خلال ذلك القرن إلى حين انهيار مملكة يهوذا، وظهور الدّيانة المسيحيّة، والتّغييرات الكبيرة في اليهوديّة بعد فشل التّمرّد على الرّومان، ودمار هيكل هيرودس. (المراجع)

فإذا قارنا بين هذا القول وما ورد في القرآن نرى أنّ محمّداً غيّر في هذه الأقوال الوهميّة المنسوبة إلى المسيح يسوع بكيفيّةٍ تلائم اعتقاده وتعليمه. ولكن ممّا لا شكّ فيه أنّ محمّداً اتّخذ هذه القصّة الكاذبة من الكتاب المذكور. وإذا سأل سائلٌ قائلاً: كيف توصّل إلى انتحالها؟ وأنّى تيسّر له ذلك؟ قلنا: إنّ الكتاب المسمّى «إنجيل الطّفوليّة» مترجمٌ من القبطيّة إلى اللّغة العربيّة، وبما أنّ ماريّة القبطيّة كانت من سراري محمّدٍ، فلا بدّ أنّه سمع هذه الخرافة منها؛ لأنّها كانت جاهلةً، فتوهّمت أنّ هذه القصّة كانت في الإنجيل الصّحيح الأهلي، فأخذها منها، وتصرّف في روايتها الشّفاهيّة قليلاً، ونقّحها، ودوّنها في القرآن.

فإذا أصرّ إنسانٌ وقال: ربّما تكون هذه القصّة صحيحةً. فالجواب على ذلك: أنّه لا يمكن أن تكون هي وما شاكلها من القصص التي أوردناها صحيحةً؛ لأنّه يؤخذ من «إنجيل يوحنّا»[1]، أنّ المسيح لم يفعل معجزةً في طفوليّته؛ لأنّه ذكر في أثناء سياق كلامه على معجزةٍ صنعها، لما بلغ من العمر أكثر من ثلاثين سنة، أنّ الآية المذكورة

(١) الاصحاح ٢، الآية ١١. وهو رابع الأناجيل القانونيّة، من العهد الجديد، وهو سردٌ تخطيطي للغاية لفترة خدمة يسوع. هناك اختلافٌ حول تاريخ كتابة الإنجيل، والرّأي الأرجح أنّه كُتب بين عامي (٩٠-١١٥م)، ويقول آخرون أنه وصل إلى شكله النّهائي بين عامي (٩٠-١١٠م)، على الرّغم من أنّه يحتوي على علامات نشأةٍ تعود إلى عام ٧٠ ميلادي، وربما قبل ذلك. يعتبر أسلوب الكاتب من حيث اللّغة اليونانيّة الأقلّ تأثراً باللّغة الآراميّة، ممّا يدلّ حسب النّقّاد على مؤلّفٍ يوناني. (المراجع)

كانت بدء معجزاته وآياته.

غير إنّ سائر معجزات يسوع (المسيح عيسى) المذكورة في القرآن هي حقيقيّةٌ، وحصلت فعلاً، ما عدا معجزة المائدة التي ادّعى القرآن أنّ المسيح أنزلها من السّماء. أمّا ما ذُكر في القرآن من أنّه طهّر البرص، وأقام الموتى، وأعطى بصراً للعميان، فهو مطابقٌ لما ورد في الأربع البشائر الأصليّة الصّحيحة. أمّا ما ورد في القرآن بخصوص المائدة فهو في سورة المائدة، ونصّه[1]:

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء قَالَ اتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ، قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ، قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ، قَالَ اللّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾.

وعُلِم بعد الاستقصاء التّامّ، أنّه لم يرد ذكرٌ لهذه المعجزة في أيّ كتابٍ من الكتب المسيحيّة، ولا شكّ أنّه لم تحصل هذه الحادثة العجيبة. ولكنّنا نرى أنّ هذه القصّة نشأت عن عدم فهم بعض عباراتٍ واردةٍ في العهد الجديد، مثلاً ورد في إنجيل متّى[2]، وانجيل

(١) الآيات ١١٢-١١٥.

(٢) الاصحاح ٢٦، الآيات ٢٠-٢٩.

مرقس[1]، وانجيل لوقا[2]، ذكرٌ للعشاء الرّبّاني الذي اشترك فيه المسيح عيسى مع الحواريّين، في آخر ليلةٍ من وجوده بالجسد، في هذه الحياة الدّنيا، وذلك قبل يوم صلبه على الصّليب. ومن ذلك الوقت إلى هذا الوقت يمارس المسيحيّون الحقيقيّون العشاء الرّبّاني، حسب أمره تذكاراً لصلبه. وقد ورد في إنجيل لوقا[3] ما نصّه، بخصوص مائدة المسيح عيسى، وهو:

{لتأكلوا وتشربوا على مائدتي في ملكوتي، وتجلسوا على كراسي، تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر}

ولكن إذا سأل سائلٌ وقال: لماذا يقول المسلمون أنّ هذه المائدة نزلت من السّماء؟ قلنا: الجواب عن ذلك، ربّما توهّموا أنّ لهذا علاقةً بما ذُكر في «أعمال الرُّسل»[4]، ونصّ العبارة هو:

{ثمّ في الغد، فيما هم يسافرون ويقتربون إلى المدينة، صعد بطرس على السّطح ليصلّي نحو السّاعة السّادسة، فجاع كثيراً، واشتهى أن يأكل، وبينما هم يهيّئون له، وقعت عليه غيبةٌ فرآى السّماء مفتوحةً، وإناء نازلاً عليه مثل ملاءةٍ عظيمةٍ مربوطةٍ بأربعة أطرافٍ، ومُدلّاةٍ على الأرض، وكان فيها كلّ دواب الأرض والوحوش والزّحافات

(١) الاصحاح ١٤، الآيات ١٧-٢٥.

(٢) الاصحاح ١٣، الآيات ١-٣٠.

(٣) الاصحاح ٢٢، الآية ٣٠.

(٤) الاصحاح ١٠، الآيات ٩-١٦.

وطيور السّماء، وصار إليه صوتٌ: قم يا بطرس! اذبح، وكُل. فقال بطرس: كلّا يا رب! لأنّي لم آكل، قط، شيئاً دنساً أو نجساً. فصار إليه صوتٌ ثانيةً: ما طهّره الله فلا تدنّسه أنت. وكان هذا على ثلاث مرّاتٍ، ثمّ ارتفع الإناء، أيضاً، إلى السّماء}.

غير إنّ هذه كانت رؤيةً، فقط. ولا شكّ أنّ عدم فهم الكتاب المقدّس حقَّ الفهم هو منشأ حكاية المائدة في القرآن. ونتقدّم، الآن، إلى بعض ما ذُكر في القرآن بخصوص المسيح عيسى، وأمّه مريم العذراء؛ فمن ذلك ما ذُكر في القرآن في سورة المائدة، ونصّه[1]:

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾

وكذلك ورد في سورة النّساء ما نصّه[2]:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾

---

(١) الآية ١١٦.

(٢) الآية ١٧١.

وكذلك ورد في سورة المائدة ما نصّه[1]:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

فيتّضح، من هذه الآيات، أنّ محمّداً سمع، كما قال جلال الدّين، ويحيى، من بعض أصحاب البدع من النّصارى، أنّه يوجد ثلاثة آلهة، حسب وهمهم. وهم الله سبحانه وتعالى، ومريم، وعيسى. فردّ القرآن على آراء أصحاب البدع الكفريّة، وكرّر المرّة بعد الأخرى: أنّ الله واحدٌ. وكلٌّ من له إلمامٌ بالتّوراة والإنجيل يعرف أنّ وحدانيّة الله هي أساس الدّين المسيحيّ؛ لأنّه ورد في التّوراة، في التّثنية[2]:

{اسمع يا إسرائيل!: الرّبّ إلهنا إلهٌ واحدٌ}

وفي «إنجيل مرقس»[3] استشهد المسيح بهذه الآية، وأيّد صحّتها بغاية التّأكيد، ولم يقل مسيحيٌّ حقيقيٌّ بأنّ مريم هي إلهٌ. نعم، لا يُنكر أنّه ممّا يُحزن الفؤاد، ويُوجب الأسف، أنّ عبادة مريم دخلت بعض الكنائس، ولكنّها في الحقيقة عبادة أصنامٍ. ومع إنّ هذه العبادة مناقضة لوصايا الله، ومنافية لتعاليم التّوارة والإنجيل، إلّا أنّها موافقةٌ لبعض الكتب الموضوعة التي اقتبس منها محمّدٌ القصص

(١) الآية ٧٣.

(٢) الاصحاح ٦، الآية ٤.

(٣) الاصحاح ١٢، الآية ٢٩.

المذكورة بخصوص مريم العذراء؛ فقد ورد في سورة النّساء[1] أنّ اليهود قالوا:

﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾

فتعليم القرآن في هذه العبارة منافٍ، على خطٍّ مستقيم، لجميع كتب الأنبياء والحواريّين، ولكنّه يطابق غاية المطابقة مذاهب بعض أصحاب البدع الضّالين؛ لأنّ إيرينيوس[2]، أحّد علماء المسيحيّين القدماء قال: إنّ باسليديس الذي كان أحّد زعماء أصحاب البدع، في الأزمنة القديمة، كان يعلّم أشياعه وأتباعه مثل هذه البدعة، فقال إيرينيوس: أنّ باسليديس كان يعلّم أنصاره وأتباعه أنّ المسيح:

{لم يتألّم، وأنّ شخصاً اسمه سمعان من قيروان التزم أن يحمل

(١) الآية ١٥٧.

(٢) القديس إيرينيئوس (٢٠٢م): هو أسقف مدينة لوغدونوم في بلاد الغال، ثمّ أصبح علمًا وجزءًا من الإمبراطوريّة الرّومانيّة (الآن هي مدينة ليون، بـ فرنسا). وكان أحّد أشهر آباء الكنسية الأوائل، ومن أهمّ المدافعين عن العقيدة المسيحيّة، وكانت كتاباته تقويميةً خلال فترة بداية انتشار ونمو علم اللّاهوت المسيحي. كتب العديد من الكتب أهمّها كتابه الشّهير Adversus Haereses أو ضدّ الهرطقات، حيث قدّم فيه تفنيدًا وهجومًا مفصّلاً ضدّ الغنوصيّة، التي كانت تُعد آنذاك خطرًا حقيقيًا يهدّد الكنيسة، خاصة الفكر الغنوصي المُنتمي لمدرسة فالانتينوس الغنوصي، والذي يعدّ أحّد أشهر اللّاهوتيّين الغنوصيّين المسيحيّين المبكّرين. (المراجع)

صليبه لأجله، وأنّ هذا الرّجل هو الذي صُلب جهلاً وخطأً، فإن المسيح غيّر شكل هذا الرّجل لكي يتوهّموا أنّه عيسى نفسه}.

فمن هنا يظهر أنّ محمّداً اتّخذ هذا المذهب عن أشياع باسليديس ومؤيّديه. ومع ذلك فكلّ من ينكر أنّ المسيح صُلب حقيقةً، ومات على الصّليب، يناقض تعاليم الأنبياء والحواريّين في ذلك؛ لأنّ الأنبياء تنبّؤوا، من قبل، بأنّه لابدّ أنّ المسيح الموعود به يَبذل حياته الكريمة الثّمينة، ويكفّر كفّارةً تامّةً كاملةً عن خطايا جميع النّوع الإنساني. وشهد الحواريّون، أيضاً، قائلين: أنّهم كانوا حاضرين، وشاهدوا بأعينهم مخلّصهم مصلوباً، ولكنّ محمّداً لم يدر أنّ انكار باسيليديس الزّائغ لصلب المسيح هو بدعةٌ مبنيّةٌ على ضلالةٍ من ضلالاته، وعلى مذهبٍ من مذاهبه الفاسدة الزّائغة؛ فإنّه ذهب إلى أنّ المسيح لم يتّخذ طبيعةً بشريّةً حقيقةً، ولكنّه اتّخذ شبه جسدٍ لا وجود له حقيقةً. وأنّه كان لا يمكن أن يولد أو يتألّم أو يُصلب، ولكنّه خدع النّاس، وأغراهم على التّصديق بأنّه تألّم وصُلب. ولكن هذا المذهب الزّائغ عن الحقّ هو منافٍ، على خطٍّ مستقيمٍ، لكلّ ما في الإنجيل والقرآن. فلذا كان لا يجوز أن ينهار بناؤه وأركانه، وإذا كانت أصوله كاذبةً فكيف تثبت فروعه التي هي أقلّ قيمةً من أساسه. ولكنّ محمّداً قبل الفروع ودونها في قرآنه، وصرف النّظر عن الأصل والمبدأ الذي بُني لمحمّدٍ أن يقبل ضلالات باسيليديس وأوهامه الفاسدة، بل أن ينبذ فلسفته الكاذبة؛ لأنّه إذا هدم أساس أيّ مذهبٍ كان لابدّ عليه الفرع، وهذا سبب ادخاله هذه الآية في القرآن.

وذهب المسلمون إلى أنّ المسيح أوصى تلاميذه أن ينتظروا مجيء نبيٍّ آخر اسمه (أحمد)، وأراودا آيةً من القرآن لتأييد هذا الوهم والزّعم، فإنّه ورد في سورة الصّف ما نصّه[1]:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾

ولا شكّ ان هذه الآية تشير إلى ما ورد في «انجيل يوحنّا»[2] بخصوص «الفارقليط» أو «البارقليط»[3]، وهو المعزّي. لكن كلّ من طالع هذه الاصحاحات، بتروٍّ وامعان نظرٍ، يرى أنّه لم يرد فيها ذكرٌ لنبيٍّ يأتي بعد المسيح، بل الحال بالعكس، فإنّ المسيح كان يتكلّم عن الرّوح القدس، كما هو واضحٌ من هذه الآيات. وقد تمّ وعد

(١) الآية ٦.

(٢) الاصحاح ١٤، الآيات ١٦-٢٦؛ والاصحاح ١٥، الآية ٢٦؛ والاصحاح ١٦، الآية ٧.

(٣) البراقليط Paracletus: مصطلحٌ يوناني كويني يعني المُعزّي أو المُعين أو الشّفيع أو المساعد. استخدم في رسالة يوحنّا للإشارة إلى المسيح، وللإشارة لعمل الرّوح القدس في إنجيل يوحنّا. واستعمل في اليونانيّة القديمة كما في إحدى خطب ديموستيني، في إشارةٍ إلى محامٍ أو من يُستعان به في سياقٍ قضائي. وتطوّر المصطلح بعد أن استعير في التّرجمة السّبعينيّة للتّناخ، ومن ثمّ في إنجيل يوحنا، ليعني المدافع كمضادٍّ للمُتّهم (الشّيطان). ويعرف الفارقليط بأنّه روح القدس الذي نزل على التّلاميذ يوم الخمسين ليعزّيهم في فقدهم ليسوع. (المراجع)

المسيح بعد صعوده بأيّام قليلةٍ. وورد في «أعمال الرّسل»[1] نبأٌ عن تتميم هذا الوعد، وحلول الرّوح القدس على التّلاميذ.

ومنشأ خطأ القرآن هو أنّه لما كان العرب يجهلون معنى فارقليط توهّموا أنّ ترجمة هذه اللّفظة الحقيقي هو أحمد. والحقيقة أنّ معنى الكلمة اليونانيّة الصّحيح هو معزّ. ولكن توجد لفظةٌ أخرى باللّغة اليونانيّة يجيء النّطق بها إلى آذان الأجنبيّين (مثل العرب مثلاً) قريبةً ممّا يلفظه العرب فارقليط، ومعنى هذه اللّفظة الثّانية هو المشهور الذّائع الصّيت. فيُحتمل أنّ أحّد العرب الذين يجهلون اليونانيّة سمع هاتين اللّفظتين فالتبستا عليه، فتوهّم أنّ معنى فارقليط أحمد. ويسهل وقوع العرب في مثل هذا الخطأ فإنّه إذا سمع أجنبيٌّ عربيّاً يتكلّم عن (قلب) تعذّر عليه التّمييز بين قلبٍ وكلبٍ، بل ربّما توهّم الأجنبي أنّ مراده كلب، فتلتبس عليه العبارة. ولا يخفى أنّ (ماني) المصوّر الشّهير نبغ في بلاد الفرس، وادّعى النّبوّة وقال: إنّ الفارقليط والمسيح شهدا لي. غير إنّ المسيحيّين رفضوا دعواه لاطّلاعهم على حقيقة تعليم الإنجيل، ولمعرفتهم أنّ المسيح عيسى لم يتنبّأ عن نبيٍّ حقيقيٍّ يأتي بعده.

وورد في الأحاديث، بأنّه لما ينزل المسيح من السّماء، يقيم في هذه الحياة الدّنيا أربعين سنة، ويتزوّج[2]. وكلٌّ من له اطّلاعٌ على التّوراة

(١) الاصحاح ٢، الآيات ١-١١.

(٢) انظر: عرائس المجالس، ٥٥٤.

والإنجيل يعرف منشأ هذا الخطأ؛ فقد ورد في «سفر الرّؤيا» ما نصّه[1]:

{لنفرح ونهلّل، ونعطه المجد؛ لأنّ عرس الخروف قد جاء، وامرأته هيّأت نفسها، وأُعطيت أن تلبس بزّاً نقيّاً بهيّاً؛ لأنّ البزّ هو تبرّرات القدّيسين. وقال لي: أكتب طوبى للمدعوّين إلى عشاء عرس الخروف}

ومن المعروف، أنّ لفظة الخروف هي لقبٌ من ألقاب المسيح عيسى. وهنا، ذَكر صريحاً عرسه عند رجوعه إلى الأرض. ولكن إذا سأل سائلٌ وقال: مَن هي العروس؟ وما المراد بهذه الآيات؟ قلنا: إنّ الجواب على ذلك، هو غايةٌ في السّهولة؛ لأنّه ورد في سفر الرّؤيا ما نصّه[2]:

{وأنا رأيت المدينة المقدّسة أورشليم الجديدة نازلةً من السّماء، من عند الله، مهيّأةً كعروسٍ مزيّنةٍ لرَجلها}

فهذه أورشليم الجديدة، يعني الكنيسة المسيحيّة المكمّلة المطهّرة، كما في «أفسس»[3]، هي العروس التي يقترن بها المسيح، أي التي

(١) الاصحاح ١٩، الآيات ٧-٩. وهو سفر رؤيا يوحنّا، وهو السّفر الوحيد ذو الصّفة النّبويّة بين أسفار العهد الجديد، ويأتي ترتيبه الأخير بين مجموع أسفار الكتاب المقدّس. يذكر المؤلف نفسه في النّصّ باسم «يوحنّا»، لكن هويّته الدّقيقة تبقى محلّ نقاش. بعض الباحثين الحديثين يعتبرون المؤلّف شخصيّةً افتراضيّةً يسمّونها «يوحنا البطمسي». والجزء الأكبر من المصادر التّقليديّة تؤرّخ تأليف السّفر إلى عهد الإمبراطور دوميتيان (٨١-٩٦ م). (المراجع)

(٢) الاصحاح ٢١، الآية ٢.

(٣) الاصحاح ٥، الآيات ٢٢-٣٢.

يقبّلها، ويضمّها عند رجوعه، والمراد بقوله يتزوّجها الإشارة إلى المحبّة الكاملة، والاتّحاد التّام بين المخلّص والمخلّصين، فالمراد لازمُ هذه اللّفظة مجازاً. ومن هنا، نرى أنّ هذه القصّة الواردة في الأحاديث نشأت عن عدم فهم أقوال العهد الجديد. أمّا قوله أنّ المسيح يقيم في هذه الدّنيا أربعين سنة بعد رجوعه فهو ناشئٌ عن العبارة الواردة في «أعمال الرّسل»[1]، ومعناها أنّه أقام مع تلاميذه أربعين يوماً بعد قيامته. أمّا ما ورد في الأحاديث والتّفاسير من أنّ المسيح يموت بعد رجوعه، فهو مبنيٌّ على ما ورد في سورة آل عمران[2]، وهو وقوله: ﴿يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾. ولكنّنا لا نجزم بأنّ هذا هو معنى الآية الحقيقي؛ لأنّ هذا التّعليم منافٍ، على خطٍّ مستقيمٍ، لنصوص الكتاب المقدّس الصّريحة. مثلاً ورد في سفر الرّؤيا[3] قول المسيح عيسى ما نصّه:

{أنا هو الأوّل والآخر، والحيّ، وكنت ميّتاً، وها أنا حيٌّ إلى أبد الآبدين. آمين. ولي مفاتيح الهاوية والموت}

غير إنّ أصل ما ورد في الأحاديث بخصوص هذا الأمر هو العبارة الآتية الواردة في كتابٍ مفتعلٍ يدعى «نياحة أبينا القدّيس الشّيخ يوسف النّجّار»، فإنّه ورد في (فصل ٣١) ما نصّه، بخصوص

(١) الاصحاح ١، الآية ٣.

(٢) الآية ٥٥.

(٣) الاصحاح ١، الآيتان ١٧-١٨.

النَّبِيَّيْنِ: «أخنوخ، وإيليّا» اللّذين صعدا إلى السّماء بدون أن يذوقا الموت:

{ينبغي لأولئك أن يأتوا إلى العالم في آخر الزّمان، في يوم القلق، والخوف، والشّدّة، والضّيق، ويموتوا}

وورد كذلك في كتابٍ قبطيٍّ مفتعلٍ اسمه «تاريخ رقاد القدّيسة مريم»[1] ما نصّه:

{أمّا من جهة هذين الآخرين، (أي أخنوخ وإيليّا)، فينبغي أن يذوقا الموت أخيراً}

وبما أنّ الصّحابة، أي أنصار محمّدٍ وأصحابه، سمعوا هذا القول من الذين اطّلعوا على هذين الكتابين السّاقطين ذهبوا، بطريق الاستنتاج، إلى أنّ المسيح لا بدّ أن يذوق الموت، أيضاً، مثل أخنوخ وإيليّا؛ لأنّهم توهّموا أنّه صعد إلى السّماء مثلهما بدون أن يذوق الموت، فهكذا ذهبوا إلى أنّه سيموت بعد مجيئه الثّاني، وفسّروا الآية ٣ الواردة في سورة آل عمران حسب هذا الزّعم الذي زعموه، فقوله

(١) نال موضوع انتقال العذراء أو رقادها، في الأسفار المنحولة أو المكتومة، اهتماماً كبيراً قديماً، مع أنّ لا كلام عنه في العهد الجديد. فالنّصوص عديدةٌ في اللّغات المختلفة: اليونانيّة واللّاتينيّة، والقبطيّة والحبشيّة، والأرمنيّة والجيورجيّة، بل في بعض اللّغات الأوربيّة، أيضاً. والتّوسّعات كثيرةٌ: موت مريم أو رقادها، إقامتها في الفردوس الأرضي (تحت شجرة الحياة)، أو في عدن مع الله، في بيت مريم في أورشليم أو في بيت لحم. وجود الرّسل والملائكة. وفي أفسس حيث يقال أنّ هناك كان بيتها، وهناك دُفنت. (المراجع)

في سورة العنكبوت[1]:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾

ومثلها في سورة آل عمران[2]، وهو مبنيٌّ على هذا المذهب، (ما عدا حادثة موت المسيح عيسى بعد رجوعه)، الذي منشأه أصحاب البدع والضّلالة.

(٤) في ذكر بعض أشياءٍ شتّى أُخذت من كتب المسيحيّين أو من مؤلّفات أصحاب البدع والضّلالة: فمن هذا القبيل الحكاية الواردة في الأحاديث بأنّه لما أراد الله سبحانه وتعالى أن يخلق آدم أرسل الملائكة المقرّبين واحداً بعد الآخر، لكي يأتوا بقبضةٍ من أديم الأرض. ولما خاب مسعاهم نزل أخيراً عزرائيل، ووضع يده وأخذ قبضةً من أديم كلِّ الأرض، وأتى بها إلى المولى سبحانه وتعالى قائلاً: «يا الله أنت تعرف ها أتيت بها»[3]. وقال أبو الفداء، نقلًا عن «تاريخ الكامل» لابن الأثير: «قال النّبي (ص): إنّ الله تعالى خلق آدم (ع) من قبضةٍ قبضها من جميع الأرض، وإنّما سمّيّ آدم؛ لأنّه خُلق من آديم الأرض»[4].

أمّا قضية نزول الملائكة من السّماء لأخذ شيءٍ من أديم الأرض،

(١) الآية ٥٧.

(٢) الآية ١٨٥.

(٣) قصص الأنبياء، ١١.

(٤) صحيح أبي داود، الصّفحة أو الرّقم: ٤٦٩٣. (المراجع)

وأنّـه طلب قبضةً من الأرض، حسـب الأحاديـث، فهو مأخوذٌ من أقوال «مرقيون»[1]، وهو يونانيٌّ من أصحاب البدع الذين مرقوا عن الدّيـن القويـم؛ لأنّ «يذنيق»، أحّد المؤلّفين الأرمـن القديمين جدّاً، أورد في الفصل الرّابع، من كتابه المسـمّى «ردّ البدع» العبارة الآتية، من أحّد كتب مرقيون، وترجمتها:

{ولما رآى إلهُ التّوارة هذا العالم كان جميلاً عزم على عمل الإنسان منه، (أي من هذا العالم)، ولما نزل إلى الأرض، إلى المادّة، (أو الهيولى)، قال: اعطيني شـيئاً من طينك، وأنا أُعطيك نسمةً من عندي.... ولما أعطته المادّة شيئاً من أديمها، خلقَه، (أي آدم)، ونفخ فيه النّسمة.... ولهذا السّبب سُمّي آدم؛ لأنّه خُلق من أديم (الأرض)}.

ومقتضى بدعة مرقيون هو أنّ المراد بالشّـخص الذي يُسـمّيه إله التوراة الذي أخذ قبضةً من الأرض ليخلق منها الإنسـان هو ملاكٌ لا غير؛ لأنّ هذا المبتدع نفسه وأشياعه ذهبوا إلى أنّ التّوراة نزلت من أحّـد الملائكة الذي كان عدوّاً لله تعالى، وكانوا يسـمّون هذا الملاك: ربُّ العالمـين، وخالق المخلوقات، ورئيس هـذا العالم. ولا يخفى أنّ قولهم رئيس هذا العالم أخذوه من الإنجيل، فإنّه أُطلقت هذه اللّفظة

(١) مرقيـون السّـينوبي (١٦٠م): هـو ابن أسـقف سـينوب في إقليـم البنطس (على شاطئ البحر الأسود). تأثّر بالأفكار الغنوصيّة، بعد أن أصبح غنياً فحرمه والده من الكنيسـة، فخرج من سينوب وطاف آسيا الصّغرى حتّى روما. ونشر تعاليمه، وتجمّع حولـه الكثـير من الأتبـاع، فكانت كنيسـته الغنوصيّة أكثـر عدداً من جميـع الكنائس الغنوصيّة السّوريّة. (المراجع)

على الشّيطان(١). ولا شكّ أنّ المسلمين قالوا: أنّ المراد بهذه الآية الإشارة إلى محمّدٍ؛ لجهلهم بمعناها الحقيقيّ.

وذهب مرقيون إلى أنّ هذا الملاك أقام في السّماء الثّانية، وأنّه لم يكن عارفاً، في أوّل الأمر، بوجود الله تعالى، ولكنّه لما عرف بوجوده عاداه سبحانه وتعالى. (وذهب مرقيون إلى أنّ اسم المولى، واجب الوجود، هو الإله المجهول). وحاول الملاك منع النّاس عن معرفة الله، الإله الحقيقي، لئلّا يكرموه ويعبدوه. فكلّ هذه الآراء والمذاهب تشبه مشابهةً بليغةً لما ذهب إليه المسلمون من أنّ عزازيل كان مقيماً، أيضاً، في السّماء الثّانية. ويوجد منشأ باقي قصّة عزازيل في كتب أشياع زردشت، كما سنبيّنه في الفصل الخامس من هذا الكتاب، إن شاء الله تعالى.

وورد في سورة مريم(٢) ما نصّه:

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً* ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً* ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيّاً* وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً* ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً﴾

واختلف المفسّرون في المراد بهذه الآيات، فذهب البعض إلى أنّه

(١) انظر: يوحنا الاصحاح ١٤، الآية ٣٠.

(٢) الآيات، ٦٨-٧٢.

لا بـدّ أنّ كلّ المؤمنين يَرِدون جهنّم، ولكن لا يضرّهم لهبها. وذهب البعـض الآخر إلى أنّ الإشـارة هـي إلى الصّراط الذي لا بـدّ أن يمرّ عليه الجميع، وهو ممدودٌ على جهنّم. أمّا من جهة الصّراط، فسنشـير إليـه في الفصل الخامس، وإنّما مرادنا، هنـا، الكلام على قوله: ﴿وَإِن مِّنكُـمْ إِلاَّ وَارِدُهَـا﴾، فنقـول: إنّه يُحتمل أنّ هذه العبارة تشـير إلى ما استنتجه بعض جهلة المسيحيّين من الآية الواردة في إنجيل مرقس[1] البشـير، والآية الـواردة في «كورنثـوس الأولى»[2]، فإنهّم أخطأوا في تفسـير هاتين الآيتين، واسـتنتجوا منهما اسـتنتاجاً بعيداً، بأنّه يوجد محلٌّ يتطهّر فيه عصاة المسـيحيّين من خطاياهم بواسـطة النّار. ولكن إذا كان المراد من عبارة القرآن الإشـارة إلى الصّراط، فيكون قد أخذ هذا المذهب من أصحاب زردشت، وليس من المسيحيّين، كما سنبيّنه

(١) الاصحـاح ٩، الآية ٤٩. وهو واحدٌ من الأناجيل القانونيّة الأربعة، وواحدٌ من الأناجيل الإزائيّة الثّلاثة. يحكي مسيرة يسوع من المعموديّة على يد يوحنّا المعمدان إلى الموت والدّفن واكتشاف القبر الفارغ. وهو يصوّر يسوع كرجل أفعالٍ بطوليّة، يطارد الأرواح الشّريرة، ومعالجٌ، وصاحب معجزاتٍ. ومذكورٌ كابن الله، لكنّه يبقى هويّته سريّةً (السّرّ المسيحاني). ربّما يعود تأليفه إلى الفترة بين ٦٦-٧٠م. ويظهر في التّرتيب الثّاني في العهد الجديد؛ لأنّه كان يعتقد أنّه ملخّصٌ لإنجيل متّى، ولكن معظم العلماء الآن يعتبرونه أقدم إنجيلٍ مكتوبٍ. (المراجع)

(٢) الاصحـاح ٣، الآية ١٣. وهي الرّسـالة الأولى إلى أهل كورنثوس، وهي إحدى رسـائل العهـد الجديـد التي تنسـب إلى الرّسـول بولـس، وهـي موجّهةٌ مـن بولس وسوسـتانيس إلى المسيحيّين في كورنثوس وفي عموم اليونان، يتوقّع أنّها كتبت ما بين ٥٥ م إلى ٦٠ م، فتكون بذلك قد كتبت قبل تدوين الأناجيل الأربعة؛ لهذا تسـتخدم لإثبـات أصالـة روايـات تلك الأناجيـل في ما يتعلق بتأكيـد حقيقة يسـوع التّاريخيّة، وظهور البذور الأولى للعقيدة المسيحيّة. (المراجع)

في موضعٍ آخر.

وقد ورد ذكر الميزان في «سورة الشّورى»(١)، ونصّه:

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾

وكذلك ورد في «سورة القارعة»(٢)، ما نصّه:

﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ* فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ* وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ* فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾

ولا لزوم لذكر كلّ ما ورد في الأحاديث بخصوص الميزان الهائل؛ لأنّها لا تخفى على أحدٍ. فإذا بحثنا عن أصل هذه القصّة نجد أنّها مأخوذةٌ من كتابٍ موضوعٍ يسمّى «عهد إبراهيم»(٣)، أُلِّف في مصر أوّلاً، ثمّ تُرجم إلى اللّغة اليونانيّة والعربيّة، فنرى في هذا الكتاب ما يُشبه ما ذُكر في القرآن بخصوص وزن الأعمال الصّالحة والطّالحة. فقد ذُكر في كتاب عهد إبراهيم أنّه لما شرع ملاك الموت، بأمر الله، في القبض على روح إبراهيم، طلب منه خليل الله أن يُعاين

(١) الآية ١٧.

(٢) الآيات ٦-٩.

(٣) نصٌّ منحولٌ للعهد القديم. كتب على الأرجح في القرن الأوّل أو الثّاني الميلاديّين، لكاتبٍ يهودي الأصل، ويعدّ ضمن ما يعرف باسم الأدب القيامي. يعتبره اليهود الإثيوبيون (بيتا إسرائيل) كتابًا مقدّسًا، ولكنّه ليس كذلك عند أيّ مجموعاتٍ يهوديّةٍ أو مسيحيّةٍ أخرى. غالبًا ما يتمّ التّعامل معه على أنّه واحدٌ من ثلاثة أعمالٍ متشابهةٍ جدًّا، هما: عهد إسحاق، وعهد يعقوب. (المراجع)

قبل الموت غرائب السّماء والأرض. فلمّا أذِن له عرج إلى السّماء، وشاهد كلّ شيءٍ، وبعد هنيهةٍ دخل السّماء الثّانية، ونظر الميزان يزن فيه أحّد الملائكة أعمال النّاس. ونصُّ تلك العبارة:

{أنّ كرسيّاً كان موضوعاً في وسط البابين، وكان جالساً عليه رجلٌ عجيبٌ، وأمامه كانت مائدةٌ تشبه البلّور، وكلّها من ذهبٍ وكتّانٍ رفيعٍ، وعلى المائدة كتابٌ ثُخنُه ستّ أذرع، وعرضه عشر أذرع، وعلى يمينها ويسارها ملاكان ممسكان بورقةٍ وحبرٍ وقلمٍ، وأمام المائدة ملاكٌ يشبه النّور، ممسكٌ ميزاناً بيده. وعلى اليسار ملاكٌ من نارٍ، تلوح عليه علامات القسوة والفظاظة والغلظة، ممسكٌ بوقاً فيه نارٌ آكلةٌ لامتحان الخطاة. وكان الرّجل العجيب الجالس على الكرسيّ يُدين ويَمتحِن الأرواح. والملاكان، الذان على اليمين واليسار، يكتبان ويسجّلان (أعمال النّاس)، فكان الملاك الذي على اليمين يكتب ويسجّل الأعمال الصّالحة، والملاك الذي على اليسار يكتب الخطايا. أمّا الملاك الذي أمام المائدة، والممسك الميزان، فكان يمتحن الأرواح. فاستفهم إبراهيمُ من ميخائيل، رئيس الملائكة قائلاً: ما هذه الأشياء التي نشاهدها؟ فقال له رئيس الملائكة: إنّ ما تراه أيّها الفاضل إبراهيم، هو الحساب والعقاب والثّواب}(١).

وذُكر بعد هذا، أنّ إبراهيم رأى أنّ الرّوح التي تكون أعمالها الصّالحة والطّالحة متساويةً لا تُحسب من المخلصين، ولا من

(١) عهد إبراهيم، السّورة الأولى، فصل ١٢.

الهالكين، ولكنّها تقيم في موضع وسطٍ بين الإثنين. وهذا المذهب يشبه ما ورد في سورة الأعراف[1]. وهو قوله:

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾

فيتّضح ممّا تقدّم أنّ محمّداً اتّخذ مسألة الميزان الذي ذكره في القرآن، من هذا الكتاب الموضوع الذي أُلّف في مصر، نحو ٤٠٠ سنة قبل الهجرة. والأرجح، أنّه عرف مضمون هذا الكتاب من ماريّة القبطيّة التي كانت سريته. غير إنّ منشأ قضيّة الميزان الواردة في عهد إبراهيم ليست من التّوارة والإنجيل، ولكن منشأها كتابٌ قديمٌ جداً يسمّى «كتاب الأموات»[2]. وُجِدت نسخٌ كثيرةٌ منه بخطِّ اليد، في قبور قدماء المصريّين، عبدة الأصنام، ودفنوا هذا الكتاب مع الموتى؛ لأنّ قدماء المصريّين كانوا يعتقدون أنّ أحّد آلهتهم الكذبة، واسمه (تهوتي)[3]، ألّفه. وزعموا أنّ الموتى يحتاجون إلى التّعلّم منه

(١) الآية ٤٦.

(٢) أو كتاب الموتى: وهو عبارةٌ عن مجموعةٍ من الوثائق الدّينيّة والنّصوص الجنائزيّة التي كانت تستخدم في مصر القديمة، لتكون دليلاً للميّت في رحلته للعالم الآخر، أُستخدمت من بداية العصر الحديث للدّولة المصرية القديمة (حوالي ١٥٥٠ ق. م.) إلى حوالي ٥٠ ق. م. تمّ تأليف هذه التّعاويذ من قبل العديد من الكهنة خلال فترة حوالي ١٠٠٠ سنة. (المراجع)

(٣) أو تحوت أو توت: إله الحكمة عند الفراعنة. يعتبر من أهمّ الآلهة المصريّة القديمة، ويُصور برأس أبو منجل. ونظيره الأنثوي الإلهة ماعت. يعتبر قدماء المضرين أنّه هو الذي علّمهم الكتابة والحساب. وهو يصوّر دائماً ماسكاً بالقلم وبلوح يكتب عليه. وله دورٌ أساسي في محكمة الموتى حيث يؤتى بالميّت بعد البعث لإجراء عملية وزن قلبه أمام ريشة الحق ماعت. (المراجع)

بعد موتهم. وفي رأس فصل ١٢٥، من هذا الكتاب، صورةٌ يرى النّاظر فيها إلهين؛ اسمهما: (حور)[1] و(أنبو)[2]، وَضعا في كفّةٍ من هذا الميزان قلبَ رجلٍ برٍّ صالحٍ توفي. ووضعا في الكفّة الأخرى تمثال إلهٍ آخر من إلهتهم اسمه (مأت)[3]، أو الصدق. أمّا تهوتي، الإله المتقدّم ذكره، فكان يقيّد أعمال الإنسان الميّت في سجلٍّ.

فيتّضح ممّا ذُكر، أنّ القرآن اتّخذ مسألة الميزان من الكتاب الموضوع المسمّى «عهد إبراهيم»، وأنّ مسألة الميزان في عهد إبراهيم

(١) حورس: إله الشّمس عند قدماء المصريّين. وكان تصوّر المصري القديم أنّ حورس سيقدّم الميّت إلى أوزوريس في حالة نجاحه في اختبار الميزان؛ فيأخذ ملبساً جميلاً، ويدخل «الجنة». (المراجع)

(٢) أنوبيس: هو الإسم اليوناني لإله الموتى القديم ذو رأس كلبٍ سلوقيٍ فرعوني في الميثولوجيا المصريّة التي تلفظه الهيروغليفيّة بالإسم الأصح «أنبو»، وأيضاً: آنوب، آنوبو، وب، آينبو، ينبيو، إنبو. وهو يخدم كدليلٍ للموتى المؤخّرين وحارس الدّنيا السفلى. (المراجع)

(٣) الإلهة ماعت: إلهة الحقّ والعدل والنّظام في الكون، تمثّل بهيئة سيّدةٍ تعلو رأسها ريشة النّعام رمز العدالة، وتمسك بمفتاح الحياة (عنخ) في أحد يديها، وتمسك في يدها الأخرى صولجان الحكم. وأحياناً يرمز لإلهة الحقّ والعدل بالرّيشة. وبهذا تتبوء ريشتها في محكمة الآخرة مركزاً مميّزاً، حيث يقاس بالنّسبة لريشة الحقّ «معات» وزن قلب الميّت لمعرفة ما فعله في دنياه من حياةٍ صالحةٍ مستقيمةٍ تتّفق مع «الماعت» أم كان جبّاراً عصيّاً لا يؤتمن إليه كذّاباً. فمّا يذكر في كتاب الموتى بأنّه عند حساب المتوفي في العالم الآخر كان قلب الميّت يوضع على الميزان في كفّةٍ وريشة الإلهة ماعت في الكفّة الاخرى؛ فإذا رجحت كفّة الرّيشة فإنّه يدخل الفردوس في معتقداتهم، وأمّا إذا رجحت كفّة القلب فإنّه يذهب إلى الفناء، والذي كانت المعتقدات المصريّة القديمة تمثّله على هيئة وحشٍ مفترسٍ اسمه عمعموت، رأسه رأس التّمساح وجسمه جسم الأسد، والجزء الخلفي له من جسم فرس النّهر. (المراجع)

هي مأخوذةٌ من الرّوايات الشّفاهيّة التي وصلت من السّلف إلى الخلف من اعتقادات قدماء المصريّين، المدوّنة في كتابٍ اسمه «كتاب الأموات»، وأنّ هذا الكتاب هو مصدر ذكر الميزان الأصلي.

وورد في الأحاديث، أنّ محمّداً رأى في ليلة المعراج آدم، أب البشر، تارةً يبكي ويولول، وأخرى يفرح ويهلهل، كما ذُكر في «مشكاة المصابيح»[1]، ما نصّه:

«فلمّا فتح، علونا السّماء الدّنيا، فإذا رجلٌ قاعدٌ على يمينه أسودة، وعلى يساره أسودة، إذا نظر قِبَلَ يمينه ضحك، وإذا نظر قِبَلَ شماله بكى. فقال: مرحباً بالنّبي الصّالح، والابن الصّالح. قلت لجبرائيل: مَن هذا؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنّة، والأسودة التي عن شماله أهل النّار. فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر قِبَلَ شماله بكى».

وأصل هذا الحديث، أيضاً، هو من الكتاب الموضوع المسمّى «عهد إبراهيم»؛ فقد ورد فيه ما نصّه:

{فحوّل ميخائيل العربة، وحمل إبراهيم إلى جهة الشّرق، في أوّل باب السّماء، فرأى إبراهيم طريقين؛ احداهما طريقٌ كربٌ وضيّقةٌ،

(١) صفحة ٥٢١. من تأليف محمّد الخطيب التّبريزي (٧٤١هـ). جمع فيه متون الأحاديث النّبويّة، ثمّ رتّبها على طريقة كتب الجوامع، وأضاف الحكم عليها (بالصّحة أو الحسن أو غيرها)، وكان متأثراً بكتاب «مصابيح السّنّة» للبغوي؛ ولكنّه مع إعجابه بالمصابيح رأى أنّها بحاجةٍ لاستدراكٍ، فألّف مشكاة المصابيح، وقام بتخريج أحاديثه، وذكر اسم الصّحابي الرّاوي للحديث. (المراجع)

والأخرى واسعةٌ وعريضةٌ. ورأى هناك بابين؛ أحّدهما واسعٌ يوصل إلى الطّريق الواسعة، وبابٌ ضيّقٌ يوصل إلى الطّريق الضّيّقة. ورأيتُ هناك خارج البابين رجلاً جالساً على كرسيٍّ مرصّعٍ بالذّهب، وكانت هيئة ذلك الشّخص مهيبةً كهيبة السّيّد. ورأيت أرواحاً كثيرةً تسوقها الملائكة، وتدخلها من الباب الواسع. ورأيت أرواحاً أخرى، وهي قليلة العدد، تحملها الملائكة، وتُدخلها في الباب الضّيّق. ولما رأى الرّجل العجيب، الذي كان مستوياً على الكرسي الذّهبي، أنّ الذين يدخلون من الباب الضّيّق، هم قليلون، والذين يدخلون من الباب الواسع كثيرون، أمسك حالاً هذا الرّجل العجيب شعرَ رأسه، وجانبي لحيته، وألقى بنفسه من الكرسي إلى الأرض، ينوح ويندب. ولما رأى أرواحاً كثيرةً تدخل من الباب الضّيّق، كان يقوم من على الأرض، ويجلس على كرسيّه فرحاً ومهللاً. ثمّ استفهم إبراهيم من رئيس الملائكة، وقال له: يا مولاي الرّئيس، مَن هذا الرّجل العجيب الموشّح بمثل هذا المجد، وهو تارةً يبكي ويولول، وأخرى يفرح ويهلهل؟ فقال: إنّ هذا الشّخص المجرّد من الجسد (الملاك)، هو آدم، أوّل شخصٍ خُلق، وهو في هذا المجد العظيم يشاهد العالم؛ لأنّ الجميع تناسلوا منه. فإذا رأى أرواحاً كثيرةً تدخل من الباب الضّيّق يقوم ويجلس على كرسيّه فرحاً مهللاً من السّرور؛ لأنّ الباب الضّيّق هو باب الصّالحين المؤدّي إلى الحياة، والذين يدخلون منه يذهبون إلى جنّة النّعيم. ولهذا السّبب يفرح؛ لأنّه يرى الأنفس تفوز بالنّجاة، ولما يرى أنفساً كثيرةً تدخل من الباب الواسع، ينتف شعر

رأسه، ويُلقي بنفسه على الأرض باكياً ومولولاً بحرقةٍ؛ لأنّ الباب الواسع هو باب الخطاة الذي يؤدّي إلى الهلاك والعقاب الأبدي}.

ومع إنّه يسهل على كلّ عالم إقامة الدّليل على إنّ القرآن أخذ أشياءً كثيرةً من كتب جهلة المسيحيّين الكاذبة، ومن تأليف أصحاب البدع السّاقطة، فقد اكتفينا بما تقدّم.

ويناسب، قبل ختام هذا الفصل، أن نستفهم قائلين: بما أنّ محمّداً انتحل مطالب كثيرةً من كتبٍ باطلةٍ، لا أصل لها، فهل اتّخذ، أيضاً، بعض المطالب من العهد الجديد؟ يعني من الأناجيل، أو من رسائل الحواريّين، خلاف ما اتّخذه عن ولادة المسيح، عيسى بن مريم العذراء، وعن عمله المعجزات، وآياتٍ كثيرةٍ؟ أم اكتفى بما تقدّم؟

قلنا: الجواب على هذا السّؤال المهم هو: اعلم أنّه توجد آيةٌ واحدةٌ، فقط، في القرآن، مقتبسةٌ من الإنجيل. وكذلك وردت عبارةٌ في الأحاديث ربّما هي مأخوذةٌ من «رسائل بولس الرّسول»[1]، ولنذكرها فنقول:

(١) ورد في سورة الأعراف[2]:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ

(١) وهي ١٤ سِفرًا في العهد الجديد، تتألّف من رسائل تُنسب إلى بولس الرّسول، على الرّغم من أنّ نسبة بعضها إليه محلّ نزاع مثل الرّسالة إلى العبرانيّين التي لا تحتوي على اسمه. وتعدّ من أقدم الوثائق المسيحيّة. (المراجع)

(٢) الآية ٤٠.

السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾

فالشّطر الأخير من هذه الآية مأخوذٌ من أحد الأناجيل؛ لأنّه ورد في إنجيل لوقا[1] ما نصّه:

{لأنّ دخول جملٍ من ثقب أبرةٍ أيسر من أن يدخل غنيٌّ إلى ملكوت الله}

وكذلك ورد مثل هذه الآية في إنجيل متّى[2]، وإنجيل مرقس[3].

(٢) ورد في الأحاديث عن أبي هريرة، أنّ محمّداً قال: إنّ الله سبحانه وتعالى قال: «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»[4]. فاعلم أنّ هذه العبارة مقتبسةٌ من «رسالة بولس الرّسول الأولى إلى أهل كورنثوس»[5]، ونصّها:

{ما لم تر عينٌ، ولم تسمع أذنٌ، ولم يخطر على بال إنسانٍ ما، أعدّه للذين يحبّونه}

والحاصل، أنّه لا يمكن انكار ما ذهب إليه المعترضون من أنّ

(١) الاصحاح ١٨، الآية ٢٥.

(٢) الاصحاح ١٩، الآية ٢٤.

(٣) الاصحاح ١٠، الآية ٢٥.

(٤) مشكاة المصابيح، ٤٨٧.

(٥) الاصحاح ٢، الآية ٩.

الإنجيل وباقي كتب المسيحيّين، ولا سيّما مؤلّفات أصحاب البدع الباطلة، هي أحد مصادر تعاليم الدّيانة الإسلاميّة، فأخذ منها محمّدٌ ما أخذه.

الفصل الخامس

في النّظــر فيما ذهــب إليه المعترضون مــن أنّ بعض أركان القــرآن والأحاديث أُخــذت من كتب أصحاب زردشــت، والهنود القديمة

عُلِم من نصوص مؤرِّخي العرب واليونان أنّ ملوك الفرس كانوا متسلّطين على كثيرٍ من ممالك العرب، وذلك قبل مولد محمّدٍ، وفي عصره، أيضاً. قال أبو الفداء: «أنّ كسرى أنو شيروان أرسل جيوشه إلى مملكة الحيرة، وعزل حارثاً، ملكها، وولّى عوضاً عنه رجلاً من رعاياه اسمه المنذر بن ماء السّماء[1]. وبعد ذلك أرسل هذا الملك، الطّائر الصّيت، والذّائع الاسم، عساكره تحت إمرة وهرز[2] إلى بلاد اليمن، ولما طرد الحبشَ، فأوّل شيءٍ فعله هو أنّه ولّى أبا السّيف على مملكة أسلافه[3]. ولكن بعد قليلٍ «تولىّ وهرز نفسه على مملكة اليمن، وسلم لذريّته السّيادة»[4]. وقال أبو الفداء ما نصّه: « كانت المناذرة آل نصرٍ بن ربيعةَ عُمّالاً للأكاسرة على عرب العراق»[5]. أمّا من جهة اليمن فقال، أيضاً، ما نصّه: «ثمّ ملك اليمن بعدهم، (أي بعد أهل حِمير)، من الحبشة أربعة، ومن الفرس ثمانية،

(١) هو المنذر بن امرئ القيس بن النّعمان: أحد ملوك الحيرة. حكم في الفترتين الأولى (٥١٤-٥٢٤م)، والثّانية (٥٢٨-٥٥٤م). أمّه هي ماوية بنت جشم، وقد سمّيت بماء السّماء لجمالها. وقد حكم مملكةً واسعةً اشتملت بالإضافة لقاعدة ملكه في العراق على البحرين وعمان. قتل في معركة يوم حليمة، بينه وبين ملك الغساسنة الحارث بن جبلة، في ٥٥٤ م. (المراجع)

(٢) أو بَهْريز: ضابطٌ فارسي من ديلم، أرسله كسرى الأوّل مع سيف بن ذي يزن الحميري على دحر جيش الأكسوميين من اليمن. لا يعرف الكثير عنه سوى أنّه ديلمي. (المراجع)

(٣) أنظر: تاريخ أبي الفداء، باب ٢.

(٤) سيرة الرّسول، لابن هشام، ٢٤-٢٥.

(٥) تاريخ أبي الفداء، باب ٢.

ثمّ صارت اليمن للإسلام»[1].

فيتّضح من هذا، أنّه كان بين أهل الفرس وبين العرب مخالطة تامّة، ومواصلة عامّة، في أيّام محمّدٍ، بل قبل أيّامه. وبما إنّ الفرس كانوا متقدّمين في العلوم، وفي المدنيّة، أكثر من العرب في زمن الجاهليّة، كان لابدّ أن دينهم وعلومهم وعاداتهم ورسومهم أثّرت تأثيراً عظيماً في العرب. ويتّضح من التّواريخ، ومن شهادة المفسّرين على القرآن، أنّ قصص العجم وأشعارهم تواترت في ذلك الوقت بين قبائل جزيرة العرب، وتداولت بينهم تداولاً عامّاً، وهذا يطابق ويوافق ما رواه ابن هشامٍ حيث قال: إنّه لم يسمع العرب في عصر محمّدٍ قصص رستم، واسفنديار، وملوك فارس القدماء، فقط، بل إنّ بعض قريشٍ استحسنوها وفضّلوها على القصص الواردة في القرآن.

وهاك نصّ عبارة ابن هشامٍ قال: «والنّضر بن حارثٍ بن كلدةَ بن علقمةَ بن عبد منافٍ بن عبد الدّارِ بن قصيٍّ، كان إذا جلس رسول الله (ص) مجلساً، فدعا فيه إلى الله تعالى، وتلا فيه القرآن، وحذّر قريشاً ما أصاب الأُمم الخالية، خلفه في مجلسه، إذ قام فحدّثهم عن رستم الشّديد، وعن اسفنديار، وملوك فارس، ثمّ يقول: والله! ما محمّدٌ بأحسن حديثاً منّي، وما حديثه إلّا أساطير الأوّلين، اكتتبها

(١) م. ن.

كما اكتتبتُها»[1]. فأنزل الله فيه: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[2]. ونزل فيه: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[3]. ونزل فيه: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاك أَثِيم، يَسْمَعُ آيَـٰتِ الله تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَاب أَلِيم﴾[4].

ولا شكّ، أنّ هذه القصص عن رستَم، واسفنديار، وملوك فارس، هي القصص التي أخذها الفردوسيّ[5]، بعد محمّدٍ بأجيالٍ، من مجموعة قصصٍ لأحد الفلّاحين، ونظمها شعراً، ودُوِّنت في الشّاهنامة. ونقول قولاً أكيداً لا يُنكر بأنّه: بما أنّ العرب طالعوا قصص وتواريخ ملوك الفرس فلا يُتصور أنّهم كانوا يجهلون خرافات الفرس عن: معراج أرتاويراف[6]، وزردشت، ووصف

(١) سيرة ابن هشام، ج١، ١٩٤.

(٢) سورة الفرقان، الآيتان ٥-٦.

(٣) سورة القلم، الآية ١٥.

(٤) سورة الجاثية، الآيتان ٧-٨.

(٥) أبو قاسم الفردوسي (١٠٢٠ م): شاعرٌ فارسي. عاش في حكم السّامانيين والغزنويين في زمن الخلافة العبّاسيّة. اشتهر بتأليف الرّواية الملحميّة «الشّاهنامة» التي تتحدّث عن أساطير الفرس قبل الإسلام. (المراجع)

(٦) موّنٌ في كتاب «أرتاويراف نامك»، المكتوب باللّغة البهلويّة (الفارسيّة القديمة) منذ ٤٠٠ سنة قبل الهجرة، في أيّام أردشير بابكان ملك الفرس. وبيان ذلك أنّه لمّا أخذت ديانة زردشت في بلاد الفرس في الانحطاط، ورغب المجوس في إحيائها في

الفردوس، وصراط جينود[1]، وشجرة حواية[2]، وقصّة خروج أهرمن[3] من الظّلمات الأوّليّة، بل لا بدّ أنهّم كانوا يعرفونها حقّ المعرفة.

والمتعيّن علينا الآن، أن نبحث بالتّدقيق، ونتحرّى بالتّحقيق، فيما إذا كانت هذه القضايا، وما شابهها، تداثرت في القرآن ذاته، وفي الأحاديث المتواترة بين المسلمين أم لم تؤثّر فيهما؟ والمعترضون المزيّفون للقرآن، يؤكّدون: أنّ كلّ قضيّةٍ من هذه القضايا أثّرت تأثيراً مهمّاً في القرآن والأحاديث، إلى درجةٍ بليغةٍ حتّى أصبحت قصص قدماء الفرس واعتقاداتهم أحّد مصادر الإسلام. وزد على هذا، أنّ هؤلاء المعترضين قالوا: إنّ كثيراً من الخرافات التي كانت متداولةً في بلاد الفرس، في قديم الزّمان، لم تقتصر على بلاد فارس، فقط، بل تناولت قدماء الهنود، وانتشرت بينهم أيضاً؛ لأنّ أجداد الهنود

قلوب الناس، انتخبوا شاباً من أهل زردشت اسمه (أرتاويراف)، وأرسلوا روحه إلى السّماء. ووقع على جسده سُباتٌ. وكان الهدف من سفره إلى السّماء أن يطّلع على كلّ شيءٍ فيها، ويأتيهم بنبأ. فعرج هذا الشّاب إلى السّماء بقيادة وإرشاد رئيس من رؤساء الملائكة اسمه (سروش)، فجال من طبقةٍ إلى أخرى، وترقّى بالتّدريج إلى أعلى فأعلى. ولما اطّلع على كلّ شيءٍ أمره (أورمزد) الإله الصّالح، (سند وعضد مذهب زردشت)، أن يرجع إلى الأرض، ويخبر الزّردشتيّة بما شاهد. (المراجع)

(١) سيوضّح المؤلّف لاحقاً الصّلة بين الصرّاط والجينود. (المراجع)

(٢) سيبينّ المؤلّف لاحقاً ما معنى هذه الشّجرة، وعلاقتها بشجرة طوبى. (المراجع)

(٣) أهريمان: هو إله الشرّ في الدّيانة الزّراداشتيّة. وهو بمثابة الشّيطان في الدّيانات الأخرى. ويُسمى أنغرا ماينو بلغة الأفستا، ويقابله أهورامزدا إله الخير والمحبّة. (المراجع)

زحفوا من هرات[1] إلى الهند، واستوطنوها. فبعض تلك الأوهام والآراء والمذاهب هي ميراث كلٍّ من هاتين الأُمّتين؛ الأدبي والدّيني. يعني أنّ آدابهم وديانتهم مبنيّةٌ على هذه الأوهام والآراء التي ورثوها عن السّلف. ومع إنّ مصدر بعضها كان في بلاد فارس، بعد توطّن أجداد الهنود في الهند، ولكنّها مع تمادي الأوان وصلت إلى الهند، وسرت إلى أهلها، فتمسّكوا بها. ولكن بما أنّه لا يجوز التّسليم بصحّة قول المعترضين بدون أن يقيموا برهاناً شفاهيّاً، ويأتوا ببيّنةٍ قويّةٍ، وجب أن نطلب منهم أن يأتوا ببرهانهم إن كانوا صادقين. فقالوا: يلزم لتأييد كلامنا أن نورد بعض آيات القرآن والأحاديث، وننظر فيها نظر مدقّقٍ ومحقّقٍ، ثمّ نقارنها بما ورد في كتب الفرس والهند القديمة، عن مثل هذه الأمور أو ما أشبهها.

(١) قصّة معراج محمّدٍ: النّبأ عن المعراج، في ليلة الإسراء، ورد في القرآن، في سورة الإسراء، وتسمّى، أيضاً، سورة بني إسرائيل: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[2]. فاختلف المفسّرون اختلافاً عظيمًا في تفسير هذه الآية، فقال ابن إسحاق: إنّه ورد في الأحاديث أنّ عائشة كانت تقول:

(١) اسمها التّاريخي «آرية». وهي مدينةٌ أفغانيّةٌ، تقع غربي أفغانستان. تعد مدينةً أثريّةً ذات مباني تاريخيّةٍ ضخمةٍ. (المراجع)

(٢) الآية ١.

«ما فُقد جسد رسول الله (صلعم)، ولكنّ الله أسرى بروحه»[1]. وورد في الأحاديث، أيضاً، أنّ محمّداً ذاته قال: «تنام عيني وقلبي يقظانٌ»[2]. ويُفهم مّا قاله محي الدّين[3]، في تفسيره لهذه الآية، أنّ هذا المفسّر فهم المعراج والإسراء بطريقةٍ مجازيّةٍ واستعاريّةٍ؛ لأنّه قال: سبحان الذي أسرى أي أنزهه عن: اللّواحق المادّيّة، والنّقائض التّشبيهيّة، بلسان حال التّجرّد والكمال في مقام العبوديّة، الذي لا تُصرف فيه أصلاً «ليلاً»، أي في ظلمة الغواشي البدنيّة، والتّعلّقات الطّبيعيّة؛ لأنّ العروج والتّرقّي لا يكون إلّا بواسطة البدن من المسجد الحرام، أي من مقام القلب المحرّم عن أن يطوف به مشرك القوى البدنيّة، ويرتكب فيه فواحشها وخطاياها، ويحجّه غوي القوى الحيوانيّة من: البهيميّة، والسّبعيّة، والمنكشفة، سوأةً إفراطها وتفريطها، لعروّها عن لباس الفضيلة إلى المسجد الأقصى، الذي هو مقام الرّوح الأبعد من العالم الجسماني، بشهود تجلّيات الذّات، وسبحات الوجه، وتذكّر ما ذكرنا أنّ تصحيح كلّ مقامٍ لا يكون إلّا بعد التّرقّي إلى ما فوقه؛ لنفهم من قوله: لنريه من آياتنا مشاهدة الصّفات، فإنّ مطالعة تجلّيات الصّفات، وإن كانت في مقام القلب لكن الذّات الموصوفة بتلك الصّفات لا تشاهد على الكمال بصفة

(١) البداية والنّهاية، ج٣، ١٤١.

(٢) سيرة الرّسول، ١٣٩.

(٣) على الأغلب يقصد محي الدّين بن عربي (٦٣٨ه). وقد وردت أغلب تفسيراته في كتابه الشّهير «الفتوحات المكّيّة»، ذي الصّبغة الصّوفيّة. (المراجع)

الجلال، إلّا عند الترّقي إلى مقام الرّوح، أي لنريه آيات صفاتنا من جهة أنّها منسوبةٌ إلينا، ونحن المشاهدون بها، البارزون بصورها»[1].

فإذا اعتمدنا على قول محمّدٍ ذاته، وقول عائشة، وتفسير محي الدّين، كان معراج محمّدٍ مجازيّاً واستعاريّاً وليس حقيقيّاً، غير إنّ ما ذهب إليه ابن إسحاق وغيره، هو منافٍ لهذا الرّأي؛ لأنّ ابن إسحاق قال: إنّ محمّداً قال: إنّ جبريل أيقظه مرّتين، وإنّه نام ثانيةً، ثمّ ساق الكلام قائلاً: «فجاءني الثّالثة فهمزني بقدمه، فجلست، فأخذ بعضدي، فقمت معه، فخرج إلى باب المسجد، فإذا دابّة أبيض من البغل والحمار في فخذيه جناحان، يحفز بها رجلين، يضع يده في منتهى طرفه، فحملني عليه، ثمّ خرج معي لا يفوتني ولا أفوته»[2].

وقال ابن إسحاق:

«وحدّثتُ عن قتادة أنّه قال: حُدِّثت أنّ رسول الله (صلعم) قال: لما دنوتُ لأركبه شَمَسَ[3]، فوضع جبريل يده على معرفته[4]، ثمّ قال: ألا تستحي يا براق ممّا تصنع! فو الله يا براق ما ركبك عبدٌ لله قبل محمّدٍ أكرم على الله منه. قال: فاستحيا حتّى ارفضّ عرقاً، ثمّ قرّ حتّى ركبته. قال الحسن في حديثه: فمضى رسول الله (صلعم)،

(١) تفسير سورة بني إسرائيل.

(٢) سيرة الرّسول، لابن هشام، ج١، ٣٩٧.

(٣) شَمَسَتِ الدَّابَّةُ: جَمَحَتْ، نَفَرَتْ. (المراجع)

(٤) أي عُرْفه وهو شعر عُنق الخيل والبغال والحمير. (المراجع)

ومضى جبريل (ع) معه، حتّى انتهى بـه إلى بيت المقدس، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى، في نفرٍ من الأنبياء، فأمّهُم رسول الله (صلعم) فصلّى بهم، ثمّ أتى بإنائين؛ في أحدهما خمرٌ، وفي الآخر لبنٌ. قال: فأخذ رسول الله (صلعم) إناء اللّبن فشرب منه، وترك إناء الخمر. قال: فقال له جبريل: هُديت للفطرة، وهُديت أمّتك يا محمّد، وحرمت عليكم الخمر. ثمّ انصرف رسول الله (صلعم) إلى مكّة. فلمّا أصبح غداً على قريشٍ فأخبرهم الخبر، فقال أكثر النّاس: هذا والله الأمر البيّن! والله إنّ العِير لتطّرد شهراً من مكّة إلى الشّام مدبرةً، وشهراً مقبلةً، أفيذهب ذلك محمّدٌ في ليلةٍ واحدةٍ، ويرجع إلى مكّة»[1].

وورد في «مشكاة المصابيح» ما نصّه:

«عن قتادةَ عن أنسٍ بن مالكٍ عن مالكٍ بن صعصعةَ، أنّ نبي الله (صلعم) حدّثهم عن ليلة الإسراء به، بينما أنا في الحطيم[2]. وبما قال في الحجر مضطجعاً أن آتاني آتٍ، فشقّ ما بين هذه وهذه،

(١) م. ن.، ١٣٨-١٣٩.

(٢) أو حِجْر إسماعيل أو الحِجْر: بناءٌ على شكل نصف دائرةٍ من الجهة الشّماليّة من البيت الحرام، وهو جزءٌ من الكعبة، ولكن قريش حين بنت الكعبة لم تفِ النّفقة التي رصدتها لأجل البناء، فأخرجوا ذلك الجزء من بناء البيت، وأحاطوه بسياجٍ، حتّى يعلم أن ذلك المكان جزءٌ من البيت. وأصله اسمٌ للموضع الذي فيه الميزاب، وبينه وبين البيت فرجةٌ، فسمّي هذا الموضع حطيمًا، لأنّه محطومٌ من البيت- أي مكسورٌ منه. يقع بين الرّكن الشّامي والعراقي، وبينه وبين كلا الرّكنين ممرٌّ يوصل إلى داخله. (المراجع)

(يعني من ثغر نحره إلى شعرته)، فاستخرج قلبي، ثمّ أتيت بطستٍ من ذهبٍ مملوءٍ إيماناً، فغسل قلبي، ثمّ حُشي، ثمّ أُعيد. وفي روايةٍ، غسل البطن بماء زمزم، ثم مُلئ إيماناً وحكمةً. ثمّ أُتيت بدابّةٍ دون البغل وفوق الحمار، أبيض يقال له: البراق. يضع خطوةً عند أقصى طرفه. فحُملت عليه فانطلق بي جبرائيل حتّى أتى السّماء الدّنيا، فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبرائيل. قيل: ومن معك؟ قال: محمّد. قيل: وقد أُرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، فنِعم المجيء جاء ففتح. فلمّا خلصت فإذا فيها آدم، فقال: هذا أبوك آدم فسلّم عليه. فسلّمت عليه، فردّ السّلام. ثمّ قال: مرحباً بالابن الصّالح والنّبي الصّالح. ثمّ صعد بي حتّى أتى السّماء الثّانية فاستفتح. قيل: من هذا؟ قال: جبرائيل. قيل: ومن معك؟ قال: محمّد. قيل: وقد أُرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، فنِعم المجيء جاء ففتح. فلمّا خلصت إذا يحيى وعيسى، وهما أبناء خالةٍ، قال: هذا يحيى، وهذا عيسى. فسلّم عليهما، فردّا، ثمّ قالا: مرحباً بالأخ الصّالح، والنّبي الصّالح. ثمّ صعد بي إلى السّماء الثّالثة، فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبرائيل. قيل: ومن معك؟ قال: محمّدٌ. وقد أُرسل إليه؟. قال: نعم. قيل: مرحباً به، فنِعم المجيء جاء. ففتح. فلمّا خلصت إذا يوسف. قال: هذا يوسف، فسلِّم عليه. فسلّمت عليه، فردّ، ثم قال: مرحباً بالأخ الصّالح والنّبي الصّالح. ثمّ صعد بي حتّى أتى السّماء الرّابعة، فاستفتح. قيل: من هذا؟ قال: جبرائيل. قيل: ومن معك؟ قال: محمّدٌ. قيل: وقد أُرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، فنِعم

المجيء جاء، ففتح. فلمّا خلصت فإذا إدريس، فقال: هذا إدريس، فسلِّم عليه. فسلّمت، فردّ، ثمّ قال: مرحباً بالأخ الصّالح والنّبي الصّالح. ثمّ صعد بي حتّى السّماء الخامسة فاستفتح. قيل: من هذا؟ قال: جبرائيل. قيل: ومن معك؟ قال: محمّدٌ. قيل: وقد أُرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء. ففتح. فلمّا خلصت فإذا هارون. قال: هذا هارون، فسلّم عليه. فسلّمت، فردّ، ثمّ قال: مرحباً بالأخ الصّالح والنّبي الصّالح. ثمّ صعد بي حتّى أتى السّماء السّادسة فاستفتح. قيل: من هذا؟ قال: جبرائيل. قيل: ومن معك؟ قال: محمّدٌ. قيل: وقد أُرسل إليه؟ قال: نعم. قال: مرحباً فنعم المجيء جاء ففتح. فلمّا خلصت فإذا موسى، قال: هذا موسى فسلِّم عليه. فسلّمت، فردّ، ثمّ قال: مرحباً بالأخ الصّالح والنّبي الصّالح. فلمّا جاوزت بكى، قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأنّ غلاماً بُعث بعدي يدخل الجنّة من أمّته أكثر ممّن يدخلها من أُمّتي. ثمّ صعد بي إلى السّماء السّابعة فاستفتح جبرائيل. قيل: من هذا؟ قال: جبرائيل. قيل: ومن معك؟ قال: محمّدٌ. قيل: وقد أُرسل إليه؟ قال: نعم. قال: مرحباً فنعم المجيء جاء ففتح. فلمّا خلصت فإذا إبراهيم، قال: هذا أبوك إبراهيم فسلّم عليه. فسلّمت عليه فردّ السّلام، ثمّ قال: مرحباً بالابن الصّالح والنّبي الصّالح. ثمّ رُفعتُ إلى سدرة المنتهى، فإذا نَبقها مثل قلال هَجَرَ[1]، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة. قال: هذا

(١) قلال، جمع قلة. هجر، وهجر: قريةٌ قريبةٌ من المدينة وليست هجر البحرين، وكانت تعمل بها القلال. (المراجع)

سدرة المنتهى. فإذا أربعة أنهارٍ؛ نهران باطنان، ونهران ظاهران. قلت: ما هذا يا جبرائيل؟ قال: أمّا الباطنان فنهران في الجنّة، وأما الظّاهران فالنّيل والفرات. ثمّ رُفعت إلى البيت المعمور، ثمّ أُوتيت بإناءٍ من خمرٍ، وإناءٍ من لبنٍ، وإناءٍ من عسلٍ، فأخذت اللّبن. فقال: هي الفطرة أنت عليها وأمّتك»[1].

ثمّ ساق الكلام، وذكر أشياءً أخرى كثيرةً، تختصّ بمعراج محمّدٍ؛ منها بكاء آدم وغيره، ممّا لا لزوم إلى ذكره هنا. ولننظر فيما إذا كان ما ذُكر عن معراج محمّدٍ أُخذ من قصّةٍ قديمةٍ مشابهةٍ لها أم لا. وإذا سأل سائلٌ وقيل: ما هي هذ القصّة التي أُخذت منها قصّة المعراج؟

قلنا في الجواب عن ذلك: إذا سرّحنا الطّرف في الكتاب المسمّى «أرتاويراف نامك»، المؤلّف باللّغة البهلاوية، أي اللّغة الفارسيّة القديمة، منذ ٤٠٠ سنة قبل الهجرة، في أيّام أردشير بابكان[2]، ملك الفرس، رأينا، في هذا الكتاب، أصل هذه القصّة. وبيان ذلك أنّه لما أخذت ديانة زردشت في بلاد الفرس في الانحطاط، ورغب المجوس في احيائها في أفئدة النّاس، وتجديد رونقها، انتخبوا شابّاً من أهل زردشت اسمه أرتاويراف، وأرسلوا روحه إلى السّماء، ووقع على جسده سباتٌ. وغاية سفره، إلى السّماء، الاطّلاع على كلّ شيءٍ

(١) مشكاة المصابيح، ٥١٨-٥٢٠.

(٢) أردشير بن بابك بن ساسان (١٨٠-٢٤٢م)، حاكم إصطخر ووالي فارس. أسقط الإمبراطورية البارثية وأصبح أوّل الملوك السّاسانيّين. ولقّب بـ«شاهن شاه إيران» أي ملك ملوك إيران. (المراجع)

فيهـا. ويأتيهـم بنبإٍ. فذُكـر في هذا الكتاب: أنّ هذا الشّـاب عرج إلى السّماء بأن أرشده وقاده رئيسٌ من رؤوساء الملائكة يقال له سروش. وجـال مـن طبقةٍ إلى أخرى، وترقّى، بالتّدريـج، إلى أعلى فأعلى. ولما اطّلع على كلّ شيءٍ أمره أورمزد، الإله الصّالح، سند وعضد مذهب زردشـت، أن يرجع إلى الأرض، ويخبر الزّردشتية بما شاهد وعاين. ودوّن هذه الأشياء بحذافيرها، وكلّ ما جرى له في أثناء معراجه، في كتاب «أرتاويراف نامـك». ولنُترجم عبارتين أو ثلاث عباراتٍ من هذا الكتاب، لننظر إذا كانت توجد مشابهةٌ بين معراج محمّدٍ ومعراج أرتاويراف الوهمي. فقد ورد في أرتاويراف نامك ما نصّه[1]:

{وقدّمـتُ القـدم الأولى حتّـى ارتقيـت إلى طبقـة النّجـوم في حومـت.... ورأيـت أرواح أولئـك المقدّسـين الذيـن ينبعث منهم النّور، كما من كوكبٍ سـاطعٍ، ويوجد عرشٌ ومقعدٌ باهرٌ رفيعٌ زاهرٌ جدّاً. ثمّ استفهمتُ من سروشٍ المقدّس، ومن الملاك آذر، ما هو هذا المحلّ، ومن هم هؤلاء الأشخاص}

وممّـا يجـب الالتفـات إليـه في شرح هـذه العبـارة، هـو أنّ المراد بقولهـم طبقـة الكواكب هـو الحيـاط الأوّل أو الأدنى مـن فردوس الزّردشـتيّة، وأنّ آذر هو الملاك الذي له الرّئاسة على النّار، وسروش هو ملاك الطّاعة، وهو أحد المقدّسـين المؤبّدين، أي الملائكة المقرّبين لديانة زردشـت، وهو الذي أرشـد أرتاويراف في جميع أنحاء السّماء

(١) فصل ٧، فقرات ١-٤.

وأطرافها المتنوّعة، كما فعل جبرائيل بمحمّدٍ.

وبعد هذا ساق الكلام على كيفيّة وصول أرتاويراف إلى طبقة القمر، وهي الطّبقة الثّانية، ثمّ يليها طبقة الشّمس، وهي الطّبقة الثّالثة في السّموات. وعلى هذه الكيفيّة أرشده إلى باقي السّموات. وبعد هذا ورد في الفصل ١١ ما نصّه:

{وأخيراً، قام رئيس الملائكة بهمن من عرشه المرصّع بالذّهب، فأخذني من يدي وأتى بي إلى حومت وحوخت وهورست بين أورمزد ورؤساء الملائكة وباقي المقدّسين وجوهر زردشت السّامي العقل، والإدراك، وسائر الأمناء، وأئمة الدّين. ولم أر أبهى منهم رواءً، ولا أبصر منهم هيئةً. وقال بهمن: هذا أورمزدتم. إنّي أردت أن أُسلِّم عليه، فقال لي: السّلام عليك يا أرتاويراف، مرحباً، إنّك أتيت من ذلك العالم الفاني إلى هذا المحلّ الباهي الزّاهر. ثمّ أمر سروش المقدّس، والملاك آذر قائلاً: احملا أرتاويراف، وأرياه العرش، وثواب الصّالحين، وعقاب الظّالمين، أيضاً. وأخيراً أمسكني سروشٌ المقدّس والملاك آذر من يدي، وحملت منهما من محلٍّ إلى آخر، فرأيت رؤساء الملائكة أولئك، ورأيت باقي الملائكة}

ثمّ ذكر أنّ أرتاويراف شاهد الجنّة وجهنّم أخيراً، ورد ذلك في فصل ١٠١ ما نصّه:

{أخيراً، أخذني سروشٌ المقدّس والملاك آذر من يدي، وأخرجاني من ذلك المحلّ المظلم المخيف المرجِّف، وحملاني إلى محلٍّ

البهاء ذلك، وإلى جمعيّة أورمزد، ورؤساء الملائكة، فرغبت في تقديم السّلام أمام أورمزد، فأظهرَ ليّ التّلطّف، وقال: يا أتاويراف المقدّس، العبد الأمين، يا رسول عبدة أورمزد، إذهب إلى العالم المادّي، تكلّم بالحقّ للخلائق، حسب ما رأيتَ وعرفتَ؛ لأنّي أنا الذي هو أورمزد موجودٌ هنا. مَن يتكلّم بالاستقامة والحقّ أنا أسمعه وأعرفه، تُكلّم أنت الحكماء. ولما قال أورمزد هكذا وقفت باهتاً؛ لأنّي رأيت نوراً ولم أر جسماً، وسعمت صوتاً، وعرفت أن هذا هو أورمزد}.

فيتّضح جليّاً من هذا، وجود مشابهةٍ عظيمةٍ بين قصّة معراج أرتاويراف، الكاهن المجوسيّ، وبين ما تقدّم ذكره بخصوص معراج محمّدٍ. ويوجد عند الزّردشتيّة حكايةٌ أخرى عن زردشت نفسه خلاف هذه القصّة التي أوردناها هنا. وبيان ذلك، أنّه قبل ذلك الزّمان، بعدّة أجيالٍ، عرج زردشت ذاته إلى السّماء، ثمّ استأذن لمشاهدة جهنّم، أيضاً، فرأى فيها أهرمن، أي إبليس. ووردت هذه القصّة، بالتّفصيل التّامّ، في كتابٍ مفتعلٍ يسمّى «زردشتنامه».

ولم تتواتر أمثال هذه الخرافات بين الفرس، فقط، بل تواترت بين الهنود، عبدة الأصنام، أيضاً؛ لأنّه يوجد بلسان سنسكرت، وهي لغة الهنود القديمة، كتابٌ يُدعى «أندرلوكا كمتم»، يعنى السّياحة عالم أندره. فذهب الهنود إلى أنّ أندره هو إله الجّو. وذُكر في هذا الكتاب أنّ شخصاً اسمه أرجنه نظر قصر أندره السّماوي، واسمه ويونتي، وهذا القصر في بستانٍ يسمّى نفدنم. وورد في الكتب الهنديّة أنّ

في ذلك المحلِّ مجارٍ أبديّةٍ تروي النّباتات الخضراء النّضرة الزّاهية الزّاهرة، وفي وسط ذلك البستان السّماوي شجرةٌ تسمّى بكشجتي، تُثمر أثماراً تسمّى أمرته، أي البقاء. فمن أكل من ثمرها لا يموت ولن يموت. وهذه الشّجرة مزيّنةٌ بالأزهار الزّاهية، وذات ألوانٍ متنوّعةٍ رائعةٍ، ومن استظلّ بظلالها الوارفة مُنِح كلّ أمنيةٍ تمنّاها، وبغتةً اشتهاها في قلبه وابتغاها. وبلا شكٍّ، فإنّ هذه الشّجرة هي التي يسمّيها المسلمون الطّوبى.

وكذلك يعتقد الزّردشتيّة بوجود شجرةٍ عجيبةٍ تسمّى بلغة أوستا حواية، وتسمّى باللّسان البهلوي حوميا، ومعناها مرويةً بماءٍ رائقٍ فائقٍ. ووُصِفت بالكتاب المعروف باسم «ونديداد»[1] بما نصّه:

{تأتي المياه في الصّفاء من بحر يوتتكة إلى بحر ووؤركشه، وإلى شجرة حواية، فتنبت هناك كلُّ النّباتات على اختلاف أنواعها}

ومن الواضح، أنّ هذه الشّجرة هي ذات شجرة طوبى، وهي مثل بكشجتي شجرة اليهود.

واعلم، أنّ كثيراً من هذه الأشياء لم ترد، فقط، في كتب الهنود والزّردشتيّة، بل وردت، أيضاً، في بعض الكتب الكاذبة التي كانت متداولةً عند أصحاب البدع والضّلالات من المسيحيّين، في الأزمنة

(١) فصل ٥. وهو من أجزاء الأفستا. يصف الأشكال المختلفة للأرواح الشرّيرة. ويتناول أيضاً قضايا عن الحلال والحرام، والطّاهر والنّجس، وفيه كثيرٌ من التّعاليم الدّينيّة. (المراجع)

القديمـة، ولاسيّما في الكتاب المسمّى «عهد إبراهيـم»، الذي تقدّم ذكره في كتابٍ آخر يسمّى «رؤيا بولس»(١). فورد في الكتاب المسمّى «عهد إبراهيم» أنّ إبراهيم عرج، بارشاد أحَد رؤساء الملائكة، إلى السّماء، وشاهد كلّ ما فيها. وورد في الكتاب المسمّى «رؤيا بولس» أنّ بولس الرّسول عرج، كذلك، وقد ضربنا عن ذكره صفحاً اكتفاءً بما تقدّم. وإنّما نورد عبارةً من عهد إبراهيم وهي:

{ونـزل رئيس الملائكة ميخائيل، وأخذ إبراهيم في عربةٍ كروبيّةٍ، ورفعه في أثير السّماء، وأتى به، وبستّين ملاكاً من الملائكة، على السّحاب، فساح إبراهيم على كلِّ المسكونة في مركبٍ}(٢)

فهذا هو أصل المركّب المسمّى البراق، الوارد ذكره في الأحاديث الإسلاميّة، ولعلّ اشتقاق البراق من لفظةٍ عبريّةٍ تسمّى باراق، ومعناها البرق. ويوجد ما يشبه ذلك في الكتاب الكاذب المعروف

---

(١) اسمٌ لعملين رؤيويّين منحولين. يُلهمهما تقليدُ بولس الذي اختطف إلى السّماء: الأوّل هو جولةٌ في الفردوس وجهنّم. ألّف في القرن الرّابع أو الخامس ب.م. وحُفظ في نسخةٍ لاتينيّةٍ طويلةٍ. وهناك ملخّصٌ في اليونانيّة والأرمنية والرّوسيّة القديمة والسّريانيّة والقبطيّة. وقد كانت هذه الرّؤيا مرجعًا هامًّا لأعمالٍ مسيحيّةٍ متأخرةٍ تصوّر جغرافية عقاب النّار في الجحيم. والعمل الثّاني هو كتابٌ قبطيّ مسيحيّ يعود إلى القرن الثّاني أو الثّالث ب.م. وهو يتوسّع في صعود بولس مع الرّسل الإثني عشر عبر السّماوات الثّماني لدى اليهود، وفي التّقاليد المسيحيّة، إلى خيمة راحة المختارين. حُفظت لنا مخطوطةٌ واحدةٌ قبطيّةٌ في مكتبة نجع حمادي. (المراجع)

(٢) عهد إبراهيم، سورة ١، فصل ١٠. كروبيّة: صفة ملائكيّة للكروبيم، جمع كروب، وتجمع بالعربيّة كروبون، وهم حملة عرش الخالق. (المراجع)

باسم كتاب «أخنوخ»[1]، فقد ورد في هذه الكتب كلامٌ على تلك الشّجرة السّماويّة، والأربعة الأنهر. وقال اليهود عن شجرة الحياة التي كانت في جنّة عدن، أنّ مسافة ارتفاعها سفر ٥٠٠ سنة، (ترجوم يوناثان). ورووا، أيضاً، رواياتٍ أخرى عجيبةً عنها. وبما إنّ المسلمين توهّموا أنّ جنّة عدن التي خُلق فيها آدم هي في السّماء، وجب أن نبحث عن منشأ هذا الخطأ والوهم فنقول: إنّ مصدره الكتب الموضوعة، ولا سيّما «رؤيا بولس»[2].

ولا نعرف إذا كان أصحاب البدع الذين اختلقوا هذه الكتب قد اتّخذوا هذه الأشياء وغيرها من كتب الزّردشتيّة والهنود أم لا. إلّا أنّه، من المؤكّد، الذي لا ريب فيه، أنّ هذه القصص هي كاذبةٌ، ولا يصدّقها عاقلٌ، ولم يقبل أحدٌ من المسيحيّين هذه الكتب؛ سواء كان في الأزمنة القديمة أو في الأزمنة الحديثة، بل نبذها الجميع نبذ النّواة، ولم يعتقد أحدٌ منهم بأنّها كُتبت بوحي وإلهام، بل إنّها سُطِّرت لفئةٍ صغيرةٍ من جهلة أصحاب البدع والضّلالات. ولا توجد الآن إلّا في بعض مكاتب قليلةٍ، على سبيل الفكاهات، وللدّلالة على جهل وحماقة الفرق المبتدعة، التي قبلت بعضها، بدون أقلّ برهانٍ ولا دليلٍ على صحّتها، بل بالعكس، قبلتها مع توفّر الأدلة على بطلانها وفسادها.

---

(١) فصل ١٤.

(٢) فصل ٤٥.

وإذا سأل سائلٌ وقال: إذا كانت الخرافات المختصّة بمعراج أرتاويراف وزردشت وإبراهيم وأرجنه هي بلا أصلٍ، ولا مستندٍ، ولا أساس في الواقع، وأنّ الواجب نبذها ورفضها، ألا يجب، أيضاً، عدم تصديق التّواريخ الواردة بخصوص أخنوخ وإيليّا والمسيح أنّهم صعدوا إلى السّموات؟ قلنا: لا يصعب على الذّكيّ النّبيه الرّدّ على ذلك، فمن البديهيّ، أنّه لا يمكن وجود نقودٍ زائفةٍ ما لم توجد نقودٌ صحيحةٌ حقيقيّةٌ متقدّمةٌ في الوجود عليها. فإنّ النّقود الزّائفة عملت على منوال النّقود الصّحيحة؛ لغشّ الجاهل والمغفّل أو السّاهي.

ولا يجوز لعاقلٍ أن يرفض التّعامل بجميع النّقود لوجود نقودٍ زائفةٍ في بعض الأحيان، بل نقول: إنّ وجود النّقود الزّائفة تدلّ دلالةً واضحةً على وجود نقودٍ صحيحةٍ لا غشّ فيها. وكذلك، يصدق القول على المعجزات؛ لأنّه لولا وجود معجزاتٍ صحيحةٍ ما ادُّعيّ بمعجزاتٍ كاذبةٍ. ولو لم يوجد دينٌ حقيقيٌّ صحيحٌ ما وجدت الأديان الكاذبة، ولو لم يشتهر صعود رجالٍ حقيقيّةٍ إلى السّماء ما رأينا هذه الخرافات المختلفة بلغاتٍ شتّى، بين مِللٍ ونِحلٍ عديدةٍ. والحكيم مَن نقدَ النّقودَ التي تُعرض عليه قبل قبولها، ودقّة النّقد تُظهر النّقود الزّائفة من الصّحيحة؛ لأنّ النّقد يُظهر أنّ بينها فرقاً جسيماً، وهذا هو سبب اعتقاد المسيحيّين اعتقاداً جازماً بصحّة ما ورد في الكتب المقدّسة من القصص، عن صعود أخنوخ وإيليّا والمسيح، ورفضهم القصص الأخرى التي ذكرناها. والفرق بين

الصّـدق والكذب هو ظاهرٌ كالصّبـح، إذا طالعنا ما ورد في الكتاب المقدّس عن صعود أخنوخ وإيليّا والمسيح، وقارنّا بين هذه القصص البسيطة التي لها رنّة النّقود الحقيقيّة الصّحيحة وبين القصص الكاذبة التي تقدّم ذكرها.

أمّا من جهة أخنوخ، فقد ورد في سفر التّكوين ما نصّه[1]:

{وسار أخنوخ مع الله، ولم يوجد؛ لأنّ الله أخذه}

وأمّا عن إيليّا[2]، فورد في «سفر الملوك الثّاني» ما نصّه[3]:

{وفيـما هما (أي اليشـع[4]، وإيليّا) يسـيران ويتكلّمان، إذا بمركبةٍ مـن نارٍ، وخيلٍ من نارٍ، ففصلت بينهـما، فصعد إيليّا في العاصفة إلى السّـماء، وكان اليشع يرى وهو يصرخ: يا أبي! يا أبي! مركبة إسرائيل وفرسانها. ولم يره بعد}

أمّا صعود المسيح، فذُكر في «أعمال الرّسل» ما نصّه[5]:

(١) الاصحاح ٥، الآية ٢٤.

(٢) مـن أنبيـاء بني إسرائيل، ورد ذكره في التّناخ في سـفر الملوك الثّاني، في عهد الملك آخـاب، في القـرن التّاسـع قبل الميـلاد، وذكر في العهـد الجديد عند تجلّيه مع يسـوع. ويعتقد أنّه سـيأتي قبل المجيء الثّاني للمسـيح. اسمه في اليونانيّة «إلياس». ويعتقد أنّه هو نفسه إلياس المذكور في القرآن. (المراجع)

(٣) الاصحاح ٢، الآيتان ١١-١٢.

(٤) أو اليسـع: مـن أنبيـاء الله الذيـن لم تذكر الكتب المـدّة التي عاشـها. لكنّه كان في منطقة بانياس في سورية. (المراجع)

(٥) الاصحاح ١، الآيات ٩-١١.

{ولما قال هكذا (أي المسيح)، ارتفع، وهم ينظرون، وأخذته سحابةٌ عن أعينهم، وفيما كانوا يشخصون إلى السّماء، وهو منطلقٌ، إذا رجلان قد وقفا بهم بلباسٍ أبيض، وقالا: أيّها الرّجال الجليليّون! ما بالكم واقفين تنظرون إلى السّماء؟ إنّ يسوع هذا الذي ارتفع عنكم إلى السّماء سيأتي هكذا كما رأيتموه منطلقاً إلى السّماء}

فهذه القصص الحقيقيّة سلّمها لنا الذين شاهدوها بأعينهم، وهي منزّهةٌ عن الحكايات المطوّلة الوهميّة الخرافيّة عمّا في السّموات. ولا شكّ أنّ القصص الكاذبة تختلف اختلافاً بيّناً عن القصص الحقيقيّة، بحيث يسهل التّمييز بين التّواريخ المسطّرة عن الحوادث الواقعيّة الحقيقيّة وبين الحكايات الملفّقة المختلفة التي يخترعها النّاس للإغراب، والإعجاب، وإرضاء أميال النّاس الذين يتولّعون بمعرفة المجهولات التي سترها الله وراء الحجاب، وحجبها عن الألباب.

قال الرّسول بولس في احدى رسائله(١):

{أعرف إنساناً في المسيح قبل أربعة عشر سنةً، أفي الجسد؟ لست أعلم، أم خارج الجسد؟ لست أعلم. الله يعلم، اختُطِف هذا إلى السّماء الثّالثة..... وسمع كلماتٍ لا ينقّ بها، ولا يسوّغ إنسانٌ أن يتكلّم بها}

غير إنّه ورد في الكتاب الموضوع المسمّى «رؤيا بولس» نبأً

(١) كورنثوس الثّانية، الاصحاح ١٢، الآيات ٢-٤.

مطوّلٌ عمّا رآه بولس وسمعه هناك، ومن هذا يظهر الفرق بين الحقّ والكذب. فالفرق بين الأناجيل الموضوعة وبين الأناجيل الصّادقة الصّحيحة هو ظاهرٌ للقارئ النّبيه، كالفرق الموجود بين كتاب «ألف ليلةٍ وليلةٍ» وبين كتاب «الواقدي»؛ فأحدهما يشتمل على خرافاتٍ فارغةٍ، والآخر يشتمل على تواريخ حوادث حقيقيّةٍ، حصلت فعلاً.

وإذا سأل سائلٌ وقال: ما هو أصل الخرافات الواردة عن شجرة الطّوبى، أو سدرة المنتهى، أو الأربعة الأنهر السّماويّة؟ قلنا في الجواب عن ذلك: أنّ هذه الخرافات نشأت من القصّة البسيطة الصّحيحة الواردة في سفر التّكوين[1]، فإنّه لما كان الجهلة السّذّج الميّالون إلى تصديق الخرافات لا يعرفون أنّ جنّة عدن كانت بقرب بابل وبغداد، حوّلوا بأوهامهم الجامحة، وتصوّراتهم الشّاردة حتّى الله إلى أكاذيب؛ بزياداتهم ومبالغاتهم، وغيّروا الوقائع التّاريخيّة والجغرافيّة إلى خرافاتٍ لا أصل لها.

(٢) في أصل ما ذُكر في القرآن والأحاديث بخصوص الجنّة، والحور، والغلمان، والجنّ، وملك الموت، وذرّات الكائنات: لا شكّ أنّ كلّ مسلمٍ، له إلمامٌ تامٌّ بهذه الأمور، يعرف حقّ المعرفة ما ورد عنها في القرآن وفي الحديث؛ ولذلك لا لزوم أن نسرد كلّ تفاصيلها هنا. غير إنّ المعترضين ذهبوا إلى أنّ مصدر كلّ هذه التّعاليم هو كتب الزّردشتيّة. ولا شكّ أنّ كلّ مُطّلعٍ على التّوارة والإنجيل يرى

(١) الاصحاح ٢، الآيات ٨-١٧.

أنّـه لا يوجد أثرٌ لهـا مطلقاً في كتابٍ من كتـب الأنبياء أو الحواريّين، بـل غاية الأمر أنّ كُلّاً من الأنبياء والرّسـل أفـاد أنّه يوجد محلٌّ راحةٍ للمؤمنـين الحقيقيّـين، وهـذا المحلّ يسـمّونه «حضـن إبراهيم»، أو الجنّـة، أو الفردوس. ولكن لا يخفى أنّه لم يرد ذكر الحور، أو الغلمان في كتـب الرّسـل أو الأنبيـاء. غـير إنّ هذه الأشـياء ذُكـرت في كتب الزّردشتيّة والهنود. ومن العجب العجاب أنّ ما ورد في هذه الكتب يشابه مشابهةً غريبةً وعجيبةً لما ورد في القرآن والحديث، بخصوص هذه الأشياء.

مثلاً إنّ ما قاله المسـلمون عن الحور، كما ورد في سـورة الرّحمن، ونصّه[1]:

﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾

وفي سورة الواقعة، ونصّه[2]:

﴿وَحُورٌ عِينٌ، كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾

هو لا شـكّ، مأخوذٌ ممّا قاله الزّردشتيّة القدماء عن بعض أرواح غاداتٍ اسـمهنّ بيركان، ويسـمّيها الفـرس المتأخّـرون بريان؛ لأنّ الزّردشـتيّة زعمـوا أنّ أرواح هـذه الغادات سـكنت في الهواء، ولها علاقةٌ تامّةٌ بالكواكب والنور، وكان جمال أرواح هاته الغادات رائعاً

(١) الآية ٧٢.

(٢) الآية ٢٣.

حتّى خلبت قلوب الرّجال. وذهب بعض العلماء الذين لا يعرفون غير العربيّة، أنّ كلمة حور هي، في الأصل، لفظةٌ عربيّةٌ مشتقّةٌ من لغة أوستا، ومن الّلسان البهلوي، وهما لغتان من لغات الفرس القديمة؛ لأنّه ورد في لغة أوستا كلمة «حورى» بمعنى الشّمس وضوء الشّمس، ووردت في الّلغة البهلويّة «هور»، وفي لغة الفرس الحديثة «ضور»، بهذا المعنى، أي الشّمس وضوءها، أيضاً. ولما أدخل العرب كلمة «حور» في لغتهم، وكانوا لا يعرفون مصدرها واشتقاقها، توهّموا أنّها مأخوذةٌ من فعل «حار»، وظنّوا أنّ سبب تسميتهنّ بالحور، هو سواد أعينهن. ولم يتمّ ذكر هاته الغانيات السّماويّات في كتب القدماء الفرس، فقط؛ لأنّه يوجد في كتب قدماء الهنود، أيضاً، بعض قصصٍ بخصوص الأشخاص الذين يسمّيهم المسلمون الحور والغلمان، ويسمّيهم الهنود «أبسرسس»، و«كندهروس»، على سبيل الّلف والنّشر المرتّب. وذهب الهنود إلى أنّهم في السّماء معاشرون مع الذين يظهرون البسالة في الحروب، ويُقتلون فيها. فإنّ الهنود كانوا يعتقدون، في الأزمنة القديمة كالمسلمين، أنّ كلّ من يُقتل في ساحة القتال كان جديراً بالدّخول في السّماء. مثلاً ورد في كتاب «شرائع منو»[1]، ما نصه: «الملوك الذين

(١) الفصل الخامس، البيت ٨٩. أو قانون مانو. ولفظة مانو مثل لفظة فرعون كانت تطلق على الملوك المؤلّهين. وقد اعتقد الهنود القدماء أنّ سبعةً من الملوك المؤلّهين كانو قد حكموا العالم في الماضي، وأنّ الإله براهما كان قد أوحى إلى أوّل هؤلاء الملوك (أوّل مانو) بهذا القانون، ثمّ نقل الملك أحكام هذا القانون إلى الكهنة الذين حفظوه، وتناقلوه جيلاً بعد جيل، ثمّ دوّنوه في كتابٍ ضخمٍ بالّلغة السّنسكريتيّة. ويرجّح أنّ

تكافحوا في الحروب باختيارهم قَتَل بعضهم بعضاً، ولا يصرفون وجوههم أخصامهم، ذهبوا من بعد إلى السّماء... لاقدامهم».

وكذلك ورد في الكتاب المسمّى «قصّة نله»، خطابُ الإله أندره للملك نله بهذه الكلمات: «أمّا حرّاس الأرض العدول المحاربون الذين تركوا أمل الحياة، الذّاهبون في الوقت المعيّن إلى الهلاك بالسّلاح، بدون أن يصرفوا وجوههم، إنّ لهم هذا العالم الباقي».

فنرى من مثل هذه الأقوال، أن علماء عبدة الأصنام من الهنود توهّموا، كما توهّم المسلمون، أنّه إذا قُتل إنسانٌ في كفاحٍ أو حربٍ استحقّ الدّخول في السّماء، وفردوس النّعيم، وعاشر الحور والغلمان المقيمين فيها. وكان أسلاف الإنكليز، وجميع سكّان شمال أوروبا، حينما كانوا وثنيّين، يعتقدون أنّ الغادات السّماويّات، ويسمّونهنّ بالكوريّات، أي منتخبات المقتولين، كُنّ يأتين إلى ميدان الحرب، ويحملن إلى سماء إله الحرب أرواح الأبطال الذين قُتلوا في الكفاح.

ثمّ إنّ المسلمين يعتقدون بوجود الجِنّ. غير إنّ اشتقاق كلمة جن أو جنّي تدلّ على إنّ مأخذها من لغةٍ أجنبيّةٍ؛ لأنّه لو كانت هذه الكلمة عربيّةً، وكانت مشتقّةً من الفعل (جنّ)، لاقتضى أن يكون مفردها (جنين)، على قياس أنّ لفظة (قليل) مأخوذةٌ من الفعل (قلّ). وذهب البعض الآخر إلى أنّ هذه الكلمة مشتقّةٌ من (جنّة)، ولكن يلزم أن يكون مفردها (جني)، مع إنّ هذا الأمر هو خلافه، وزد

تاريخ وضع هذا القانون يعود إلى القرن الثّالث عشر قبل الميلاد. (المراجع)

على هذا، أنّه لا علاقة للجِّنّ بالجنّة؛ لأنّه لا يجوز لهم الدّخول فيها. والحقيقة، هي أنّ هذه الّلفظة مشتقّةٌ من لغة الفرس القديمة؛ لأنّها وردت في الكتاب المسمّى «أوستا»، وهو كتاب الزّردشتيّة المقدّس، ودستور ديانتهم، بهذه الصّورة والصّيغة، وهي (جيني)، ومعناها روحٌ شرّيرٌ، فأخذ العرب الاسم والمسمّى من الزّردشتيّة.

يتّضح ممّا ذكرنا أعلاه عن الميزان، أنّه ورد في الأحاديث أنّه لما عرج محمّدٌ إلى السّماء، رأى أنّه إذا نظر آدم إلى الأسودة التي عن يمينه ضحك، وإذا نظر إلى الأسودة التي عن يساره ناح وبكى. وقد ظهر لنا قبلاً، أنّه ورد لنا ذكرُ هذا الشّيء ذاته في الكتاب الموضوع المسمّى «عهد إبراهيم»، أيضاً، وهو مصدر هذه الحكاية ومنشأها. غير إنّه يوجد هذا الفرق بين هاتين القصّتين، وهو أنّ الأرواح الوارد ذكرها في كتاب عهد إبراهيم هم أرواح الأموات، غير إنّ الأسودة المذكورة في الأحاديث هم أرواح أشخاصٍ لم يولدوا بعد، ويسمّيهم المسلمون الذّرّات الكائنات، ولا يُنكر أنّ لفظة (ذرّة) هي عربيّةٌ محضٌ، غير إنّ المسلمين اتّخذوا الاعتقاد بوجود الذّرّات الكائنات من قدماء الزّردشتيّة؛ لأنّ الزّردشتيّة كانوا، في قديم الزّمان، يعتقدون بمثل هذا الاعتقاد، وعبارة الأوستا هو: أنّ كلّ ذرّةٍ كائنةٍ تسمّى (فروشي)، وتسمّى باللغة البهلويّة (فروهر)[1]. وذهب

---

(١) أو فاراڤاهار: رمز الدّيانة الزّرادشتيّة، ويحوي صورةً لزرادشت على شكل طائرٍ، وهو موجودٌ على شكل آثارٍ قديمةٍ في عدّة أماكن في إيران. ويُعد أحد أشهر الرّموز الإيرانية، وغالبًا ما يتم ارتداؤه كقلادةٍ بين الإيرانيّين، بما في ذلك الكرد

البعض إلى أنّه يمكن أنّ الزّردشتيّة اتّخذوا هذا الاعتقاد من قدماء المصريّين، ولكن، على كلِّ حالٍ، قد اتّخذه العرب من الزّردشتيّة، وأدخلوه ديانتهم.

قد رأينا أنّ المسلمين اتّخذوا من اليهود لقب (ملك الموت)؛ لأنّ اليهود يطلقون عليه هذا اللّقب بالعبري. أمّا من جهة اسم هذا الملاك فكلا الفريقين يتّفقان عليه، ولا يوجد بشأنه سوى اختلافٍ زهيدٍ بينهم. فاليهود يسمّونه «سمائيل»[1]، والمسلمون يسمّونه عزازيل، غير إنّ لفظة عزازيل ليست لفظةً عربيّةً، بل هي لفظةٌ عبريّةٌ، معناها نصرة الله. ولم يرد اسم هذا الملاك في التّوراة والإنجيل.

فيتّضح، إذن، أنّ اليهود اقتبسوا معلوماتهم عنه عن مصدرٍ آخر، والأرجح أنّ مصدر معلوماتهم هو الأوستا، فإنّه ورد فيها: إذا وقع إنسانٌ في الماء أو في النّار أو في أيِّ شيءٍ من هذا القبيل، فغرق أو أُحرق، فلا يكون سبب موته الماء أو النّار بل ملاك الموت؛ لأنّهم زعموا أنّ هذين العنصرين؛ وهما: الماء والنّار، صالحان، ولا يؤذيان النّاس. ويسمّى ملاك الموت بلغة أوستا «أستوويدهوتش»[2].

والزّرادشتيين، وأصبح رمزًا علمانيًا وطنيًا وثقافيًا. (المراجع)

(١) يعتبر الشّيطان غالباً رئيس ملائكةٍ ساقط، كان يسمّى قبل سقوطه لوسيفر أو سمائيل. وكان يشار إلى أحد الشّخصيّات التّلموديّة المعروفة بسمائيل Samael، ومعنى إسمه «نقمة الله» أو «غضب الإله الأعمى». وهو رئيس الملائكة في العالم التّلمودي، وكثيراً ما يتّهم بأنّه الشّيطان والملاك السّاقط. (المراجع)

(٢) أنظر: كتاب وندیداد، الفصل الخامس، الأسطر ٢٥-٣٥.

(٢) في قصّة خروج عزازيل من جهنّم: لا يخفى أنّ المسلمين اتّخذوا اسم عزازيل من اليهود، فيسمّونه بهذا الاسم. وتوجد هذه اللّفظة بالتّوراة، بالأصل العبري[١]، ولكنّهم اتّخذوا قصّة خروجه من جهنّم من الزّردشتيّة، كما يتّضح من مقارنة أقوال الأحاديث، بما ورد في كتابٍ بهلاويٍّ يسمّى «بوندهشنية»، أي الخليقة. فورد في «قصص الأنبياء» ما نصّه[٢]:

«خلق الله عزازيل. فعبد عزازيل الله تعالى ألف سنةٍ، في سجنٍ، ثمّ طلع إلى الأرض، فكان يعبد الله تعالى في كلِّ طبقةٍ ألف سنةٍ إلى أن طلع على الأرض الدّنيا».

وورد في «عرائس المجالس»[٣] أنّ إبليس، يعني عزازيل، أقام ثلاثة آلاف سنةٍ عند باب الجنّة، بالأمل أن يضرّ آدم وحوّاء؛ لامتلاء قلبه بالحسد. وورد في «بوندهشنيه»:

«أنّ أهرمن، ويعني إبليس، كان ولا يزال في الظّلام، غير عالمٍ بالأشياء إلّا بعد وقوعها، وحريصاً على إيصال الضّرر للآخرين، وكان في القعر... وذلك الميل للضّرر، وتلك الظّلمة، أيضاً، هما محلٌّ يسمّونه بالمنطقة المظلمة، وكان أورمزد يعرف، بعلمه التّامّ، بوجود أهرمن؛ لأنّه، أي أهرمن، يهيّج نفسه، ويتداخل بالميل للحسد حتّى

---

(١) سفر اللّاويّين، الاصحاح ١٦، الآيات ٨، ١٠، ٢٦.

(٢) ص ٩.

(٣) وجه ٤٣.

الآخر... وكانا، أي أورمزد وأهرمن، مدّة ثلاثة آلاف سنةٍ، بالرّوح، يعني كانا بدون تغييرٍ ولا حركةٍ... فالرّوح الضّارُّ لم يعرف بوجود أورمزد؛ لقصور معرفته. وأخيراً، طلع من تلك الهاوية، وأتى إلى المحلِّ الباهي، ولما شاهد نور أورمزد ذلك اشتغل بالأضرار».

فالفرق بين الأحاديث وبين هذا القول ظاهرٌ؛ لأنّه ذُكر في الأحاديث أنّ عزازيل كان يعبد الله قبل خروجه من سجنٍ، ولكن الزّردشتيّة ذهبوا إلى أنّ أهرمن لم يدر بوجود أورمزد أوّلاً. ولكن توجد مشابهةٌ أيضاً بين هاتين الرّوايتين، وهي أنّ عزازيل وأهرمن دخلا الوجود في سجين، أو في الهاوية، وصعد كلٌّ منهما من ذلك المحلِّ، وبذلا جهدهما في الإضرار بخلق الله.

وقبل ختام الكلام على عزازيل أو أهرمن، لا بأس من إيراد الدّليل والبرهان على وجود علاقةٍ ومناسبةٍ بين هاتين القصّتين فنقول: يتّضح من الأحاديث، ومن كتب الزّردشتيّة أنّ الطّاووس وافق، من بعض الوجوه عزازيل، الذي هو أهرمن؛ لأنّه ورد في «قصص الأنبياء» أنّه لما جلس عزازيل أمام باب الجنّة، ورغب في الدّخول فيها، رأى الطّاووس الذي كان جالساً على الجنّة واحداً يتلو أسماء الله العظمى الحسنى. فقال له الطّاووس: من أنت؟ فقال له: أنا أحّد ملائكة الله عزّ وجلّ. فقال له الطّاووس: لماذا أنت جالسٌ هنا؟ فقال له عزازيل: أنظر الجنّة، وأتمنّى الدّخول فيها. فقال له الطّاووس: لم أُؤمر بإدخال أحّدٍ إلى الجنّة، ما دام آدم (ع) فيها.

فقـال لـه: إذا كنت تـأذن لي بالدّخول فيها أعلّمك صلـوةً مَن تلاها نال ثلاثة أشـياءٍ: أحّدها- أنّه لا يكبر، وثانيها- أنّه لا يصير عاصياً، وثالثها- أنّـه لا يُطرد من الجنّة. فأخبرها إبليس بهذه الصّلوة فتلاها الطّاووس فطار من سـور الجنّة إلى الجنّة ذاتها، وأخبر الحيّة بما سمعه من إبليس. وذُكر بعد هذا، أنّه لما هبط الله سبحانه وتعالى آدم وحوّاء وإبليس من الجنّة إلى الأرض طَردَ الطّاووس معهم، أيضاً.

أمّـا قصّة الطّـاووس في كتب الزّردشـتيّة فتختلف عن هذا، غير إنّهـم، في قديم الأيّام، ظنّوا أنّه مسـاعدٌ لأهرمـن؛ لأنّه ورد في كتابٍ أرمنيٍّ قديمٍ يسـمّى «رد البدع»، في الباب الثّاني، تأليف «يزنيق»، ما نصّه عن الزّردشتيّة، في تلك الأعصر:

«قالوا: أنّ أهرمن قال: إنّه ليس إنّني لا أقدر أن أعمل شـيئاً من الخير، ولكنّني لا أريده، وخَلَقَ الطّاووسَ لإثبات هذا الكلام»

فإذا كان أهرمن أو عزازيل هو الذي خلق الطّاووس، فلا غرابة إذا كان هو الذي علّمه، وصار مُعِينَه، وطُرِد معه من الجنّةِ.

(٣) نـور محمّـدٍ: ورد في «قصـص الأنبيـاء» أنّ محمّداً قـال: أوّل مـا خلق الله نـوري[١]. وذُكر في «روضة الأحبـاب»، أنّ محمّداً قال: «لما خلق آدم وضع الله على جبهته ذلـك النّور، وقال: يا آدم إنّ هذا النّـور وضعته على جبهتـك، هو نور ابنك الأفضـل الأشرف، وهو

(١) ص ٢، وكذلك ص ٢٨٢.

نـور رئيـس الأنبياء الذي يُبعث». ثـمّ ورد بعد ذلـك أنّ ذلك النّور انتقل من آدم إلى شـيث، ومن شـيث إلى ذريّته، وهكـذا، بالتّعاقب، إلى أن وصل إلى عبدالله بن المطّلب، ومنه إلى آمنة لما حبلت بمحمّدٍ. وورد، أيضـاً في الأحاديث، أنّ محمّداً قال: «إنّ الله تعالى قسّـم النّور على أربعة أقسـام، وخلق العرش من قسـمٍ من هذه الأقسام، وخلق القلم من قسـمٍ، وخلق الجنّة من قسـمٍ، وخلق المؤمنين من قسمٍ. ثمّ قسّم هذه على أربعة أقسامٍ أخرى؛ فمن أفضل وأشرف القسم الأوّل خلقني أنا الرّسـول، ومن القسم الثّاني خلق العقل، وجعله في رأس المؤمنين، ومن القسـم الثّالث خلق الحياء، وجعله في أعين المؤمنين، ومن القسم الرّابع خلق العشق، وجعله في قلوب المؤمنين»[1].

فـإذا بحثنـا عن مصـدر هذه القصّـة، وجدناها، أيضـاً، في كتب الزّردشـتيّة. ولا شكّ، أنّه يُشتمُّ من هذه القصّة بعض رائحة ما ورد في: (التّكويـن، ويوحنّـا)[2]؛ لأنّه ورد في كتابٍ فـارسي قديمٍ يدعى «مينوخرد»، أُلّف باللّسان البهلوي، في أيّام ملوك الفرس السّاسانيّة، أنّ الخالق أورمزد خلق هذه الدّنيا، وجميع ورؤساء الملائكة، والعقل السّـماوي، مـن نوره الخصـوصي، مع تسـبيح الزّمان غـير المتناهي. وذُكر هذا النّور في كتابٍ أقدم من «المينوخرد»؛ لأنّه ورد في «يشـت

(١) قصص الأنبياء، ٢.

(٢) التكوين، الاصحاح ١، الآية ٣؛ الاصحاح ١، الآيتان ٤، ٥.

٢٩»[1]، بخصوص «يمه خشائته» المسمّى، الآن، «جمشيد» ما نصّه:

{إنّ البهاء الملكي العظيم كان ملازماً لجمشيد، صاحب القطيع الصّالح، مدّةً طويلةً، بينما كان هو متسلّطاً على سبعة أقاليم: الأرض على الجنّ، والأنس، والسّحرة، والجنّيات، والأرواح الشّرّيرة، والعرّافين، والكهنة... ثمّ لما خطرت بباله تلك الكلمة الكاذبة السّاقطة زال منها البهاء الظّاهر، بصورة طيرٍ... وهو أي جمشيد، صاحب القطيع الصّالح، لما لم ير بعد ذلك البهاء تحسّر جم، ولما اضطرب اشتغل في احداثِ العداوة على الأرض. وأوّل ما زال ذلك البهاء زال من جمشيد، وزال ذلك البهاء من جم، ابن الشّمس، بصورة طيرٍ، وراغ[2]... فأخذ مثره ذلك البهاء، ولما زال البهاء ثانيةً من جمشيد زال ذلك البهاء من جم، ابن الشّمس، وفارقه بصورة طيرٍ وزاغ. فأخذ فريدون ابن القبيلة الآثويانيّة، ابن القبيلة المشهورة بالبسالة، ذلك البهاء، لأنّه كان فريدون أعظمَ من فاز بين الفائزين، ولما زال ذلك البهاء من جمشيد ثانيةً زال ذلك البهاء من جم، ابن الشّمس، بصورة طيرٍ وزاغ، فأخذ كرساسبه البطل ذلك البهاء؛ لأنّه

(١) جمعها يشتات: وهي كلمةٌ أفستائيّةٌ تعني الفدية وشكر الخالق واحترام الملائكة، أي (العبادة والتّمجيد)، واليشتات الحالية هي كلامٌ موزونٌ وإن لم ترد شعراً، بل وردت بأسلوبٍ شاعري في عباراتٍ رقيقةٍ وخيالاتٍ ساميةٍ، وتشمل على واحدٍ وعشرين يشتاً (فصلاً)، بعضها قصيرٌ لا يتجاوز سطراً واحداً، والآخر طويلٌ يشتمل على عدّة صفحاتٍ. (المراجع)

(٢) الأرجح أنّ معنى لفظة وراغ هو مضيءٌ، وهو يشبه كلمة براق أو برق.

كان أقوى من الأقوياء}

فإذا قارنا بين هاتين القصّتين رأينا أنّ جمشيد كان حائزاً على هذا النّور العجيب مدّةً من الزّمن. وكان جمشيد، حسب تعاليم أوستا، أوّل رجلٍ خلقه الله على الأرض، ومرادهم به آدم أبو البشر. ولما سقط جمشيد في الخطيّة، واقترف الزّلل، انتقل ذلك النّور من واحدٍ إلى آخر، من أفضل أولاده بالتّتابع. وهذا يطابق ويوافق ما ذُكر في الأحاديث بخصوص نور محمّدٍ. فيتّضح أنّ خرافة الفرس هذه القديمة هي مصدر ما رووه عن نور محمّدٍ. ولا شكّ أنّ المسلمين اتّخذوا هذه القصّة من الزّردشتيّة.

وممّا يجب التّنبيه عليه، والالتفات إليه، أنّه ورد في كتاب الزّردشتيّة القديم: أنّ الملك العظيم جمشيد تسلّط على النّاس والجنّ والأرواح الشّريرّة. فلا بدّ أنّ اليهود اتّخذوا من هذه الرّواية ما نسبوه إلى الملك سليمان من القوّة والسّلطة على النّاس والجنّ، والخ. واتّخذ المسلمون من اليهود هذا الاعتقاد، كما رأينا في الفصل الثّالث، من هذا المجلّد. ولا يخفى، أيضاً، أنّ ما قاله المسلمون عن تقسيم نور محمّدٍ على أقسامٍ ورد، بالتّفصيل التّامّ، وإن كانت تختلف صورة القصّة عنه اختلافاً زهيداً، لا يعتدّ به، في كتابٍ فارسي قديمٍ يدعى «دساتير آسماني»[1]،

(١) نصٌّ صوفي زرادشتي مكتوب بلغة منتحلة. على الرّغم من أنها تدّعي أنها من أصلٍ قديم، إلّا أنّها تعتبر الآن بشكلٍ عام تزييفًا أدبيًّا. ربّما تمّ تأليفه في القرن ١٦ أو ١٧ من قِبل عازار كيفان، زعيم الزّرادشتيّة. مع ذلك قُبلت دساتير آسماني في المجتمعات الزرادشتية في إيران والهند باعتبارها صحيحة، خاصة من الكادمي،

أي الأساطير السّماويّة، في الباب الوارد بخصوص زردشت، فنرى من ذلك، أيضاً، أنّ تفاصيل نور محمّدٍ مأخوذةٌ من كتب الزّردشتيّة.

(٤) الكلام على الصّراط: قال المسلمون: أنّ محمّداً قال: إنّه، بعد دينونة يوم الدّين الأخيرة، يُؤمر جميع النّاس بالمرور على الصّراط، وهو شيءٌ ممدودٌ على متن جهنّم بين الأرض والجنّة. وقالوا: إنّ الصّراط هو أدقّ من الشّعرة، وأحدّ من السّيف، فيقع منه الكفّار، ويهلكون في النّار. فمن أراد معرفة منشأ هذا القول وجب عليه؛ أوّلاً- أن ينظر في اشتقاق كلمة صراط؛ لأنّ أصلها ليس من اللّغة العربيّة. فلا بدّ أنّها اتّخذت من لغةٍ أخرى؛ لأنّ لفظ صراط هي معرّبةٌ؛ فأصلها فارسيٌّ. وبيان ذلك أنّ الزّردشتيّة يسمّون الصّراط «جينود»، وبما إنّه لا يوجد حرف (چ) في الأحرف العربيّة، كما لا يخفى، فاستعمل بدلاً عنه حرف (ص). فكلّ كلمةٍ غريبةٍ تكون مبدوءةً بحرف (چ)، ويراد تعريبها، يُبدل حرف (چ) إلى (ص). مثلاً (چين) تصير (صين)، وعلى هذا القياس تكون لفظة صراط معرّبةً عن جينود. ولم يتّخذ المسلمون من قدماء الزّردشتيّة كلمة صراط فقط، بل اتّخذوا عنهم هذا الاعتقاد برمّته، كما يظهر من مجرّد التّأمل في العبارة الآتية المأخوذة من كتابٍ بهلويٍّ يسمّى «دينكرت»، ونصّه[1]:

ولكن يُعتقد بشكل عام أنها محض تزييف. (المراجع)

(١) ج ٢، الفصل ٨١، القسمان ٥، ٦. أو دين كرد أو دينكرد: عبارةٌ عن مدوّنةٍ من النّصوص الدّينيّة الزّرادشتيّة، جمعت في القرن العاشر الميلادي. تضمّ هذه الموسوعة

{أهـربُ مـن الخطايـا الكثـيرة، وأحافـظ عـلى نقـاوة وطهـارة سـلوكي، بحفظ طهارة قوى الحيوة السِّـت؛ وهي: الفعل، والقول، والفكـر، والذّهـن، والعقـل، والفهـم، حسـب ارادتـك يا مسبِّب الأعمال الصّالحة العظيم. وأين أودي عبادتك بعدالةٍ، بحسن الفكر، والقول، والعمل، لاستمرّ في الطّريق الباهية؛ لكي لا أُعاقب بعقاب جهنّم الصّارم، بل أعبر على جينود، وأصل إلى ذلك المسكن المبارك، المملوء من العطريّات، والمسِّرِّ بأجمعه، والباهر دائماً}.

واعلـم، أنّ كلمة صراطٍ، وإن كان معناها في الأصل يفيد الجسر الممدود، فقط إلى آخر ما تقدّم، إلّا أنّهم توسّعوا في معنى هذه الكلمة بعـد ذلـك، فصارت تفيد الطّريـق، كما وردت بهذا المعنى في سـورة الفاتحـة[1]. ومعنى الصرّاط الحقيقيّ، الذي لا يمكن أن يسـتفاد من العربيّـة، هو واضـحٌ إذا اطّلعنا عـلى اللّغة الفارسـيّة القديمة؛ لأنّها مشـتقّةٌ من كلمتين فارسيّتين قديمتين؛ معنى الواحدة منهما الاتّحاد، ومعنـى الثّانية معبر، فيفيد مجموع هاتـين اللّفظتـين: القنطرة، التي

الزّرادشـتية تسـعة كتـبٍ، تبقّى منها سـبعةٌ فقـط؛ إذ ضـاع الكتابـان الأوّل والثّاني. وتتحـدّث هـذه الكتب عـن مجموعةٍ مـن العقائد والمعتقـدات والطّقوس والشّـعائر الزّرادشـتيّة، إضافة إلى تفسـير نصوصٍ من الأفستا، وسرد تاريخ العالم، وفق المنظور الدّيني الزّرادشـتي، وكذلك تحتوي على سردٍ أسـطوري عن حياة زرادشـت. إضافة للردّ على بعض اعتراضات وتساؤلات المسلمين والمسيحيّين. (المراجع)

(١) الآيتـان ٦-٧: ﴿اهْدِنَـا الـصِّرَاطَ الْمُسْـتَقِيمَ، صِراطَ الَّذِيـنَ أَنْعَمْـتَ عَلَيْهِـمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾. (المراجع)

ذهب الزّردشتيّة إلى أنّها توصل الأرض بالجنّة[1].

(٥) في ذكر قضايا قليلةٍ مهمّةٍ: لما كان ذكر جميع الأشياء التي اتّخذها المسلمون من الزّردشتيّة، بالاستيفاء الكافي والتّفصيل الوافي، لا يخلو من التّطويل المملّ، اكتفينا بذكر ثلاث أو أربع قضايا أخرى من هذا القبيل طلباً للاختصار؛ أحّدها- أنّ المسلمين ذهبوا إلى أنّ كلّ نبيٍّ شهد قبل موته للنّبي الذي يأتي بعده، فذهبوا مثلاً إلى أنّ إبراهيم شهد لموسى، وشهد موسى لدواد، وهلمّ جرّاً. ولكن كلّ من طالع كتب الأنبياء وجد الأمر خلاف ذلك، فإنّه يرى أن جميع الأنبياء، من أوّلهم إلى آخرهم، شهدوا للمسيح وحده لا غير.

وبما أنّ المسلمين لم يتّخذوا ما ذهبوا إليه من التّوارة والإنجيل وجب أن نبحث عن مصدر هذا الرّأي، فنقول: يوجد كتابٌ من كتب الزّردشتيّة يسمّى «دساتير آسماني»، أي الأساطير السّماويّة. وهذا الكتاب من الكتب المتأخّرة الحديثة؛ لأنّ مصنّف «دبستان مذاهب»[2]، ومؤلّف «البرهان القاطع»[3] ذكرا هذا الكتاب.

---

(١) وُجِد ما يُشبه هذا المعنى بين أسلاف سكّان شمال أوربا، كما يُستدلّ من تسميتهم جسر أو قنطرة الإله، بقوس قزح. وبما أنّهم أتوا بهذا المعنى من آسيا لما أتوا إلى أوربا واستعمروها. فيتّضح أنّ هذا المذهب هو قديمٌ جدّاً.

(٢) كتابٌ فارسي في المذاهب والملل المختلفة، وهو مجهول المؤلّف. والكتاب عرضٌ للمذاهب الدّينيّة المنتشرة في الهند في القرن ١١ ﻫ/ ١٧ م، وفي ختامه درسٌ عن الفلاسفة المشّائين وأتباع الأفلاطونية المحدثة. (المراجع)

(٣) قاموسٌ فارسي في اللّغات الفارسيّة البهلوية وبعض اللّغات التّركيّة، من تأليف الشّاعر برهان التّبريزي. ألّفه باسم السّلطان عبد الله قطب شاه الذي توفي سنة

وقالت الزّردشتيّة، كذباً وبهتاناً، أنّه مكتوبٌ بلغة السّماء، وتُرجم إلى اللّغة الدّاريّة[1]، في عصر «خسرو برويز»[2]، أحّد قدماء ملوك الفرس. ولا يزال هذا الكتاب موجوداً باللّغة الأصليّة، وبالكيفيّة المترجم إليها، وطبع في بونباي منذ سنين عديدةٍ. وقال ملّا فيروز، الذي طبع هذا الكتاب، أنّه يشتمل على خمس عشرة رسالة، نزلت على خمسة عشر نبيّاً؛ أوّلهم مهاباد[3]، وآخرهم ساسان الخامس، ومنهم زردشت الثّالث عشر. وفي آخر كلّ رسالةٍ، من هذه الخمس عشرة رسالة، ذكرُ النّبي الذي كان ينبغي أن يأتي بعدئذٍ، في الوقت المعيّن. ولا شكّ أنّ هذا الكتاب هو من الكتب الموضوعة الكاذبة، مع إنّه كان مؤلّفاً في الأصل باللّغة البهلويّة، قبل أن يترجم إلى اللّغة الدّاريّة، وبناءً على ذلك فهو كتابٌ قديمٌ. والظّاهر أنّ ما ذهب إليه الفرس من أنّ كلّ نبيٍّ تنبّأ عن مجيء خلفه، وقع موقعاً حسناً عند المسلمين، فاتّخذوه من كتاب الزّردشتيّة هذا. وثاني فقرةٍ من كلّ

١٠٨٣ هـ وفرغ منه سنة ١٠٦٢ هـ. (المراجع)

(١) أو الدّريّة: لغةٌ آريّةٌ تنتمي إلى مجموعة اللّغات الهندو-أوروبيّة، وهي بذلك تكون ذات قرابةٍ باللّغة الفارسيّة في إيران واللّغة السّنسكريتيّة في الهند، وكذلك اللّغات الجرمانية واللّاتينيّة. وتنتشر في أفغانستان، تشتمل أبجديّتها على ٣٧ حرفاً. (المراجع)

(٢) أو كِسرَى الثاني (٥٩٠-٦٢٨م): آخرُ ملوكِ الإمبراطوريّة السّاسانيّة في إيران، وأعظمُهم كما يعتبرُهُ المؤرخونَ. حَكَم بين عامي (٥٩٠-٦٢٨) باستثناء عامٍ واحدٍ لم يكن فيه ملكاً. (المراجع)

(٣) يعتقد أنّه نبي ما قبل الزّرادشتيّة. يدعى نار الحكمة. وفي بعض التّقاليد يعتقد أنّه أوّل إنسانٍ. ويعدّ من أرفع الأنبياء وسلفاً للجّنس البشري بأكمله. (المراجع)

رسالةٍ من هذه الرّسائل هي هذه:

{بسم الله المعطي الغافر الرّحمن العادل}

فكلٌّ إنسانٍ يرى أنّ هذه الكلمات توافق، من بعض الوجوه، البسملة التي افتتحت بها المائة وثلاث عشر سورة، من سور القرآن، البالغة ١١٤؛ وهي:

﴿بسم الله الرّحمن الرّحيم﴾

فالكلمات الأولى البوندهشنيّة تشبهها، أيضاً، ونصّها:

{بسم أورمزد الصّانع}

وممّا يجب التّنبيه عليه، أنّ قدماء الزّردشتيّة كانوا يؤدّون الصّلاة خمس مرّاتٍ، كلّ يوم، فيوجد اتّفاقٌ بين الزّردشتيّة وبين الصّابئيّين في هذا الأمر. ورأينا أنّ الصّلوات الخمس المفروضة على المسلمين تطابق خمساً من الصّلوات السّبع المفروضة على الصّابئيّين.

(٧) ختام الكلام. وإذا قال قائلٌ: لا يصحّ أنّ محمّداً استحسن استحساناً تامّاً قصص الزّردشتيّة ورسومهم حتّى أدرجها في القرآن والأحاديث، وأيضاً، لا يتصوّر أنّ هذا النّبيّ الأمّيّ يعرف كلّ هذه الأشياء. قلنا: إنّ المعترضين ردّوا على هذا القول قائلين:

(أوّلاً) ورد في «روضة الأحباب»، أنّه كانت عادة محمّدٍ المحادثة والمسامرة والمحاورة مع كلٍّ من يقصده، على اختلاف مِللهم ونِحلهم، وكان يخاطبهم بألفاظٍ قليلةٍ من لغتهم. وبما أنّه

كان كثيراً ما يُتكلّم بالفارسية تداولت بعض الألفاظ الفارسيّة في اللّغة العربيّة.

(ثانياً) ردّوا قائلين: إذا ثبت ممّا تقدّم أنّ محمّداً استحسن خرافات اليهود وروايات العرب الوثنيّين، عبدة الأصنام ورسومهم، حتّى أدرجها في القرآن، فما الفرق بين هذا وبين استحسانه لقصص الفرس. أمّا من جهة القصص الكثيرة الواردة في القرآن، فمن المسلّم الذي لا يُنكر أنّ هذه القصص تواترت بين العرب تواتراً عظيماً، حتّى قال الكندي[1] عنها ما نصّه: «فإن ذكرت قصّة عادٍ، وثمود، والنّاقة، وأصحاب الفيل، ونظائر هذه القصص، قلنا لك هذه أخبارٌ باردةٌ، وخرافات عجائز الحيّ اللّواتي كنّ يدرسنها؛ ليلهن ونهارهن».

(ثالثاً) يُعلم من سيرة الرّسول، بتأليف ابن هشام وابن إسحق، أنّه كان من صحابة محمّدٍ شخصٌ فارسيٌّ اسمه سلمان، وهو الذي أشار على محمّدٍ، وقت حصار المدينة، بحفر الخندق، فسمع قوله، واتّبع نصيحته. وكذلك سلمان الفارسي هذا كان أوّل من أشار على محمّدٍ باستعمال المنجنيق في غزوة ثقيف الطّائف. وأكّد أعداء محمّدٍ

(١) أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي (٢٥٦هـ/ ٨٧٣م): علاّمةٌ عربي مسلمٌ، برع في الفلك والفلسفة والكيمياء والفيزياء والطّب والرّياضيات والموسيقى وعلم النّفس والمنطق الذي كان يعرف بعلم الكلام. يعدّ الكندي أوّل الفلاسفة المتجوّلين المسلمين، كما اشتهر بجهوده في تعريف العرب والمسلمين بالفلسفة اليونانيّة القديمة والهلنستيّة. (المراجع)

في عصره أنّ سلمان هذا ساعد محمّدٍ على تأليف القرآن، كما ورد ذلك في سورة النّحل:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾[1]

فلا شكّ إذا قال المعارضون الأوّلون لمحمّدٍ أنّ هذا العجمي أو الفارسي المسلم كان سبب حسن تأليف القرآن، وفصاحة عبارته، فهذا الجواب يكفي لدحض أقوالهم. ولكن بما أنّه ثبت أنّ كثيراً من المطالب الواردة في القرآن وفي الأحاديث تطابق مطابقةً غريبةً لما ورد في كتب الزّردشتيّة، فهذه الآية القرآنية لا تكفي لدحض الاعتراض الذي عزّز الآن ببراهين جمّة وأدلّة مهمّة، بل نقول: أنّ الآية التي أوردناها تدلّ على إنّه كان قد اشتهر في عصر محمّدٍ أنّ سلمان الفارسي ساعد محمّداً على التّأليف، وأفاده بحقائق كثيرةٍ. فينتج عن ذلك، أنّنا ملزمون أن نسلّم أنّ كتب الزّردشتيّة كانت مصدراً من المصادر التي اتّخذت بعضاً منها الدّيانة الإسلاميّة.

(١) الآيتان ١٠٣-١٠٤.

الفصل السّادس

بخصوص الحنفاء وتأثيرهم في أفكار محمّدٍ وتعاليمه

إنّه قبل ظهـور محمّدٍ وادعّائه النّبوّة سـئمت أنفس بعض العرب مـن عبادة الأصنام، وأخذوا يبحثون عن الدّين الحقيقي، ولما عرفوا من اليهـود، وربّما بعض أخبارٍ وصلت إليهـم بالتّقاليد والتّواتر من الأزمنـة القديمـة، أنّ إبراهيـم كان يعتقد بوجود الله الحـيّ الحقيقيّ الوحيـد؛ فلذا أخذ بعض العـرب المقيمين في مكّة والمدينة والطّائف في البحـث، لمعرفة ديـن خليل الله، ونبـذوا عبادة الأصنـام. فكانوا يسـمّون الذيـن وجّهوا أنظارهـم وأفكارهم إلى هـذه القضيّة المهمّة (الحنفـاء). ومـن هؤلاء: أبو أمـير[1] وأصحابه في المدينـة، وأميّة بن زلـط[2] في الطّائـف، وأربعـة من سـكّان مكّة؛ وهـم: ورقـة، وعبيد الله[3]، وعثمان[4]، وزيد[5].

(١) لم يوفّق المترجم في ترجمة اسمه فهو ليس أبا أميرٍ إنّما أبو عامرٍ بن صيفي الرّاهب. وهـو من الأوس مـن بني عمرو بن عـوف، كان في الجاهلية يعـرف بالرّاهب، وكان يذكـر البعث ودين الحنيفيّة، خرج إلى مكّة، ثمّ قدم مع قريشٍ يوم أحُد محارباً، فسمّاه الرّسـول بالفاسق. وأقام بمكّة فلمّا فُتحت هرب إلى هرقل والرّوم، فمات هنالك سنة ٩، وقيل ١٠. (المراجع)

(٢) لم يوفّق المترجم كذلك في ترجمة اسم الأب فهو ليس «الزلط»، إنّما الصّلت: وهو شاعرٌ جاهلي، ومن رؤساء ثقيف، اشتُهر بالحنيفيّة والتّوحيد، وكان من الدّعاة إلى نبذ الأصنام وتوحيد الإله، وقد قرأ الكتب. (المراجع)

(٣) عبيد الله بن جحش بن رئاب الأسـدي: ابن عمّة النّبي محمّد. أسـلم وهاجر إلى الحبشة مع زوجته أمّ حبيبة، ثمّ تنصّر بالحبشة، ومات على النّصرانيّة. (المراجع)

(٤) هـو عثمان بن الحويرث: وهـو أحّد الحنيفيّين الأربعة الذين تركوا عبادة الأصنام في الجاهليّـة قبـل البعثة النّبويّة. قـدم على قيصر، ملك الرّوم فتنصّر وحسـنت منزلته عنده. (المراجع)

(٥) هو زيد بن عمرو بن نفيل: حنيفي، وأحّد أشهر الموحّدين في الجاهليّة. نبذ عبادة

فقـال المعترضون أنّ آراء هؤلاء القوم الحنفاء، وقدوتهم ومثالهم ومحادثتهم مع محمّدٍ، ولا سيّما زيد بن عمرو، أثّر في أفكار محمّدٍ تأثيراً عظيماً، وأثّر في ديانته. واسـتدلّوا على تأييد أقوالهم بما ورد في القرآن ذاته. ولكي يتأكّد مطالعو كتابنا هذا من صحّة هذا القول أو فسـاده يجب عليهم أن يطالعوا ما قاله ابن إسـحق وابن هشـامٍ، بخصوص حنفاء مكّة.

وممّـا يجـب التّنبيـه عليه، هو مـع إنّ كثيريـن ألّفوا كتباً في سـيرة محمّدٍ، إلّا أنّ كتاب ابن هشـامٍ، المسـمّى سـيرة الرّسـول، هو أجدر هذه الكتـب بالاعتماد، وأحقّها بالاعتبار؛ لأنّه أقدمها، وأقرب منها إلى عـصر محمّدٍ. وأوّل من جمع أقوال محمّـدٍ وأفعاله هو الزّهري[1]، الـذي توفي سـنة ١٢٤ من الهجـرة، فنقل أخبـاره مـن التّواتر الذي أخـذه عن الصّحابة، ولا سـيّما من عروة[2] أحّد أقرباء عائشـة، ولا

الأصنام، ووحّد الله باحثاً عن دين إبراهيم الحنيف. ارتحل في الجزيرة العربيّة والشّام والعـراق باحثاً عن الإسـلام، وهنـاك قابل أحبار اليهـود والنّصارى، وعلـم أنّ نبيّاً سيبعث، ولم يقتنع باليهوديّة ولا النّصرانيّة فظلّ على حنيفيّته، إلّا أنّ أحّد الأحبار قال لـه: «إرجـع فإنّ النّبي الـذي تنتظره يظهر في أرضك». فرجع زيـدٌ إلى مكّة، وقد لقي محمّـداً غـير ما مرّةٍ، غير أنّـه لم يدرك البعثة، وذكر عنه النّبي أنّـه كان يأبى أكل ما ذبح للأصنام. (المراجع)

(١) ابـن شـهابٍ الزّهـري القرشي (١٢٣ أو ١٢٤هـ): سـكن الشّـام. اشـتهر بعلم الحديـث والمغازي. أكـبّ على العلم، ولازم بعض صغار الصّحابـة وعلماء التّابعين. أسـند الزّهـري أكثر من ألف حديـثٍ عن الثّقـات، ومجموع أحاديـث الزّهري كلّها ٢٢٠٠ حديث. (المراجع)

(٢) عُـروة بن الزُّبير بن العوام الأسـدي (٩٤ هــ/ ٧١٣ م): تابعي ومحدّث ومؤرّخ

شـكّ أنّه، مع تمادي الزّمان، ومرور سنين عديدةٍ، عبث به العابثون، فدخلـت في أخبارهم الأغلاط والمبالغات. ومع ذلك لو كان كتاب الزّهـري موجوداً، ولم تغتلـه أيدي الضّياع، لـكان مفيداً للمحقّقين الذيـن يـودّون معرفـة حقائق الأمـور بخصـوص محمّـدٍ؛ لأنّه هذا الكتاب أقدم من غيره. وبالنّتيجة يكون جديراً بالاعتماد أكثر من أيّ كتابٍ آخر أُلّف عن سيرة محمّدٍ. ومع إنّ أيدي الضّياع اغتالت هذا الكتاب، ولم يبق له أثرٌ بعد عينٍ، إلّا أنّ ابن إسحاق، الذي توفي سنة ١٥١ هجريـة، كان أحّـد تلاميذ الزّهري، الذين أخـذوا العلم منه. فابن إسـحق ألّف كتاباً آخر في هذا الصّدد، ونقل ابن هشـامٍ، الذي توفي في سـنة ٢١٣ هجرية، في كتابه المسـمّى «سيرة الرّسول» أجزاءً كثيرةً من كتاب ابن إسحق[١]. فاعتمادنا إذن في نقل أخبار الحنفاء هو على «سيرة الرّسول»، تأليف ابن هشامٍ. وقد ورد فيها ما نصّه[٢]:

«قال ابن إسحق: اجتمعت قريشُ يوماً في عيدٍ لهم، عند صنمٍ من أصنامهم كانوا يعظّمونه، وينحـرون له، ويعكفون عنده، ويديرون بـه، وكان ذلـك عيداً لهم في كلّ سـنةٍ يوماً، فخلص منهـم أربعة نفرٍ

مسـلم، وأحّد فقهاء المدينة السّـبعة، وأحّد المكثرين في الرّواية عن خالته عائشـة بنت أبي بكر زوجة النّبي محمّدٍ، ومن الأوائل الذين سـعوا إلى تدوين الحديث، كما كان له مساهماتٌ رائدةٌ في تدوين مقتطفاتٍ من بدايات التّاريخ الإسلامي، اعتمد عليها من جاء بعده من المؤرّخين المسلمين. (المراجع)

(١) خلط بين ابن اسحاق وابن هشام في التّأليف. (المراجع)

(٢) سيرة الرّسول، ج ١، ٧٦-٧٧.

نجيّاً. ثمّ قال بعضهم لبعضٍ: تصادقوا، وليكتم بعضكم على بعضٍ. قالوا: أجل. وهم: ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزّى بن قصيٍّ بن كلابِ بـن مرّةَ بن كعبِ بن لؤيٍّ، وعبيد الله بن جحشٍ بن رئابِ بن يعمر بن صبرةَ بن مرّة بن كبيرِ بن غنمِ بن دودانَ بن أسد بن خزيمةَ، وكانـت أمّه أميمة بنت عبـد المطّلب، وعثمان بن الحويرث بن أسـد بـن عبـد العزّى بن قـصيّ، وزيد بن عمـرو بن نُفيلٍ بـن عبد العزّى بـن عبدالله بن قـرطٍ بن رياح بن رزاحٍ بن عديٍّ بـن كعبِ بن لؤيٍّ. فقال بعضهم لبعضٍ: تعلموا والله ما قومكم على شـيءٍ، لقد أخطأوا ديـن أبيهـم إبراهيم؛ ما حجـرٌ نطيف به، لا يسـمع، ولا يبصر، ولا يضرّ، ولا ينفع. يا قوم! التمسـوا لأنفسـكم، فإنّكم والله ما أنتم على شـيءٍ. فتفرّقوا في البلدان يلتمسون الحنيفيّة، دين إبراهيم، فأمّا ورقة بن نوفل فاسـتحكم في النّصرانيّة، واتّبع الكتب من أهلها حتّى علم علـماً من أهل الكتاب. وأمّا عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو من الالتباس حتّى أسـلم ثمّ هاجر مع المسلمين إلى الحبشة، ومعه امرأته أمّ حبيبة بنت أبي سـفيان مسـلمةً. فلمّا قدمها تنصّر، وفارق الإسلام حتّى هلك هنالك نصرانيّاً. قال ابن إسحق: فحدّثني محمّدٌ بن جعفر بـن الزّبـير قال: كان عبيـدالله بن جحشٍ حين تنـصّر يمرّ بأصحاب رسـول الله (صلعم)، وهـم هنالك من أرض الحبشة، فيقول: فقحنا وصأصأتـم. أي أبصرنـا وأنتم تلتمسـون البصر، ولم تبـصروا بعد. وذلـك أنّ ولـد الكلـب إذا أراد أن يفتح عينيه لينظـر صأصأ لينظر. وقولـه (فقـح) أي فتح عينيه. قال ابن إسـحق: وخلف رسـول الله

(صلعـم) بعده عـلى امرأته أمّ حبيبة بنت أبي سـفيان بن حرب. قال ابن إسحق: وحدّثني محمّدٌ بن عليٍّ بن حسين أنّ رسول الله (صلعم) بعـث فيهـا إلى النّجـاشي، عمرو بـن أميّـة الضّمـري، فخطبها عليه النّجـاشي، فزوّجه إيّاهـا، وأصدقها عن الرّسـول (صلعـم) أربعمائة دينارٍ، فقال محمّدٌ بن عليٍّ: ما نرى عبد الملك بن مروان وقف صداق النّسـاء عـلى أربعمائة دينارٍ إلّا عـن ذلك. وكان الـذي أملكها للنّبي (صلعم) خالدٌ بن سـعيدٍ بـن العاصِّ. قال ابن إسـحق: وأمّا عثمان بـن الحويرث فقدم عـلى قيصر ملك الرّوم فتنصّر، وحسـنت منزلته عنـده. قـال ابن هشـامٍ: ولعثـمان بن الحويـرث عند قيـصر حديثٌ يمنعني من ذكره ما ذكرت في حديث الفجّار. قال ابن إسحق: وأمّا زيـدٌ بن عمرو بـن نفيلٍ فوقف فلـم يدخل في يهوديّـةٍ ولا نصرانيّةٍ. وفـارق دين قومه، فاعتـزل الأوثان، والميتة، والـدّم، والذّبائح التي تذبح على الأوثان، ونهى عن قتل المؤودة، وقال: أعبد ربّ إبراهيم. وبـادى قومـه، بعيب ما هم عليه. قال ابن إسـحق: وحدّثني هشـامٌ بـن عروة عـن أبيه عن أمّه، أسـماء بنت أبي بكـرٍ (رض) قالت: لقد رأيـت زيداً بن عمرو بن نفيلٍ يقول: يـا معشر قريش! والذي نفس زيد بن عمرو بيده، ما أصبح أحدٌ منكم على دين إبراهيم غيري. ثم يقول: اللّهم لو أنّي أعلم أيّ الوجوه أحبّ إليك عبدتك به، ولكنّني لا أعلمه. ثمّ يسـجد على راحته. قال ابن إسـحقك وحُدّثت أن ابنه سعيد بن زيدٍ بن عمرو بن نفيلٍ، وعمر بن الخطّاب، وهو ابن عمّه، قالا لرسـول الله (صلعـم): اسـتغفر لزيدٍ بن عمرو. قـال: نعم، فإنّه

يُبعث أمةً وحده. قال زيد بن عمرو بن نفيل في فراق دين قومه، وما كان لقى منهم في ذلك[1]:

أَرَبًّا وَاحِدًا أَمْ أَلْفَ رَبٍّ ... أَدِينُ إِذَا تَقَسَّمَتِ الأُمُورُ
عَزَلْتُ اللَّاتَ وَالعُزَّى جَمِيعًا ... كَذَلِكَ يَفْعَلُ الجَلْدُ الصَّبُورُ
فَلَا العُزَّى أَدِينُ وَلَا ابْنَتَيْهَا ... وَلَا صَنَمَيْ بَنِي عَمْرٍو أَزُورُ
وَلَا هُبَلًا أَدِينُ وَكَانَ رَبًّا ... لَنَا فِي الدَّهْرِ إِذْ حِلْمِي يَسِيرُ
عَجِبْتُ وَفِي اللَّيَالِي مُعْجَبَاتٌ ... وَفِي الأَيَّامِ يَعْرِفُهَا البَصِيرُ
بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَفْنَى رِجَالًا ... كَثِيرًا كَانَ شَأْنَهُمُ الفُجُورُ
وَأَبْقَى آخَرِينَ بِبِرِّ قَوْمٍ ... فَيَرْبِلُ مِنْهُمُ الطِّفْلُ الصَّغِيرُ
وَبَيْنَا المَرْءُ يَفْتَرُّ ثَابَ يَوْمًا ... كَمَا يَتَرَوَّحُ الغُصْنُ المَطِيرُ
وَلَكِنْ أَعْبُدُ الرَّحْمَنَ رَبِّي ... لِيَغْفِرَ ذَنْبِيَ الرَّبُّ الغَفُورُ
فَتَقْوَى اللهِ رَبِّكُمُ احْفَظُوهَا ... مَتَى مَا تَحْفَظُوهَا لَا تَبُورُ
تَرَى الأَبْرَارَ دَارُهُمُ جِنَانٌ ... وَلِلْكُفَّارِ حَامِيَةٌ سَعِيرُ
وَخِزْيٌ فِي الحَيَاةِ وَإِنْ يَمُوتُوا ... يُلَاقُوا مَا تَضِيقُ بِهِ الصُّدُورُ

فأفادنا ابن هشام أنّ خطّاباً الذي كان عمّ زيد طرده من مكّة، وألزمه أن يقيم على جبل حرّآء، أمام تلك المدينة، ولم يأذن له

(١) سيرة ابن كثير، ج١، ١٦٢. والقصيدة تُنسب، أيضاً، لأميّة بن أبي الصّلت. ينظر: ديوانه. (المراجع)

بالدّخول إلى مكّة[1]. وكذلك نستفيد من هذا الكتاب، أنّ محمّداً كان معتاداً أن يُقيم في غار جبل حرّآء، في صيف كلِّ سنةٍ، للتّحنّث[2]، حسب عادة العرب. فالأرجح، أنّه كان يجتمع بزيدِ بن عمرو، فإنّه كان أحد أقربائه. وأقوال ابن إسحق تؤيّد هذا القياس؛ لأنّه قال: أنّه لما كان محمّدٌ في ذات هذا الغار، وإذا بجبريل أتاه. وهاك نصّ عبارة ابن إسحق:

«ثمّ جاءه جبريل بما جاءه من كرامة الله، وهو بحرّآء في شهر رمضان... كان رسول الله يجاور في حرّآء من كلِّ سنةٍ شهراً، وكان ذلك ممّا تحنثُ به قريشٌ في الجاهليّة. والتّحنّث التّبرّر... قال ابن هشامٍ: تقول العرب: التّحنّث، والتّحنّف. يريدون الحنيفيّة، فيبدلون الفاء من الثّاء».[3]

فكلُّ من له اطّلاعٌ على القرآن والأحاديث، يرى ممّا تقدّم، أنّ آرآء زيدِ بن عمرو أثّرت تأثيراً مهمّاً جدّاً في تعاليم محمّدٍ؛ لأنّ كلّ الآرآء التي ذهب إليها زيدٌ، نجدها في ديانة محمّدٍ، أيضاً. وهذه الآراء هي:

(١) منع الوأد.

(٢) رفض عبدة الأصنام.

(١) سيرة الرّسول، ج ١، ٧٩.

(٢) تعبّد واعتزل الأصنامَ. (المراجع)

(٣) ج ١، ٨٠-٨١.

(٣) الإقرار بوحدانيّة الله.

(٤) الوعد بالجنّان.

(٥) الوعيد بالعقاب في سعيرٍ وجهنّم.

(٦) اختصاص المولى، سبحانه وتعالى، بهذه الأسماء؛ وهي: الرّحمن، الرّب، الغفور.

واعلم أنّ محمّداً ذاته قال ما قاله زيدٌ بن عمرو؛ لأنّ زيداً، وكلّ واحدٍ من الحنفاء، قال: إنّهم يبحثون عن (دين إبراهيم)، غير أنّ زيداً قال: إنّه أدرك ضالّته المنشودة، ونال غايته المقصودة، وهي أنّه وجد هذا الدّين. وأنّ محمّداً ذاته ادّعى أنّ غايته هي دعوة النّاس إلى دين إبراهيم بواسطته. وكثيراً ما أطلق القرآنُ على إبراهيم أنّه حنيفٌ، مثل زيدٍ وأصحابه، وإن كان اطلاقه هذا اللّقب في القرآن على إبراهيم يفيد ذلك بطريق الالتزام. ولتأييد هذا، نورد من القرآن بعض آياتٍ قليلةٍ، فنقول: ورد في سورة النّساء ما نصّه[1]:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾

وكذلك ورد في سورة آل عمران ما نصّه[2]:

﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ

(١) الآية، ١٢٥.

(٢) الآية، ٩٥.

﴿الْمُشْرِكِينَ﴾

وكذلك ورد في سورة الأنعام(١):

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾

فكلّ من له إلمامٌ بتراكيب اللّغة العربيّة وقواعدها يرى، مع إنّ القرآن يطلق على إبراهيم، بطريق المنطوق، أنّه حنيفٌ إلّا إنّه أطلق عليه، بطريق المفهوم، أنّه كان حنيفاً. وحضّ القرآنُ أصحاب محمّدٍ على قبول ملّة إبراهيم، وأنّ مَن قبل ملّةَ إبراهيم كان من عِداد الحنفاء. ومع إنّ أصل كلمة (حنيف)، في اللّغة العبريّة والسّريانيّة، تفيد نجس أو مرتدّ، إلّا إنّه لما أطلق عبدةُ الأصنام من العرب على زيدٍ وأصحابه لفظ الحنفاء كان مقصودهم أن يوسموهم بالارتداد؛ لأنّهم تركوا ديانة أسلافهم، عبدة الأصنام، فاستحسن محمّدٌ والعرب الحنفاء أن يختصّوا بهذا اللّقب. وفسّروا هذه اللّفظة تفسيراً حسناً، وصبغوها بمعنى مناسبٍ.

ولعلّ الذي حملهم على ذلك هو أنّهم لم يروا هم ذاتهم فرقاً بين التّحنّف والتّحنّث. ولا ننسى أنّ هؤلاء الأشخاص الأربعة، الذين دعوا حنفاء، كانوا من أقرباء محمّدٍ؛ لأنّهم تناسلوا جميعهم من لؤي. وزد على هذا، أنّ عبيد الله كان ابن خالة محمّدٍ، وتزوّج محمّدٌ أمّ حبيبة، أرملة عبيد الله. وأيضاً، كان ورقة، وعثمان ابني عمّ خديجة،

(١) الآية، ١٦١.

كما يُعلم ذلك، ممّا أورده ابن هشام في النّسب المذكور، في «سيرة الرّسول»[1]، وقد ذكرنا بعض هذا النّسب، في ما تقدّم.

فينتج من هذا، أنّه كان يستحيل أنّ آراء زيدٍ، وغيره من الحنفاء، ومذاهبهم، وأقوالهم، وتعاليمهم، لا تُحدث في أفكار محمّدٍ أثراً مهمّاً جدّاً. وفي الختام نقول، ممّا يجب التّنبيه عليه، هو، مع إنّه لم يؤذن، ولم يصرّح لمحمّدٍ، حسب الحديث الذي ذكره البيضاوي في تفسيره على (سورة التّوبة، الآية، ١١٤)، أنّ يستغفر لآمنةَ، والداته، إلّا أنّه استغفر لزيدٍ بن عمرو، كما ذُكر سابقاً. فقال: إنّه سيُبعث زيدٌ أمّةً وحده، يوم القيامة. وهذا بمثابة تصديق محمّدٍ لمبادئ زيدٍ بن عمرو، وعلى مدّعاه.

ولكن ربّما يتصدّى إنسانٌ للرّدّ على ما ذُكر في هذا الفصل، وفي غيره من فصول هذا الكتاب السّابقة، قائلاً: إذا فرضنا، أنّ مصادر الإسلام، التي أوردها المعترضون للإسلام، هي المصادر الحقيقيّة له، فإذن لا يكون أثرٌ لمحمّدٍ ذاته في كلّ ديانته. وهذا غير ممكنٍ. قلنا في الرّدّ على ذلك: أنّ المعترضين على الإسلام يقولون: إنّه لما كان محمّدٌ شارعاً في إيجاد دينه فلا يمكن عدم ظهور أمياله وخِلاله في هذا الدّين، يعني لا بدّ أن تظهر خِلالُه وأميالُه في الدّين الذي يسنّه؛ لأنّ البنّاء أو المهندس إذا بنى بيتاً من حجارةٍ متنوّعةٍ من اللّبن وقوالب الآجر، فلا بدّ أن تظهر حذاقته وكفاءته في تنظيم هذه المواد،

(١) ج ١، ٦٣-٧٦.

بـأن يجعلها في ترتيبٍ محكمٍ، ونظامٍ مـبرمٍ. وعلى كلِّ حالٍ، لا بدّ من ظهـور غايات البنّاء والمهندس ومهارته في البناء الذي يشـيّده. فعلى هـذا القياس يقال في الدّيانة الإسـلاميّة. فبما إنّها تشـكّلت، بشـكلٍ خصوصيٍّ، يختلف عن سـائر الأديان الأخـرى من وجوهٍ كثيرة عند المقارنـة بها. فنقـول، بناءً على هذا: أنّ باني أو مهندس هذا البناء كان عاقلاً مقتدراً. ويستدلّ على فصاحة محمّدٍ من فصاحة عبارة القرآن.

وبـصرف النّظـر عن كلِّ هذا، ففـي القرآن آثارٌ ظاهـرةٌ، وقرائنُ معيّنـةٌ، تدلّ على الحـوادث والوقائع التي حصلـت في تاريخ محمّدٍ. مثـلاً كان محمّـدٌ قبل الهجرة مجرّداً عن الشّـوكة والسّـطوة الدّنيويّة؛ فلذلـك لا ترى في الآيات التـي كتبها قبل الهجرة ذكراً للجّهاد لنشر دعوتـه وتعميم ديانته، ولكن بعد الهجرة، لما صار سـكّان المدينة من أنصاره، أذِن:

(أوّلاً) لأصحابـه بالكفـاح والحـرب، للـذّبّ، والدّفـاع عـن أنفسهم. وبناءً عليه، ورد في سورة الحجّ ما نصّه[1]:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِـأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ... الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾

وقـال ابن هشـام[2] عن عروةَ، وغـيره من أصحـاب محمّد: «أنّ الأُذن بالحرب ورد أوّلاً في هاتين الآيتين».

(١) الآيتان، ٣٩-٤٠.

(٢) سيرة الرّسول، ج ١، ١٦٤.

(ثانياً) لما انتصر محمّدٌ وصحابته في جملة غزواتٍ، تغيّر هذا الأُذن إلى فرضٍ، أي أمرٌ واجبٌ. وبناءً على هذا، ورد في سورة البقرة[١]:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ... يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾

ومعنى هاتين الآيتين، أنّ الواجب على المسلمين أن يكافحوا، ويُلزموا قريشاً على عدم التعرّض لهم، ومنعهم عن السّفر إلى الكعبة.

(ثالثاً) لما هَزَمَ المسلمون، في السّنة السّادسة من الهجرة، بني قريظة، وبعض طوائف اليهود الأخرى شدّد في الحضّ على الجهاد، كما ذكر في سورة المائدة[٢]:

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

قال المفسّرون: إنّ هذا الأمر يختصّ بما يجب معاملة عبدة الأصنام به، ولا دخل له في معاملة اليهود أو النّصارى. ولكن بعد هذا، بعدّة

(١) الآيتان، ٢١٦-٢١٧..

(٢) الآية، ٣٣.

سنين، وُضِعَت وسنّت القوانين التي يجب على المسلمين مراعاتها نحو أهل الكتاب، وذلك في السّنة الحادية عشرة بعد الهجرة، قبيل وفاة محمّدٍ.

(رابعاً) أنّه فُرض على المسلمين في سورة التّوبة[1]، وهي آخر سورةٍ أُنزلت، أن يبتدئوا بالحرب، وذلك بعد الأربعة أشهر الحرم، ونصّ العبارة:

﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ... قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾

ومقتضى قواعد القرآن السّتّ أنّ إرادة المولى العليم الحكيم، المنزّه عن التّغيير والتّحوّل والانتقال، تغيّرت بالنّسبة إلى فوز محمّدٍ، وانتصار أصحابه في الحروب، وفي تقدّمهم بالتّدريج المكلّل بالانتصار. ويظهر ذلك، بنوعٍ جليٍّ، فيما قرّره فقهاء الإسلام من أنّ بعض آيات القرآن منسوخةٌ، وبعضها ناسخةٌ. وهو مطابقٌ لما ورد في سورة البقرة، ونصّ عبارتها[2]:

(١) الآيات، ٥-٢٩.

(٢) الآية، ١٠٦.

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

وسبب ذلك، أنّ محمّداً كان يؤمّل أنّه إذا خلط أديان اليهود والمسيحيّين، وبعض رسوم دينيّةٍ عند العرب، تيسّر له أن يؤلّف ديناً يدين به جميع سكّان جزيرة العرب، ويقبلونه، ويكونون أمّةً واحدةً. فبذل غاية ما في وسعه ليجذب إليه هذه الطّوائف المختلفة كلّها، وهذه الملل المتنوّعة والمتفرّقة، (ويجمعهم إلى أمّةٍ واحدةٍ)، ويجعلهم أتباعه. ولكنّه لما رأى حبوط هذا المسعى وبطلانه، عزم على استئصال اليهود والمسيحيّين، لقطع دابرهم أو نفيهم من بلاد العرب، أقلّ ما يكون، كما هو واضحٌ من منطوق القرآن.

ويظهر، زيادةً على ذلك، ممّا ورد في سورة الأحزاب[1]، بخصوص امرأة زيدٍ، ابنة المتبنّى، ظهور الشّمس في رابعة النّهار، أنّ صفات محمّدٍ، وخِلاله، وأطواره، أحدثت أثراً مهمّاً جدّاً في القرآن. وهذا واضحٌ ممّا ورد في القرآن، والأحاديث، بخصوص تعدّد الزّوجات.

ولا شكّ، أنّ مجموع المواضيع، والمطالب، والتّعاليم، المدوّنة في القرآن، والأحاديث، هي مثل أنواع وأقسام مياه آتيةٍ من أنحاءٍ شتّى، ومن ينابيع متفرّقةٍ، فتجمّعت إلى بحيرةٍ. غير إنّ الإناء (أو

(١) الآية، ٣٧: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾. (المراجع)

الظّرف) الذي أكسب هذه المياه المتجمّعة شكلها وهيئتها، هو عقل محمّدٍ، ونفسه، وسجيّته، وطبيعته. ولا ينكر أنّ كثيراً من التّعاليم الواردة في القرآن؛ ولا سيّما التّعاليم المختصّة بوحدانيّة الله القدّوس، هي مفيدةٌ ونافعةٌ، بل لا ننكر وجود بعض الصِّدق والفائدة في الأقوال المختصّة بالميزان، والجنّة، وشجرة الطّوبى. ولكن من أراد أن يشرب ماءً رائقاً نقيّاً لا ينبغي له أن يرد مورد الماء المعكّر، بل عليه أن يرد ينبوع نهر ماء الحياة، الذي كثيراً ما يشهد له القرآن نفسه. وهذا الينبوع هو كتب الأنبياء والحواريّين التي قال عنها القرآن ما يأتي، وهو:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ... وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1]

فهذه الشّهادة التي شهد بها القرآن نفسه للكتاب المقدّس، (أي التّوراة، والإنجيل)، تغافل عنها المسلمون، ونبذوها في زوايا النّسيان، أو أهملوها، وأوّلوها، وصرفوها عن أذهانهم، ولكنّها أهمّ أركان تعاليم القرآن. وزد على هذا، أنّ محمّداً حضّ أتباعه على التّمسّك بدين إبراهيم، خليل الله. ومن أراد معرفة دين إبراهيم وجب عليه أن يستقضي توراة موسى، فيستفيد منها. إنّ الله، سبحانه

(١) سورة المائدة، الآيتان، ٤٤-٤٦.

وتعالى، وعد إبراهيم أن يتناسل من نسله، ومن نسل إسحق، ابنه، المخلّص الوحيد، الرّبّ الحقيقي، يسوع المسيح. وإنّ إبراهيم اعتمد على هذا الوعد، وآمن بالمخلّص الموعود به، فنال خلاصاً، ودُعي خليل الله، كما ورد ذلك في «رسالة يعقوب»[1].

ولتأييد صدق كلامنا، نورد بعض آياتٍ من الكتاب المقدّس، (التّوراة، والإنجيل). فقد ورد في شريعة موسى، في سفر التّكوين[2]: أنّ قبل مولد إسحق كان إبراهيم هرماً، وطلب من المولى أن يقبل إسمعيل وارثاً للوعد قائلاً: «ليت إسمعيل يعيش أمامك». فرفض الله هذا الطّلب. وإن كان قد وعد بأن يبارك إسمعيل بالرّخاء الدّنيوي، وقال له: «بل سارة امرأتك تلد لك ابناً، وتدعو اسمه

(١) الاصحاح ٢، الآية ٢٣. ورسالة يعقوب هي إحدى أسفار العهد الجديد التي تصنّف ضمن رسائل الكاثوليكيّين، موجّهة من «يعقوب عبد الله والرّب يسوع المسيح إلى الإثني عشر سبطًا في الشّتات»، أي أنّها كتبت للمسيحيّين الذين ينحدرون من أصلٍ يهودي وينتمون لأسباط إسرائيل، أو بحسب آراءٍ أخرى، قد كتبت لجميع المسيحيّين من غير الجنس اليهودي؛ فهؤلاء أيضًا يحسبون منتمين للأسباط انتماءً روحيًّا، وبكل الأحوال فهم مشتّتون في كلّ مكانٍ. وكان آباء الكنيسة قد أجمعوا منذ القرن ٢م على أنّ يعقوب هذا هو يعقوب البار الملقّب بأخي يسوع وأسقف كنيسة أورشليم. ولكن من شبه المؤكّد لدى شرّاح الكتاب المقدّس بأنّ الكاتب ليس يعقوب الكبير تلميذ المسيح لأنّه قتل عام ٤٢م أو ٤٤م، وفي ذلك الوقت لم تكن الكنائس منظمة بعد لكي يبعث لها برسائل تعليميّةٍ أو رعويّةٍ وغيرها. ويعتقد البعض بأنّ كاتب هذا السّفر هو مسيحي ذو خلفية هيلينيّة، كتب هذه الرّسالة ليس قبل عام ٧٠م أشبعها بروح أقوال يعقوب وأضاف فيها، أيضاً، شيئاً من فكره الخاص. من المرجّح أنّها كتبت عام ٦٠م أو ٦١م. (المراجع)

(٢) الاصحاح ١٧، الآيات ١٨-٢١.

إسحق، وأقيمُ عهدي معه عهداً أبديّاً لنسله من بعده، أمّا إسمعيل فقد سمعت لك فيه؛ ها أنا أباركه، وأثمّره، وأُكثره كثيراً جدّاً، إثني عشر[1] رئيساً يلد، وأجعله أمّةً كبيرةً، ولكنّ عهدي أُقيمه مع إسحق الذي تلده لك سارة، في مثل هذا الوقت، في السّنة الآتية». وقد قال الله لإبراهيم ثانيةً ما نصّه، كما ورد في سفر التكوين[2]، وهو:

{ويتبارك في نسلك جميع أُمم الأرض؛ من أجل أنّك سمعت لقولي}

يعني لأنّك رضيت أن تقدّم ابنك إسحق ذبيحةً لله، كما ورد في هذا الاصحاح. وقال الرّب يسوع المسيح نفسه لليهود في الإنجيل الشّريف، مشيراً إلى هذا الوعد، وإلى اعتماد إبراهيم عليه ما نصّه[3]:

{أبوكم إبراهيم تهلّل بأن يرى يومي، فرأى وفرح}

وقال بولس الرّسول بالوحي الإلهي في رسالته إلى أهل غلاطية ما نصّه[4]، عن هذا الصّدد:

{وأمّا المواعيد فقيلت في إبراهيم، وفي نسله، لا يقول. وفي الإنسان كأنّه عن كثيرين، بل كأنّه عن واحدٍ، وفي نسلك الذي هو المسيح... فإن كنتم للمسيح فأنتم إذن نسل إبراهيم، وحسب الموعد ورثة}.

(١) وردت أسماؤهم في سفر التكوين، الاصحاح ٢٥، الآيات ١٣-١٦.

(٢) الاصحاح ٢٢، الآية ١٨.

(٣) يوحنّا، الاصحاح ٨، الآية ٥٦.

(٤) الاصحاح ٣، الآيات ١٦-٢٩.

مصادر الإسلام

ما الدّاعي لإعادة طبع كتاب مضى ما ينيف على القرن منذ صدور طبعته الأولى مع مطلع القرن العشرين، على الأرجح ما بين 1902-1904؟، لا سيّما إن كان كتاباً إشكاليّاً في طروحاته من جهة، وكتاباً أصبح من الكلاسيكيّات في اتّجاهه البحثي، المتعلّق بأصول الإسلام ومصادره، من جهة أخرى، وقد قطع هذا الاتّجاه، لاحقاً، أشواطاً أبعد منه؛ ذلك أنّ من يطّلع على هذا الكتاب يرى أنّه كتابٌ جدليٌّ، يندرج في إطار النّقد الدّيني، بل حتّى أنّه قد وُصِف بأنّه كتابٌ تبشيريٌّ للدّيانة المسيحيّة، على وجه الخصوص.

فهل ثمّة حاجة مستجدّة لإعادة إنتاج هذا الجدل الدّيني الذي يستعيد آليات علم الكلام المذهبي الذي ساد في القرون الوسطى، وتجدّد مع نهايات القرن 19 وبدايات القرن 20 في بلدان الشّرق الأوسط؛ في إيران وباكستان والهند ومصر، على سبيل المثال؟ أم أنّ ثمّة دوافع علميّة تتعلّق بتعزيز الاتّجاه البحثي الخاصّ بدراسة أصول الأديان ومنابعها، على نحو عامّ، ودراسة مصادر تشكيل الإسلام، بشكلٍ خاصّ؟ أم أنّ الأمر لا يعدو كونه انخراطاً في جدل التّجاذبات الأيديولوجيّة المتبادلة بين التّيارين الدّيني والعلماني المتصارعين، حاليّاً، في فضاء الرّأي العام العربي، على وجه الخصوص؟

ISBN: 978-99922-9600-4-3





دار دجلة الاكاديمية
للنشر والتأليف والتوزيع والترجمة